المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب



أسرار التنوّع في تشبيهات القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد الطالبة

ملك حسن عبد الرزاق بخش

إشراف الدكتور

عبد الفتاح لاشين

١٤٠٩/١٤١٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

" وتلك الأمثال نضربها للناس

لعلهم يتفكرون " (الحشر/ ٢١)

وقال تعالى:

" وتلك الأمثال نضربها للناس

وما يعقلها إلا العالمون " (العنكبوت/ ٤٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم.

الدرجة العلمية: ماجستير.

الطالبة : ملك حسن عبد الرزاق بخش.

ملخص الرسالة

اقتضت طبيعة البحث لأن يكون في تمهيد وستة فصول وخاتمة. أما التمهيد فقد بينت فيه جهود السابقين في بيان أسرار التنوع ، ثم الفصل الأول عن تشبيهات الحياة الدنيا وأسرار تنوعها ، والثاني عن تشبيهات الانفاق ، والثالث عن تشبيهات الحق والباطل ، والرابع عن تشبيهات أعمال الكافرين ، والخامس عن تشبيهات أوصاف المخالفين ، والسادس عن التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث . ثم الخاتمة وفيها عرضت أهم ما توصلت اليه من نتائج وأصول في أسرار التنوع ، ومن تلك الأصول :

١ - تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الغرض والسياق .

٢ - الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب الى الصورة الأكثر تركيبا تدرجا في اقناع النفس وتلاؤما مع وفرة المعاني .

٣ - التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أومتقابلتين كالمثل المائي والناري والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن.

٤ - مراعاة أحوال البيئة المعاشية والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من البادية وأخرى من الحضر .

٥ - مراعاة المستوى الفكري والحضاري والتقدم العلمي .

٦ - الانتقال من الحسي الى المعنوي كالتمثيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لاثارة محور الطمع في الربح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله .

٧ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناؤه ونظمه وعناصره وظلاله التي تتناسب مع السياق الذي ورد فيه فالماء المختلط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر والهشيم الذي تذروه الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها والظلمات التي تتكاثف في بحر لجي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا . .

الطالبة	المشرف	عميد كلية اللغة العربية
ملك حسن عبد الرزاق بخش	د /عبد الفتاح لاشين	د / محمد بن مريسي الحارثي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمــــة

الحمد لله الذى فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين وآتانا بـــه مالم يؤت أحدا من العالمين والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن ووصيته القرآن وميراثه القرآن القائل (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (*) يقول العلامة الزمخشرى صاحب عمدة التفاسير في البلاغة العربية "إنّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح مـــن غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير" (١).

ثم بين رحمه الله تعالى أن هذا العلم لا يتم تعاطيه وإجالـة النظر فيه لكل ذى علم وإنما لا بد من البراعة في علوم البلاغة المختصة بالقرآن الكريم كعلمي المعاني والبيان وأن البراعة فيهما تحتاج إلى تأنٍ في إرتيادهما وتعب في التنقير عنهما (٢).

ومن هنا يتضح لنا دقة البحث في القرآن الكريم ومشقته ووعورة مسلكه على جلاله وفضله وشرفه الذى لا يدانى .

ولقد بهرني أثناء دراستي العليا جمالُ التشبيه في القــرآن الكريم وجلاله فأردت أن يكون موضوعا للبحث والدراسة . ولما كان التشبيه في القرآن خصباً رحباً يتسع مجال القول فيه وباباً عجيباً لا تنتهـــي

---

(١) الكشاف ١/١٦.

(٢) المصدر السابق .

(*) أخرجه البخارى والترمذى وأبوداود (جامع الأصول في أحاديث الرسول) ٨/٥٠٧ رقم الحديث ٦٢٩٨.

لطائفه ومعانيه وفق الله استاذى الدكتور محمد محمد أبو موسى أن يقفني على هذا الجانب منه ألا وهو أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم .

وهو باب دقيق المسلك صعب المرتقى لطيف المأخذ أشبه بالسحر لم يسبقني إليه أحد بحمد الله فيما أعلم ولم أجد في جهود العلماء السابقين من التفت إليه التفاتا مباشراً إلا ما ورد عن الرماني الذى أشار إلى أسرار التنوع بطريق غير مباشر حين جمع النظير إلى نظيره وعلّق عليه .

وتعد كتب المفسرين / وعلماء المتشابه هي الحقل الأول الذى نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع لأن هؤلاء هم الذين وقفوا عند الآيات المتشابهة وألمحوا إلى الفروق التي بينها، تأمل مثلا قول ابن القيم حيث يقول :

"فان قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ (1)

وبين قوله في سورة سبأ - ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ .

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقا فتدبر السياق تجده تقيضاً لما وقع". (2)

---

(1) سورة يونس آية 31 .

(2) التفسير القيم لابن القيم ص 306 .

ثم يحلل ، ويبين مناسبة كل آية لسياقها الذى وردت فيـــــه .

أما في الشعر فيعد عبد القاهر الجرجاني أول من فتح بـاب أسرار التنوع في التشبيه بطريق غير مباشر وذلك في موازناته بيـــــن الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كأنَّ مُثار النقعِ فَوقَ رؤوسِنـــا
وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كَوَاكِبُـــه

مع قول المتنبي :

يَزُورُ الأعَادِيَ في سماءٍ عجاجه
أسنتُه في جَانِبيهـا الكَواكِبُ

أو قول عمرو بن كلثوم :

تبنى سَنَابِكَهـا مَنْ فوق أروسهم
سقفاً كواكبه البيضُ المباتيـــرُ

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الأبيات رغم أنه يجمعها معنى عام واحد وهو تشبيه لمعان السيوف في الـغبار بالكواكب بالليل " إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الوقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره وذلك أنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن الكواكب تتهـادى فأتم الشبه "(١).

وهكذا نبـه عبد القاهر إلى هذه الفروق والدقائق وأسرار تنوعها .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٥١ - ١٥٢ .

وقد استقام البحث بعد ذلك في تمهيد وستة فصول وخاتمة.

وهذا التقسيم إنما هو بحسب الأغراض الظاهرة وإلا فان التشبيه في القرآن الكريم يجرى فيه ما يجرى في أبناء العشيرة الواحدة من الصلات والوشائج والطباع الخفية.

أما التمهيد : فقد بينت فيه جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع في التشبيه وغيره أى بصورة عامة لأن كتب المفسرين وعلماء المتشابه هي الحقل الأول الذى نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع بصورة عامة ثم تطرق النظر إلى التشبيه في القرآن الكريم .

الفصل الأول :

درست فيه التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا وأسرار تنوعها وفيه بينت لماذا بنى التشبيه مرة على التحليل والتفصيل كما في سورة يونس ، وأخرى على الطى والدمج كما في سورة الكهف ، وغير ذلك من فروق ودقائق ظهرت اثناء التحليل والموازنة.

الفصل الثاني :

درست فيه التشبيه الذى يمثّل الإنفاق ويتضمن :

- الإنفاق في سبيل اللّه ، والإنفاق الذى شابته شائبة المن والأذى أو الرياء أو الكفر الصريح ، وبينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه الإنفاق في سبيل الله مرة بالحبة التي أنبتت سبع سنابل وأخرى بالجنة ذات الربوة التي أصابها وابل ، كما بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيهات الإنفاق لغير سبيل اللّه بالصفوان الذى عليه تراب، والجنة التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت، والحرث الذى أصابته ريح فيها صر فأهلكته .

الفصل الثالث :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه . بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه الحق بالماء النازل من السماء والمعدن الذى يوقد عليه ، وبالشجرة الطيبة الثابتة الأصل وأسرار التنوع وراء تشبيه الباطل بالزبد الطافي ، وبالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض .

الفصل الرابع :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين مرة بالرماد وأخرى بالسراب أو الظلمات أو الهباء المنثور.

الفصل الخامس :

درست فيه التشبيه الذى يمثل أوصاف المنافقين وأسرار تنوعها وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه المنافقين مرة بالمستوقِد نارا وأخرى بأصحاب الصيِّب.

الفصل السادس :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار تنوعها، وقد وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه الناس عند خروجهم من الأجداث بالجراد المنتشر أوالفراش المبثوث وهكذا..

ثم الخاتمة : وفيها عرضت أهم ما توصلت إليه من نتائج وما استخلصته من أصول في أسرار التنوع.

وقد التزمت في هذه الدراسة بمنهج معين :

أولا : وضعت مدخلا لكل فصل بينت فيه كيف ورد هذا المعنى الذى تناوله التشبيه عن طريق الحقيقة كما ورد عن طريق المجاز. وكل ذلك تبعا لما يقتضيه السياق القرآني.

ثانيا : من أسرار المناسبة : بينت فيه بعض وجوه المناسبة بين المثل وبين مقاصد السورة وأغراضها وسياق الآيات لأنّ جزءاً كبيراً من بلاغة التمثيل هو من معطيات سياق يرتبط به.

ثالثا : من أسرار اللغة والنظم : حللت فيه المثل تحليلا بيانيا وقفت فيه أمام كل كلمة وجملة أتوسمها توسما واعياً من ناحية بنائها ومعناها اللغوى وعلاقتها بأخواتها وهكذا..

وكل ذلك في ضوء السياق الذى وردت فيه محاولة استخراج ما وراء ذلك من وحي وأحوال وأسرار.

رابعا : من أسرار التنوع : وفيه عقدت موازنة بين آيات التمثيل وصوره ومعانيه واستخلصت فيه أسرار التنوع ووجوه المقابلة والتضاد وغير ذلك من الدقائق التي ظهرت أثناء الموازنة والمقارنة.

وبعد : فلئن كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يقول : " فرب آية أقمت في تأملها شهوراً ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم ينظره يظهر له مقدار ما تعبت وما حصل لي من قبل الله ومن العون ". (١)

فما عساى أقول وأنا إنما استضئ (بكشافهم) وأتزود من (جامع بيانهم) وأغترف من (بحرمحيطهم) وأنظم من (روح معانيهم) و(نظم درهم) ثم أحرر ما كتبت (بمحررهم الوجيز) و(بالتحرير والتنوير).. وهكذا.

---

(١) نظم الدرر ١/ ١٥.

فللـــه هـذه الودائـــع التي استخرجت منها ما زادنـــي بصيـــرة وعلـم وشـحذ فكرى وقـدح زناد عـقلي وأورى جذوة قلبي وأوقفني على أنّ ما خلصت إليه من نتائج وأسرار ولطائف إنما هي غيض من فيض .

ولا يزال القرآن الكريم مأدبة اللّٰه التي لا يشبع منها العلمـــاء ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجو اللّٰه أن يعطف نحوه قلوب طلبة العلم النقيه الزكية ليستخرجوا ودائعه ويكشفوا حجبه .

بقيت كلمات يمتلئ بها القلب اجلالا واكبارا وحمداً وشكراًللّٰـــه الذى وفقني لخدمة كتابه الكريم والأنس بصحبته أياما خوالي ما أحســـب أن في الدنيا نعيماً يعدل نعيمي بهن ولو لم يكن لي من هذا البحـث إلا هذه الثمرات لكفتني .

ثم أتوجه بخالص الدعاء وجزيل الشكر إلى (جامعة أم القرى) هذه الأم التي ربتنا وتعهدت فينا أكرم ما خلق الله فينا (عقولنا وقلوبنا) ولها علينا فضل لا يدانيه فضل متفضل، وحسبها أنها تابعت بحوثنا، وأغدقت علينا من سخاء نفسها وسخاء هذه الدولة الفتية رعاها اللّٰه وحماها ما قوم اعوجاجها وزود مدادها طوال هذه السنوات الماضية .

وأخص بالشكر والتقدير الدكتور محمد بن مريسى الحارثي عميد كليـــة اللغة العربية على ما بذله من جهد حثيث في إتمام هذه المرحلة مـــن البحث .

كما أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان لأستاذى الدكتور الفاضل المشرف عبد الفتاح لاشين الذى تابع هذا البحث بجهد صابر وحرص شديد وله في كل صفحة نظر فجزاه الله عنا خير الجزاء وحسبه فاتحة خير عليّ أن جعل الله اجتنائي لثمرة هذا البحث على يديه الكريمتين.

وأوجه جزيل شكرى وتقديرى وخالص دعائي إلى الأستاذين الفاضلين الدكتور صباح دراز والدكتور الشحات عبد الرحمن أبو ستيت على ما تكرما به من قبول هذا البحث للمناقشة نفعني الله بحسن توجيهاتهما ورزقني حسن الأدب في مناقشتهما والالتزام بصائب رأيهما فيما قوماني به وأرشداني إليه فجزاهما الله عني خير الجزاء .

وجزى الله كل من كان له يد العون في إخراج هذا البحث على هذه الصورة خير الجزاء .

وأخص بالشكر زوجي وقرة عيني الدكتور الداعية عبد العزيز الجفرى والذى في ظل صحبته المباركة فتح الله علي بهذا العلم المبارك .

كما أخص بالشكر اخوتي الأحبة عبد الرحيم وخالد وماجد الذين بذلوا في سبيل هذا البحث ما بذلوه فجزاهم الله جميعا عني خير الجزاء وثقل موازينهم عند اللقاء.

وأخيرا أتقدم خافضة جناح الذل من الرحمة إلى والديّ الكريمين اللذين غرسا في نفسي حب العلم منذ النشأة وحملاني عليه حملا واللذين إن ضاقت بي الدنيا وتنكر لي أهلها خاصة وأنا أكتب هذا البحث تحت ظرف شديد وجدت لقلبيهما بابا لا يوصد دوني أبدا أرجو الله أن يكون علمي هذا مما تثقل به موازينهما يوم القيامة * وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا * .

وبعد : فهذا جهدى أرجو ربي أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يغفر لي بهذا القصد ما وقعت فيه من فساد الرأى وعدم الاصابة في الاجتهاد

وإنما غايتي أن يحرك الله هذه القلوب والعقول نحو هذا الباب الزاخر بالبلاغة العالية والتي لا تزال في أكمامها .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

تمهيـــــــد

جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع

١ - الرماني

٢ - ابن ناقيا البغدادى

٣ - عبد القاهر الجرجاني

٤ - الخطيب الإسكافي

٥ - الفخر الرازى

٦ - الكرماني

٧ - الفيروزابادى

١ - الرماني (أبو الحسن على بن عيسى الرماني) ت: ٣٨٦هـ

يعتبر الرماني أول من التفت إلى أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم التفاتاً غير مباشر - بمعنى أنه لم يكن عامداً له محيطا بكل أغراضه - وذلك حينما جمع النظير إلى نظيره في باب التشبيه وعلق عليه .

فقال في قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا

" فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ".(١)

ثم قرن هذا التمثيل بما يماثله في الغرض نفسه وهو تشبيه أعمال الكافرين في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٢ .

وقال معلقاً عليه : " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمع المشبه مع المشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الإستدراك لما فات وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة ".(١)

كما ذكر من التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا تشبيهين أحدهما من سورة يونس وهي قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

والثاني من سورة الحديد وهو قوله تعالى :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾

وقال معلقا على الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمع (المشبه) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقير وإن طالت مدته وصغيرٌ وإن كبر قدره ".(٢)

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال معلقاً على الثاني : " فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمعا في شدة الإعجاب ثم في التغيير بالانقلاب وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الإغترار بهما والسكون إليها ".(١)

كما تناول التشبيه الذى يمثل هلاك قوم عاد وهو قوله تعالى في سورة القمر :

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ

وقوله في سورة الحاقة :

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

فقال معلقا على التشبيه الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكها إياهما . وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخوف من تعجيل العقوبة ".(٢)

---

(١) المصدر السابق ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق ص ٨٣.

وقال في التشبيه الثاني : " وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح، وفي ذلك الإحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل ".(١)

والرماني في تناوله للتشبيه في القرآن الكريم ينظر إليه من جهات عدة :

١ - ينظر إليه من جهة عنصر البيان والكشف وكيف يبرز التشبيه المعنى الذهني أى الأمر الذى يدرك بالفكر في الصورة المحسة التي تدرك بالحواس .

٢ - يقف أمام الصفة المشتركة التي تجمع بين طرفي التشبيه ويبين عن وجه الملاءمة الدقيقة بينهما " أى وجه الشبه والذى يكمن فيه المغزى والغرض وقد عبر عن ذلك بقوله : " وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ".(٢)

٣ - يتذوق العناصر التي تكونت منها صورة التمثيل وما وراءها من إيحاءات وفيوضات وكيف وقعت موقعها الأمكن والأبلغ

----

(١) المصدر السابق ص ٨٤.
(٢) المصدر السابق ص ٨٢.

فيقول في آية النور : " ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا وأبلغ منه لفظ القرآن لأنّ الظمآن أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به ".(١)

٤ - يهتم بنسيج بناء التشبيه وصياغته والتي تكشف عن خبايا المعاني فيقول :" وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف اذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة ".(٢)

وهذا النظر المتوسم الواعي والحس المتذوق البصير لصور التمثيل وعناصر نسيجه وبنائه يعيننا على إدراك الفروق الدقيقة وأسرار التنوع وراء هذه الصور .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ . وانظر الاعجاز البلاغي ، د .محمد محمد أبو موسى ، ص ١٠١ - ١٠٤ .

٢ - ابن ناقيا البغدادي ت : ٤٨٥ هـ

يعد ابن ناقيا هو المصنف الفرد للتشبيهات القرآنية في كتابه "الجمان في تشبيهات القرآن". (١)

ومنهجه في كتابه هذا يعتمد على تفسير المعنى القرآني في الآية ثم الاستشهاد لهذه المعاني بشواهد شعرية يتخيرها من أروع النصوص الشعرية التي جرت في كلام العرب وأندرها وهو لا يقصد بذلك إلى الموازنة بين الشعر والقرآن فإنها لا تأتي في هذا الباب، ولكنه إنما يضع بين يدى القارىء بلاغة الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة ليجلى بلاغة القرآن وينبه على مكان الفضيلة فيه، ويؤكد أن التفاوت بين التنزيل والشعر ظاهرٌ ظهوراً شديدا لايخفى على ذى كيس إذا أسهمها نظره وعاطاها تأمله. (٢)

وهذه الأبيات الشعرية التي يسوقها ابن ناقيا حول معنى واحد هي باب من أبواب أسرار التنوع في الشعر ولكن ابن ناقيا لم يلتفت إليها ولم يقف عليها بالتحليل والموازنة وبيان الفروق الدقيقة

---

(١) انظر الإتقان للسيوطي ٢/ ٥٤.

(٢) الجمان ص ٧١.

التي بينها وإنما يكتفى ببيان أن هذا المعنى الذى أخذه الشعراء من لفظ الكتاب الكريم وقفوا به دون بلاغة القرآن واستيفاء معانيه يقول :

" وكذلك كل ما ينقله الشعراء أو غيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن لا يبلغون شأوه ولا يدركون مثاله إعجازاً وإعوازاً وإباءً وامتناعاً ". (١)

ويغلب على منهج ابن ناقيا في كتابه / الجمان أن يقرن النظير إلى نظيره في التشبيهات القرآنية ليزيد المعنى جلاءً ووضوحاً دون أن يعلق عليها أو يلتفت إلى أسرار تنوعها والفروق الدقيقة التي بينها فيقول مثلا في تشبيه الموج في القرآن قال تعالى :

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

" الجرى مر سريع كمر الماء على وجه الأرض . والسفينة تجرى بالماء والفرس يجرى في عدوه . . . والموج جمع موجه وهي القطعة العظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير ، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الريح فدل التشبيه على عظم شأن الأمر من حال الماء وتطبيقه الأرض ومن ملابسة الرياح له ومن ذكر الاعتبار بجرى السفينة في هذه الأهوال

---

(١) الجمان ص ٦٧ .

وناب لفظه مع اختصاره عن شرح كثير . ونحو هذا التشبيه قولـــــه تعالى في سورة أخرى :

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (١)

ويكتفي ابن ناقيا بذلك دون أن يعلق على التمثيل الثاني ويذكـــر الفرق بينهما ثم يورد تمثيلاً آخر في المعنى نفسه فيقول : " وقـــد ورد في التنزيل في صفة موج البحر بالعظم والارتفاع تشبيه آخـــــر وهو قوله تعالى في سورة القمر :

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ

لأن موج البحر يعظم فيصير كالظلل في ارتفاعه وتغطيته ما تحته ". (٢)

ويقرن بين قوله تعالى :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ..

وبين قوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ .

---

(١) الجمان ص ١٢٦ .

(٢) السابق ص ١٢٨ .

فيقول : " بين الله أن أعمال الذين كفروا في ذهابها وإحباطها كرماد ذهبت به الريح في يوم عاصف ، وكذلك بين أن العمل يبطل بالمن والأذى كما يبطل بالرياء وكما يذهب الوابل التراب عن الصفا ".(١)

وهذا يدلنا على أن تقسيمنا للتشبيهات في القرآن الكريم على تلك الأغراض التي تناولناها بالدراسة والتحليل إنما هو تقسيم بحسب الظاهر وإلا فإن التشبيه في القرآن يتلاحم ويتراحم ويؤكد بعضه بعضاً ولا يمكن فصله إلا للدراسة والموازنة.

وقد يذكر ابن ناقيا المعنى القرآني الذى ورد عن طريق التشبيه ويورد المعنى نفسه عن طريق الحقيقة فيذكر قوله عز وجل :

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

ثم يذكر قوله تعالى :

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ

ويقول في تحليلهما وبيان معانيهما : " الثعبان : الحية الضخم الطويل وأصله من ثعبت الماء ثعبا إذا فجره فسمى بذلك لأنه يجرى كجرى

----

(١) الجمان ص ١٣٠.

الماء عند الإنفجار ومعنى " مبين " أى بين أنه حيه .

وأما تشبيهه بالجان : فالمراد به أنها في اهتزازهـــا وخفة حركتها وسرعتها كالجان وهي في صورة الثعبان .. "(١)

كما يقرن بين قوله تعالى :

وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢)

وقوله تعالى :

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۝ (٣)

وقوله تعالى :

* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ۝ (٤)

وهو هنا لا ينظر إلى المشـــــــــــــــبه ولكنه ينظر إلى وحدة المشبه به مع اختلاف المشبه .

---

(١) الجمان ص ١٧٤ .

(٢) الواقعة / ٢٣ .

(٣) الطور / ٢٤

(٤) الانسان / ١٩ .

٣ - عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ :

يعد الإمام عبد القاهر الجرجاني أول من فتح باب أسرار التنوع في التشبيه في الشعر بطريق غير مباشر وذلك في موازناته بين الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كأن مُثار النقعِ فَوقَ رؤوسنا
وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه

مع قول المتنبي :

يزورُ الأعادي في سماء عجاجه
أسنتُه في جانبيها الكواكب

أو قول عمرو بن كلثوم :

تبنى سَنابِكَها من فوقِ أرؤسهم
سقفاً كواكبه البيض المباتير

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الأبيات المتناظرة يجمعها معنى عام واحد وهو تشبيه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل، ثم بيَّن أن بيت بشار يفضلها جميعا، ويحلل سر هذه المزية والأفضلية فيقول :

" إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى ما لم

يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهي تعلو و ترسب وتجيء وتذهب ... وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل ."(١)

ولا يكتفي الإمام عبد القاهر بهذا التحليل الواعي الدقيق لسر المزية التي فضل بها بيت بشار بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك وهو قيام هذا المعنى في نفس قائله وكيفية إحاطته به وقدرته على تصور دقائقه فيقول عنه أنه قد نظم هذه الدقائق والمعاني كلها في نفسه واستغرق في تقصيها والإحاطة بها ثم أحضر إلينا صورتها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله وهي كلمة (تهاوى) .(٢)

وهذا هو جوهر الفرق في أسرار التنوع بين تشبيهات الشعراء وتشبيهات القرآن الكريم ..

----

(١) أسرار البلاغة ص ١٥٢.

(٢) المصدر السابق .

فتشبيهات الشعراء وراءها هذه النفس التي تتغير عليها الأحوال فتتفاوت قدراتها في تصور المعاني والإحاطة بها لذلك تتفاضل أقوالها وتتمايز بلاغتها .

بينما تشبيهات القرآن الكريم لاتتفاوت بلاغتها وإن تنوعت صورها واختلفت أسرارها فكل صورة بل كل كلمة في موضعها هي البليغة وحدها .

٤ - الخطيب الاسكافي ت ٤٢٠ هـ :

تعد كتب المفسرين / وعلماء المتشابه هي الحقل الأول الذى نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع وذلك لأن هؤلاء هم الذين وقفوا عند الآيات المتشابهة وألمحوا إلى الفروق التي بينها .

ومن هؤلاء الخطيب الإسكافي الذى يقول في مقدمة كتابه :

" إني مذ خصني الله بإكرامه وعنايته وشرفني بإقراء كلامه ودرايته ، تدعوني دواع قوية يبعثها نظر وروّية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها ... ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقانا وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً ولطعن الجاحدين رداً ولمسلك الملحدين سداً وسميته " درة التنزيل وغرة التأويل ".(١)

وسنستشهد بمثلين من تلك الآيات المتشابهة التي ذكرها في كتابه .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٧ ، ٨ .

الأول قوله تعالى :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١)

وقوله تعالى :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢)

يقول الخطيب : " وللسائل أن يسأل عن اختصاص هذا المكان بالمؤمنين واختصاص آخر سورة النمل بالمسلمين ".(٣)

ثم تأمل كيف يعلل لذلك بالنظر في سياق كل آية فيقول :

" والجواب أن قبل هذه الآية في سورة يونس قوله تعالى :

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ

فقال بعده : وأمرت أن أكون منهم .

أما في سورة النمل فإن قبل هذه الآية منها :

وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ

---

(١) يونس / ١٠٤ .

(٢) النمل / ٨١

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٢١٥ .

فكأنه قال : أمرت أن أكون ممن إذا سمع بآياته آمن بهـا وكان من المسلمين الذين مدحوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم يسمعهم أى ينتفعون بما يستمعونه منه ،فلما تقاربت اللفظتان وكانتا تستعملان لمعنى واحد حملت كل واحدة منهما على اللفظ الذى تقدمها ولاءمها". (١)

شاهد أخر :

قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾

وقال في سورة الشعراء :

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾

يقول الخطيب : " للسائل أن يسأل عن زيادة(إذا) في سورة الشعراء وخلو سورة الأعراف منها .

والجواب أن معنى قوله (إذا) جواب وجزاء وكان من قول فرعون لهم إن غلبتم فجزاى أن أجازيكم بإعلاء رتبتكم وتقريب

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٢١٥ .

منزلتكم فلأجل ذلك أفعل هذا بكم ، فاختصت سورة الشعراء بهذا دون غيرها لأنها موضع بني على فضل اختصاص لما جرى لم يبن غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد ".(١)

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٧٣.

٥ - الإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٤ هـ :

اهتم الإمام فخر الدين الرازى بالموازنة بين الآيات المتشابهة في المعنى والغرض، وبين الفروق التي بينها في كتابه المسمى " التفسير الكبير " وإن لم يستقصها كلها على الوجه الذى سلكه الكرماني في كتابه (البرهان) والذى تميز بالإيجاز والوضوح .

ومن تلك الآيات المتشابهة التي وازن بينها الرازى قوله تعالى في سورة الأعراف :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١)

وقوله تعالى في سورة البقرة :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٢)

---

(١) آية ١٦١ / الأعراف.
(٢) آية ٥٨ / البقرة .

فقد تناول الرازى الفروق التي بينها وأوجه الاختلاف من وجوه عده نذكر منها قوله : " إن ألفاظ هذه الآية تخالف ألفاظ الآيــة التي في سورة البقرة من وجوه :

الاول : أنه قال في سورة البقرة :

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ

وهاهنا قال :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ

الثاني : أنه قال في سورة البقرة فَكُلُوا۟ بالفاء وهاهنـــا وَكُلُوا۟ بالواو .

والثالث : أنه قال في سورة البقرة (رغدا) وهذه الكلمة غير مذكورة في هذه السورة ". (١)

إلى آخر الوجوه التي ذكرها .

ثم يعلل لهذا الاختلاف في الوجه الأول بالنظر في معنى الكلمة وكيف أن الدخول يسبق السكنى ولما كانت تلك السورة تسبق هذه كان الأمـر بالدخول أولا ثم السكن ثانيا ،يقول : " فالفرق أنـه لا بد من دخول القرية أولا ثم اسكنوها ثانيا ". (٢)

---

(١) ٥/٣٧-٣٨ .

(٢) المصدر السابق .

ويعلل للوجه الثاني بقوله : " ان الدخول حالة مخصوصة فما يوجد بعضها يتقدم فإنه إنما يكون داخل في أول دخوله وأما ما بعد ذلك فيكون سكوناً لا دخولاً .

وإذا ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها إستمرار فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال :

ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ

وأما السكون فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل حاصل منه عقيبه فظهر الفرق ". (١)

وهكذا نجد الرازى يعلل لموقع الفاء بالنظر إلى السياق الذى وردت فيه وصلتها بما قبلها فالفاء هنا للتعقيب لأنّ الدخول حالة منقضية.

بينما الواو في (وكلوا) لمطلق الجمع والاستمرار مع السكنى الدائمة لأنّ النعمة تقتضي دوام السكنى مع دوام الأكل .

---

(١) ٣٨-٣٧/١٥ .

ثم يعلل للوجه الثالث بقوله :" وأنه ذكر في سورة البقرة (رَغَداً)
وما ذكره هنا، فالفرق الأكل عقب دخول القرية يكون ألذ لأن الحاجة
إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ولما كان ذلك الأكل الذ لا جـرم
ذكر فيه قوله " رغداً ".

وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون في محل
الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة فلا جرم ترك قوله(رغدا)
فيه ". (١)

وها هنا يعلل الرازى سر الاختلاف بالنظر بجانب السياق
إلى الحالة النفسية التي هم عليها عند دخولهم القرية وشدة حاجتهم
إلى الطعام فلا شك أن الطعام يكون ألذ وأطيب عند شدة الحاجة
إليه فأتم عليهم النعمة بذكر كلمة (رغدا) بينما هم في الحالة الثانية
متنعمون يأكلون من حيث شاءوا .

ومن الآيات المتشابهة التي وقف عندها الرازى قوله تعالى
في سورة الأنعام :

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

---

(١) ١٥/٣٧-٣٨ .
(٢) الأنعام / ٣٢ .

وقوله في سورة العنكبوت :

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ (١)

فيشير الرازى إلى أوجه الاختلاف بينهما وهو أنه سبحانه قال هناك : وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ وقال في سورة العنكبوت * وما هذه الحياة الدنيا * بزيادة (هذه) ثم يعلل لذلك بقوله : " لأن المذكور من قبل هاهنا أمر الدنيا حيث قال تعالى : * فأحيا به الأرض بعد موتها * فقال هذه، والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطره فقال وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ. (٢)

تأمل كيف أشار (بهذه) إلى قربها و شولها في حسه ولم يشر في الآية الثانية بذلك لبعدها عنه.

وبهذه الحاسة الذواقة التي قد تستطرد أحيانا وتدق و تلطف أخرى وتتأمل في سياق الآيات وفروق الكلمات يعلل الرازى ويوازن ويقارن.

---

(١) العنكبوت / ٦٤.

(٢) ٢٥/ ٩٢ - ٩٣.

٦ - الكرماني[1] :

أفرد تاج القراء الكرماني كتابا في (أسرار التكرار في القرآن) سماه " البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان" وقد حدد منهجه في كتابه هذا حين قال :

" هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن والفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أونقصان أو تقديم أو تأخير أو ابدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت ..

وأبين ما السبب في تكرارها والفائدة في اعادتها .."[2]

ثم أنه يبين الحامل له على هذا العمل فيقول : " لأن الائمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها وهو المشكل الذى لا يقوم باعبائه إلا من وفقه الله لادائه ".[3]

---

(١) محمد بن أبي نصر بن عبدالله الكرماني (مجهول التاريخ) ، صاحب كتاب " شواذ القراءات واختلاف المصاحف". النشر ج ١ باب ٣٥ - ٣٦.

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٧ - ١٨.

(٣) المصدر السابق .

ومن هذه الأسرار التي ذكرها في التكرار قوله عن آية (٦٠) من سورة البقرة (فانفجرت) وكيف أنها وردت في الأعراف (١٦٠) بصيغة ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ . ثم يعلل ذلك بقوله : " لأنّ الانفجار انصباب الماء بكثرة ، والانبجاس : ظهور الماء وكان في هذه السورة (كلوا واشربوا) فذكر بلفظ بليغ ، وفي الأعراف ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ (١) وليس فيه (واشربوا)، فلم يبالغ فيه ".

ومن ذلك قوله في سورة الزمر ، قال تعالى :

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ (٢)

وفي سورة الحديد :

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ (٣)

ويعلل الكرماني سر ذلك بقوله : " لأنّ الفعل الواقع قبل قوله ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ في هذه السورة مسند إلى الله تعالى وهو قوله :

﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾ (٤)

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ٣٠ .
(٢) الزمر / ٢١ .
(٣) الحديد /٢٠.
(٤) الزمر / ٢١ .

فكذلك الفعل بعده (ثم يجعله).

أما الفعل قبله في سورة الحديد فمسند إلى النبات وهو :
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ (١)

فكذلك ما بعده وهو ثُمَّ يَكُونُ ليوافق في السورتين
ما قبله ومابعده ". (٢)

---

(١) الحديد / ٢٠.
(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٥.

٧ - الفيروزابادى ت سنة ٨١٧ هـ :

اعتنى الفيروزابادى بالآيات المتشابهة في القرآن الكريم في كتابه المسمى (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) وإن لم يستقصها كلها وأفرد لكل سورة ذكرها فقره بعنوان المتشابهات ".

فمن ذلك قوله في سورة المنافقين :

" المتشابهات قوله تعالى :

وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (١)

وبعده : (لا يعلمون) ،لأن الأول متصل بقوله تعالى :

وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة والمنافق لا فطنة له ،والثاني متصل بقوله :

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

أى لا يعلمون بأن الله معز لأوليائه ومذل لأعدائه ".(٢)

وقال في سورة المؤمنون :

لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٣)

---

(١) المنافقون / ٧ .

(٢) بصائر ذوى التمييز ١/ ٤٦٥ .

(٣) المؤمنون / ١٩ .

(فواكه) بالجمع و (منها) بالواو وفي الزخرف[1] (فاكهة) على التوحيد (منها تأكلون) بغير واو .

ثم يعلل الفيروزابادى لذلك بقوله : " راعى في السورتين لفظ الجنة وكانت في هذه (جنات) بالجمع فقال (فواكه) بالجمع . وفي الزخرف ﴿ وتلك الجنة ﴾ بلفظ التوحيد وإن كانت هذه جنة الخلد لكن راعى اللفظ فقال (فيها فاكهة) وقال في هذه السورة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بزيادة الواو لأن تقدير الآية : منها تدّخرون و منها تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة فانها للأكل فقط . فلذلك قال : (منها تأكلون) ووافق هذه السورة مابعدها أيضا ، وهو قوله تعالى :

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

فهذا للقرآن معجزة وبرهان ".[2]

---

(١) الزخرف / ٧٣ .

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٣٢٠ .

الفصل الأول :

التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا وأسرار تنوعها .

المدخـــل :

ورد ذكر الحياة الدنيا وأحوالها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، جاء بعضها على طريق التشبيه والتمثيل، وبعضها الآخر على غيـــر طريق التشبيه أي بأساليب متنوعة تتلاءم مع السياق الذى وردت فيـــه، بين فيها سبحانه أن متاعها مهما عظم فهو في الآخرة قليل ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١) وأنه متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٢)

وأنها قد غرت أقواما فأهلكتهم وأن سبب غرورهم بها اطمئنانهم إليها وطغيانهم فيها وإنكارهم للبعث وظنهم أنما هي حياتهم الدنيا - ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣)

لذلك حذرنا منها غاية الحذر فقال :

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (٤)

كما جاء وصف زهرتها في الحديث النبوى الشريف إذ يقـــول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) التوبـة / آية ٣٨.

(١) الحديد آية ٢٠.

(٢) الأنعام آية ٢٩.

(٤) لقمان آية ٣٣.

(إِنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ) .(١)

وكان أخشى ما يخشاه عليه الصلاة والسلام على أمته ما يفتح لهم من زهرتها وزينتها :

(إنَّ مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) .(٢)

وذلك لما سيؤدى إليه هذا الانفتاح من التكالب على نعيمها والتنافس في متعها والتكاثر والتفاخر بزينتها ومن ثم التحاسد والتدابر والتباغض والانشغال بهذه المتع عن طاعة الله .

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :

(فوالله ما الفقرَ أخْشَى عَلَيكُم ولكِنْ أَخْشَى عَلَيكُمْ أن تَبْسُطَ الدُّنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُم) .(٣)

---

(١) رواه مسلم ٢ / ٢٧٤ .
(٢) متفق عليه ، البخارى ٣ / ٢٥٨ .
(٣) مختصر صحيح مسلم ، تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٥٣ .

وقد جاء بيان أحوال الدنيا وسرعة انقضائها مع قوة اغترار الإنسان بها عن طريق التشبيه والتمثيل في مواضع معدودات من القرآن الكريم جاء في سورة يونس قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١)

وجاء في سورة الكهف : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا (٢)

وجاء في سورة الحديد : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (٣)

---

(١) يونس آية ٢٤ .

(٢) الكهف آية ٤٥ .

(٣) الحديد ٢٠ .

ويلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في معنى عام وهو تقرير وتأكيد أن الحياة الدنيا آيلة الى الفناء سريعة الانقضاء ، ومع ذلك فالإنسان قوى الفتنة / غافل عن حقيقتها وقد تحمله فتنته بها واغتراره بها إلى أن يظن القدرة عليها أو يفاخر بها على فقراء المسلمين، أو يشغله العجب بها عن طاعة الله والإنفاق في سبيله حتى تنتهي هذه الدنيا وتتجلى حقيقتها الفانية إما بعقوبة من الله أو باستدراج الله لهم.

كما يلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في عناصر عامة هي الماء النازل من السماء ونبات الأرض المختلط به ، والفناء الذى يئول إليه بعد زهوه ونضارته .

وتنفرد كل صورة من صور التشبيه بعد ذلك بعناصر خاصة تتلاءم مع السياق الذى وردت فيه.

وفي هذا الفصل سوف أجتهد في بيان مناسبة كل تشبيه لسياقه لأننا نعرف ابتداء أن كل تشبيه جاء مطابقا لسياقه، وهذا لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلا عن إعجازه .

وإنما الذى أحاوله هو بيان هذه المناسبات وأسرار تنوعها .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ
زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا
لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١)

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس .

من أسرار المناسبة :

يقول العلامة الإمام البقاعي رحمه الله تعالى[1] عن شيخه ما ملخصه :

" ان الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل ، بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً في كل آية ، وآية في كل سورة ".

ويقول الإمام البقاعي :

" وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة أن اسم كل سورة مترجم (دال) على مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه (عنوانه الدال اجمالا على تفصيل ما فيه) ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها ".[2]

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور حـ ١/١٨ - ١٩.
(٢) نظم الدرر ١/١٨ - ١٩.

وقد علق الدكتور محمد محمد أبو موسى على هذا النص بقوله ما ملخصه :

" والنظر هنا يَنْفَصل في جهات أربع :

الأولى : نظر في الغرض واستكشافه وتحديده ، وليس هذا بالأمر الهين لأنه لا يظهر إلا بفحص الكلام كلمة كلمة ، وتركيبا تركيبا ، وصورة صورة .

والجهة الثانية : النظر في المقدمات ، يعني معرفة منازل المعاني ومراتبها في ضوء المعرفة الواضحة للغرض الذى انعقد عليه الكلام وبهذا نوضح المعنى الذى هو بمثابة الأصل والمعنى الذى هو مهاد ووطاء وهذا باب من النظر يحتاج إلى مراجعة وأناة .

والجهة الثالثة : أن تنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المقصود يعني العلاقة بين المقدمة والمطلوب ...

وهذا في الشعر يفيد أن الحديث عن الطلل والرحلة والصاحبة في قصيدة المديح غير الحديث عن الطلل والرحلة في قصيدة الهجاء ومدائح الكتاب والعلماء غير مدائح غيرهم وهكذا ...

والجهة الرابعة : هي النظر في حركة الكلام وكيف تثير في سيرتها هواجس وأحوالا وأشجانا نرى الكلام يقف عندها ويتغلغل

حتى يشبع أحوال الاستشراف هذه وذلك وفاء لحق البلاغة كما قالوا وهو جيد لأنه استكشاف حالة المجازية بين اللغة والنص ".(١)

وإذا ما عدت إلى الآية الكريمة الواقع فيها المثل وجدت أن من الدوافع العامة التي تقتضي إبراز هذا المعنى في صورة المثل أن هذا المعنى مما تقع الغفلة فيه، غفلة لا توقظها اللغة المجردة، فأكثر أهل الأرض غافلون عن حقيقة هذه الحياة الدنيا مغترون بها، هذا إلى جانب أن تقرير هذا المعنى وتوكيده في النفس يمثل ركنا من أركان الإيمان، فالوقوف على حقيقة هذه الحياة الدنيا واليقين بسرعة انقضائها وقلة بقائها، مما يحمل النفس على الإقبال على الدار الآخرة، والتأهب لها.

ولا سبيل إلى تحريك هذه الدوافع وإيقاظ تلك الغفلة إلا بفتح باب من العين إلى مكان المعقول من قلبك يجعلك تبصر هذه الحياة الدنيا في إقبالها وإدبارها ماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فإذا هو مونق مغدق، وإذا به قوام حياتك * حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت * فإذا هي عروس فاتنة تسبي الأرواح وتأخذ بمجامع القلوب، وإذا الإنسان أسير فتنتها وهو يظن أنه آسرها ومالكها والقادر عليها قدرة لا يشوبها فتور ولا وهن، فيطغى ويبغى في الأرض ويغفل عن الدار الآخرة والتأهب لها، وسرعان ما يأتي أمر الله

---

(١) مقدمة البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: د/ محمد محمد أبو موسى الطبعة الثانية، مكتبة وهبه ص: ١٤، ١٥.

فيحصد جذور هذه الحياة الدنيا ، ويطفيء هذا الوهج المتألق ويجعلها ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾

ومن خلال هذا التمثيل البديع ترى وتسمع وتفكر وتجد وتعقل وتحس ، حتى يتقرر ذلك في النفس أبلغ قرار وآكده وقد نفذ إليها من منافذ شتى لا من منفذ الذهن وحده وباللغة المجردة .

وعند النظر والتأمل لسياق الآيات في سورة يونس قبل بدء المثل يتبين لنا كيف تمهد الآيات السابقة لهذا المعنى وتوطيء له .

يقول عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ①﴾

هذا القول الكريم يوحي بأنهم لا يأملون لقاء الله بالبعث والإحياء وآثروا هذه الحياة الفانية واطمأنوا إليها وانكبوا عليها قاصرين مجامع همهم على لذائذها وزخارفها "(٢) .

وفي لفظ الاطمئنان ما يوحي بالغفلة والبعد والإغراق .

وفي قوله عز وجل بعد :

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ③﴾

---

(١) الآية ٧ من سورة يونس .

(٢) أبو السعود ٤/ ١٢٢ .

(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

استدراجاً من الله سبحانه وتعالى وإمهالا للكافرين الغافلين عن البعث والجزاء ، حتى يظن الظان منهم أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه .

وفي قوله عز وجل بعد :

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

فيه من أسباب تماديهم في الغفلة والبغي والإسراف ما يزين لهم سوء أعمالهم .

ثم يعقب ذلك قوله عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم
بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ
مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

يصف جحود الإنسان الكافر وكنوده لربه ، وشدة افتتانه بالحياة الدنيا وأن فطرته التي فطره الله عليها لا تصفو ولا تتجلى إلا في

---

(١) الآية ١٢ من سورة يونس .

(٢) الاية ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وقت الشدائد والمحن عندما يحاط به ثم لا تلبث أن تخالطها الشهوات والشبهات وعبادة غير الله ، حينما يشعرون بالأمن ويمتد بهم الزمان فيطغون ويبغون في الأرض .

ثم تأمل كيف يعلوا هذا النداء * يَا أَيُّهَا النَّاسُ * بمافيه من التهديد والمبالغة في الوعيد ، ليكشف لهم حقيقة نعيمهم وأن العاقبة عليهم وأن ما هم فيه من المتعة والمنفعة العاجلة شيء لا يعتد به سريع الزوال دائم الوبال * ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ * تأمل ما وراء " ثم " التي توحي بتراخي العسر عليهم وأن هذا التراخي استدراج من اللّه لهم ، ثم * فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * في الدنيا من الاستمرار في البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب .

وهكذا يوطئ سياق الآيات لهذا التمثيل ويقتضي هذا التحليل والتفصيل والذى يكشف لهم القناع عن حقيقة هذه الحياة الدنيا وحالها " العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها في سلك الأمثال، في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب إقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثرا أصلا بعدما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح ".(١)

---

(١) أبو السعود ٤/١٣٧ .

وقد ذكر أهل العلم في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها كلاما فقالوا :

قال الزمخشري : "شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه ".(١)

وقال أبو حيان : " ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

ضرب مثلا عجيبا غريبا للحياة الدنيا يذكر به من يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها وأنها بحال ما تُعز وتسر تضمحل ويؤول أمرها إلى الفساد ".(٢)

وقال ابن القيم : " شبه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها ".(٣)

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٣.

(٢) البحر المحيط ٥/ ١٤١.

(٣) التفسير القيم للإمام ابن القيم ١/ ٣٠٥.

وقال الفخر الرازى : " اعلم أنه تعالى لما قال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

أتبعه بهذا المثل العجيب الذى ضربه لمن يبغى في الأرض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها ".(١)

وقال الإمام البقاعي : " ولما كان السياق لإثبات البعث وتخويفهم به وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا وأنها إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع دائما بلا انقضاء فهي دار يرضى بها فيطمئن إليها وللتنفير من البغي والتعزز بغير الحق وكانت الأمثال أجلى لمحال الإشكال قال تعالى مثلا لمتاعها قاصرا أمرها على الفناء ردا عليهم في اعتقاد دوامها من غير بعث ".(٢)

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٧/٧٦.

(٢) نظم الدرر ٩/١٠١.

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾(١) جاءت هذه الآية الكريمة بمنزلة البيان لجملة " متاع الحياة الدنيا " في الآية السابقة .
لذلك لم تعطف على ما قبلها وانما قطعت واستأنف بها ، وأتت " إنما " هنا لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدايتها ونهايتها ، أمر واضح معلوم لا يجوز لذى عقل أن ينكره ، فما أشد جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة المطمئنين لهذه الحياة الدنيا المنكرين للبعث والجزاء . إن الأصل في الأداة " إنما " أن تأتي فيما هو معلوم وغير منكر ، كما أنها توحى بالتعريض بغفلة هؤلاء القوم وجهلهم وهو من أجل مواقع " إنما " وأعلقها بالقلب .

والقصر هنا قصر قلب يبنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا فقلب عليهم المثل القرآني اعتقادهم وبصرهم بخطأ تصورهم.(٢)

وقد التبس هذا على أبي حيان ، فنفى أن تكون " إنما " للحصر فقال : " وإنما هنا ليست للحصر لا وضعا ولا استعمالا ، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالا غير هذا ".(٣)

---

(١) انظر آية ٢٣ من سورة يونس.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١١/ ١٤١.
(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤١.

ولو أنه راعى السياق الذى وردت فيه "إنما" لما فاته ذلك (رحمه الله) لأننا لو نزعنا من "إنما" إفادتها القصر وجعلناها للتوكيد فقط لأغفلنا قدرا عظيما من المعنى المقصود من إيرادها وهو حسم شبهة المنكرين، والتعريض بغباوتهم وغفلتهم. ولما كان وراء ذلك أكثر من إثبات هذه الصفة للحياة الدنيا وليس هذا المراد فحسب، وإنما المراد هذا النفي بعد الإثبات المستفاد من إنما وهي نفي أن تكون الحياة الدنيا كما توهموها فانكبوا عليها وتعلقوا بها وهذا هو محض المعنى.

والمشبه: حال الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وانعدام نعيمها عقب إقبالها واغترار الناس بها.

والمشبه به: هو الصورة المكونة من ماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيزهو النبات، وتتزين به الأرض ثم يصبح فناء.

والمثل: "الحال الماثلة على هيئة خاصة"، "وأَصْلُ المُثُول الانْتِصابُ وَالمُمَثَّلُ المُصَوَّرُ على مِثالِ غيره، يُقَالُ مَثُلَ الشيءُ أى انْتَصَبَ وتَصَوَّرَ، والمَثَلُ عبارةٌ عَنْ قولٍ في شيءٍ يُشْبِهُ قولاً في شيءٍ آخَرَ بينهما مُشَابَهَةٌ لِيُبَيِّنَ أحدُهُما الآخَرَ ويُصَوِّرَهُ وهو أَعَمّ الألفاظِ المَوْضُوعَةِ للمُشَابَهَةِ". (١)

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب - مادة (م ث ل).

ثم تأمل مثول الحياة الدنيا وانتصابها بين يديك ، بعد أن كانت معنى مضمراً في ذهنك ، وما وراء ذلك من قوة الإحساس بها ورؤيتها مقبلة مدبرة وتوكيد هذا في النفس أبلغ توكيد .

" لأن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وتأتيها بصريح بعد مكني ". (١)

وقوله تعالى : ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

" تعني مدة الحياة الناقصة غير الأبدية ، لأنها مقدر زوالها ، فهي دنيا ، وتشمل مدة بقاء الأشياء الحية ، وبقاء الأرض ، وقد تعني مدة حياة الأفراد أي حياة كل أحد ، ووصفها بالدنيا لقربها ، أي الحاضرة غير المنتظرة كنى عن الحضور بالقرب ". (٢)

وفي هذا الوصف إشارة الى نقصانها وقربها وزوالها وأن هناك حياة أخرى تقابلها لها الكمال والبقاء .

وقوله تعالى :

﴿ كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ :

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١ .

وراء اختيار هذه العناصر المكونة لصورة المشبه به ما وراءها من اللطائف والدقائق .

ففي تنكير كلمة "ماء" تشريف وتعظيم لهذا الماء الذى به بدء الحياة ، ومما يؤكد هذا المعنى قوله "أنزلناه" إذ لا يذكر القـرآن هذا الفعل بهذه الصيغة إلا في مواضع التشريف والتكريم والتعظيم كقوله تعالى :

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ (١)

وقوله : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (٢)

وفي قوله : " من السماء " تأكيد لسمو هذا الماء وطهارته ونقائه وعلو مصدره .

فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ .

" خَلَطَ مخالفٌ لخَلَصَ مُضَادٌّ له ، تقول خَلطْت الشَّيْءَ بغيره فاختلط . والخليطُ المجاوِر ، ويقال : الخِلْطُ ، السَّهمُ ينبُتُ عودُه على عِوَجٍ فلا يزالُ يتعوّجُ وإن قُوِّمَ وهذا من الباب لأنّه ليس يُخَالَط في الاستقامة ".(٣)

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنعام.

(٢) سورة القدر آية ١ .

(٣) المقاييس مادة (خلط).

وقد يوحي هذا النص بأن النفس تولد على الفطرة ثم يخالطها من المطامع والشهوات ما يشوب صفاء فطرتها ، وسياق الآيات الماضية أرانا كيف تعود هذه الفطرة إلى التجلي والصفاء عندما يحاط بها فتخلص الدين لله ، ثم كيف تخالطها الشهوات عندما تأمن مكر الله ويطول عليها العمر .

وقد اختلف العلماء في معنى (الباء) في قوله تعالى :

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

أهي للمصاحبة أم للسببية ؟ وهم باختلافهم هذا يفسحون معنى الكلمة ويستخرجون ودائعها ، لأن الكلمة القرآنية رحبة سخية لا ينتهي عطاؤها ، لأنها كلام الله ما دامت تلك المعاني لا تتضارب ولا تخرج عن مقتضى السياق .

ومعنى المصاحبة : أن النبات اختلط بالماء نفسه فهو يجرى فيه مجرى الغذاء ويخالطه .(١)

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي ١١/١٠٠ .

خذ مثلاً قول أبي حيان : في معنى (الاختلاط) وأنه تشبث النبات بالماء وتلقفه إياه ،وقبوله له لأنه يجرى مجرى الغذاء، وكيف خالطه وداخله فغزى كل جزء منه .[1]

وما يغيض به هذا الجزء من المشبه به على المشبه من فيوضات فهذه الباء توحي بتشبث الإنسان بهذه الحياة الدنيا وتعلقه بها وقبوله لها ،وهي تجرى منه مجرى الدم. فأرضها مهاده ،وسماؤها دثاره ومنها خلق وفيها يعاد ومنها يخرج تارة أخرى .

بينما يذهب الزمخشرى وغيره من المفسرين إلى أن " الباء " هنا للسببية والمراد : اشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا ".[2] " فتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجرائم ".[3]

وكلمة " نبات الأرض " : تؤكد معنى الضعف والطراوة ثم ما آل إليه حاله بعد اختلاطه بالماء فطال وامتد وقوى واشتد وتكاثف وتكاثر واشتبك بعضه ببعض .

وهذا الجانب من المشبه به : يوحي بنضارة العيش ونعيمه وإقبال زهرة الحياة ،وكيف تألقت نضرتها في العين وأشرقت بهجتها في النفس فأقبل عليها الإنسان وافتتن بها .

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤١.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٣.

(٣) أبو السعود ٤/ ١٣٧.

فتأمل كيف استأنس الماء نبات الأرض، فلان له واختلط به أو كيف أسرع في بعث الحياة، ولا زال الجو رطباً نديا فتكاثر النبات وتكاثف.

هذا ما توحي به الفاء في قوله " فاختلط به " والتي تؤذن بسرعة نماء الحياة وإقبالها، وإن كل ذلك مترتب على نزول الماء.(١)

وقوله عز وجل :

مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ

تأمل قيمة هذه الجملة التي أتت لتصف حال هذا النبات، فليس هو النبات الذى يُبْهِجُ منظره وتسر له النفوس فحسب، وإنما هو فوق ذلك النبات الذى به قوام حياة الناس والأنعام، لأن النبات كما يقول علماؤنا ينقسم إلى مأكول وغيره(٢)، والآية أجلت قيمة هذا النبات وأوحت بالرغبة العارمة والتعلق الشديد بما هو قِوام حياتهم، ويقابل ذلك التعلق الشديد بهذه الحياة الدنيا.

ومما يزيد هذا التعلق والرغبة فيه كثرة هذه النعم ووفرتها وسخائها تأمل هذا حين تكون الأنعام مشاركة للناس في الأكل تجد

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١١/١٤٢.
(٢) انظر البحر المحيط ٥/١٤٢.

هذا في القرآن عند التذكير بنعم الله على خلقه :

وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ (١)

ولكن ثمة فرق دقيق بين قوله تعالى :

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ

وقوله : مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

إذا أردت أن تقف عليه فتأمل هذه الإضافة المفصحة عن أن الأنعام مسخرة مذللة لهم ، لأنها أنعامهم ، وأنهم المالكون لها القدرون عليها وما وراء ذلك من التكريم لهم.

ووازن بينها وبين هذه المشاركة في الفعل مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ والتي توحي باستوائهم في التمتع والتلذذ بنعم هذه الحياة :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ (٢)

وما وراء ذلك من الازدراء والإهانة والتحقير حين لا يكون همُّ الناس إلا متاع الحياة الدنيا .

---

(١) الآية ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه.

(٢) سورة محمد آية ١٢.

ولو أنه أراد سبحانه وصف تنوع المأكل لقال : (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَيَأْكُلُ الأَنْعَامُ) ولكن هذه المشاركة في الفعل أوحت بهذه المخالطة في طلب المتعة والتلذذ .

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تعبير سخي جدا يجسم في الخيال صورة حسية لهذا التمتع ، يشارك في إدراكها الحس والذوق وهو أبلغ في الإحساس ، مما يؤدي إلى تعميق هذا في النفس الحية ، ومن ثمَّ ترغيبها عنه .

وهذا الالتفات في صيغة الفعل (يَأْكُلُ) من الماضي الذي عليه نسق الآيات إلى المضارع . فيه إيقاظ ولفت و تنبيه إلى ضرورة التأمل والتفكر في هذه الصورة الحافلة بالحركة ، والسعي الحثيث المتجدد في طلب المتع ، ترى فيه الناس والأنعام لا يفتأون منكبين متهالكين ، يأكلون كلما أفاقوا من لذة فزعوا إلى أخرى في حرقة و نهم بالغ وعشق حارق للحياة .

وإذا راجعت المثل واستقصيت التأمل ، وجدت أن المثل يحكي قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت ، ولكن هذه اللقطة " مما يأكل الناس والأنعام " تظل تنبض بالحركة ترى فيها الناس والأنعام لا يزالون يأكلون ، ولكن ماذا يأكلون ؟

يأكلون الحصيد و يأكلون الفناء !!

نقلة نفسية عظيمة ترينا ما سوف يقع بأنه واقع الآن وأمام أعيننا فهو لا محالة واقع .

وأما قوله تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ (١)

" ففي معنى الغاية المستفاد من (حتى) ما يؤذن بأن بين بدء ظهور لذات الحياة الدنيا وبين منتهاها مراتب جمة وأطواراً كثيرة طويت في معنى حتى ".(٢)

وهذا من بديع إحكام هذا النظم الشريف وجليل سبكه وكيف يرتبط الكلام بعضه ببعض ، ويتطاول الزمان في ذلك الفعل حتى يصل ما قبلها بما بعدها ، ويجعل مابعدها غايةً لما قبلها ولا يكون ذلك إلا باحدى وجهين إما بتقدير محذوف :

" أى فما زال ينمو حتى إذا "

أو يتجوز في (فَاخْتَلَطَ) أى فدام اختلاط النبات بالماء حتى إذا ".(٣)

ووراء ذلك ما وراءه .

فقوله " فما زال ينمو حتى إذا " وراءه توغل جذوره وكثرة قطوفه وقوة تماسكه . ووراء " فدام اختلاطه بالماء حتى إذا " بقاء نضارته وبهجته ودوام طراوته وفتنته .

---

(١) يونس آية ٢٤.

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٤٣.

(٣) انظر البحر المحيط ٥/١٤٢.

ووراء ذلك الأمن إلى هذه التي تقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس فيها وظنوا أنها سلمت من الجوائح .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " والقول في (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) كالقول في قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهو غاية ، شبه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتمامه ، وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء "[1] .

ولا يفوتنك وأنت مسحور بهذا الكلام الذى قال عنه علماؤنا : " إنه أغمض من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر "[2] . أن تقف أمام هذا التعبير في أداة الشرط (إذا) فترى كيف أكسب الكلام قوة أسر ، وشدة تلاحم ودقة سبك وأحالة من الخبر إلى تحقق الوقوع ، وعقد آخره على أوله وجعل بعضه آخذا بحجز بعض .

ولو قيل ﴿حَتَّىٰٓ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ لانحلت عقدة الكلام وانفصمت عراه وتناثرت لآلئه وذهب ماؤه .

وهذه الجملة وهي قوله عز وجل :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾

وقف عندها المفسرون وقالوا عنها : إنها " كلام فصيح وجملة بديعة اللفظ ، جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة ، وذلك على جهة التمثيل بالعروس ، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتست وتزينت بأنواع الحلي "[3] .

---

(١) التحرير والتنوير ١١/ ١٤٣ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٨٦ .

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤٢ وانظر الكشاف ٢/ ٢٣٣ .

فالمعنى مبني على استعارة وهي ليتة في هذا المثل مايجعله أخصب وأشد تأثيرا وأقوى إيحاءً ،لأن هذه العناصر البلاغية إنما تدمج بعضها في بعض عندما تتكاثف المعاني وتتكاثر وتكون من الغزارة والوفرة، بحيث لا يوجد سبيل للإبانة عنها إلا هذا ،ولأن التعبير بها في هذا الموضع ،أغزر وأبين وأمكن ،وهذه سمة من سمات الإعجاز في القرآن الكريم ترى فيه هذه الصور البيانية لا تأتي توشيحا ولا حلية لفظية، وإنما تأتي في موضع لا يتم المعنى إلا بها ،فتجد كل جملة في موضعها بليغة .

ثم ماذا وراء هذه العروس التي أخذت الثياب الفاخرة من كل لون واكتست وتزينت بأنواع الحلي والفتنة إلا تصويرٌ دقيق بالغ لحس هذه النفس الغافلة والمفتتنة بهذه الحياة الدنيا .

أرأيت كيف تصل هذه اللغة الشريفة العالية إلى مضمرات النفوس وتنفرس في جذور القلوب لتبين عما يتراءى لها وتتوهمه ،وكيف تتكاثف عناصر التعبير تبعاً لقوة الإحساس بهذه الحياة الدنيا ،وطغيانه على الناس ،فإذا الأرض لم تعد أرضاً ،بل غادة حسناء ترفل في ثوب عرسها .

ليس ها هنا تشبيه ،لأن في التشبيه إيحاء بأن ثمة فرق بين المشبه والمشبه به يحتفظ كل منها بخصائصه وحقيقته أما في الاستعارة فوهم بالغ يغلب النفس " ترى فيه الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينةً والمعاني الخفية بادية جلية ".(١)

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص ١٠٢

ثم دع الخيال يتملى ما وراء ذلك من شدة التعلق واستغراق القلب والمبالغة في الحفاوة والأنس .

وإذا ما عدنا إلى الآية الكريمة ، وجدنا مفرداتها تتضافر جميعا لتوكيد هذا المعنى .

تأمل كلمة (أَخَذَتْ) وهل تجد كلمة تعطى عطاءها في هذا الموضع . " فالأخذ هو التناول باليد "(١) ووراءه القوة والقدرة والتمكن "والأخذ حَوْز الشيء وجبْيُه وجمعه ."(٢)

ووراء هذا إيحاء بأن هذه العروس إنما تأخذ في أخذها القلوب وتسبى العقول وتستولى على النفوس لشدة اغترارهم بها .

ولو نزعت هذه الكلمة من مكانها ثم أبدلت بما يراد فيها لا نطفأ هذا المعنى ، ولفظ القرآن أبلغ وأمكن .

والزخرف : " الزِّينة المزوّقة ومنه قيل للذَّهب زُخرُف ".(٣)

والمراد : " حسنها وبهجتها ".(٤)

---

(١) البحر المحيط ٥/١٤٢ .
(٢) المقاييس مادة (أخذ) .
(٣) المفردات للراغب مادة (زخرف) .
(٤) روح المعاني ١١/١٠٠ .

وبهذه اللفظة يُشيع القرآن جواً ساحراً آخاذاً يكاد يخطف الأبصار ببريقه وتألقه وكمال حسنه وفي إضافة الزخرف إليها دليلٌ على مبلغ احتفائها به .

وقوله تعالى : (وَٱزَّيَّنَتْ) : استيفاء لأبعاد هذه الصورة الفصيحة اللفظ عن بديع معناها وذلك بترشيح الاستعارة وإشاعتها وفي ذلك إيغال في الوهم وزيادة في الافتتان ، وإغراق في البعد والغفلة .

وفي عطف (وَٱزَّيَّنَتْ) على قوله : " أخذت الأرض زخرفها " توكيد لما قبلها لأنك حين تتأمل المعنيين ، تجدهما من باب واحد ، وهذه الواو المؤذنة بتغايرهما كأنها أوهمت أن قوله (وازينت) صفة جديدة مغايرة للتي قبلها ، ومستقلة في إبراز حالة أخرى من حالات هذه العروس وهي حرصها العميق على هذا التزين لما وراءه من تأثير وفتنة.

وما يؤكد ذلك صيغة الفعل ، وكيف داخلها الإدغام الموحى بأنها تختفي بهذه الزينة وتحتفل بها ، وكأن هناك نوعان من الزينة ظاهر جلي ومدغم وخفي .(١)

وقد يكون قوله " وازينت " والله أعلم من عطف الخاص على العام وفي تضعيف حرف الزاى في " وازينت " ما يوحي بأن هذه الأرض تكاثفت فيها الزينة وتضاعف فيها الرونق .

---

(١) انظر نظم الدرر ٥/٨٧ .

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾

وكلمة (ظَنَّ) في اللغة تأتي بمعنى الشك كما تأتي بمعنى " اليقين ". (١)

والذى يظهر لي - والله أعلم - أنها لا تضيق عن هذين المعنيين مجتمعين فقوله عز وجل : ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ يقين مابعده يقين بالقدرة عليها والتمكن من تحصيل منفعتها ورفع غلتها وذلك لحسن نموها وسلامتها من العاهات . (٢)

وما يؤكد هذا اليقين قوله :

﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ .

تأمل كل هذه التأكيدات من أن واسمية الجملة ، واختيار لفظ القدرة ، كل ذلك يدل على قدرتهم الدائمة عليها ، والتي لا يعتريها فتور ولا وهن وأن ذلك اليقين بالقدرة الدائمة عليها صادر من أهلها ، أى ممن خالطوها وألفوها زمناً أزال وحشتهم بها وغربتهم فيها ، فأصبحوا من أهلها وما وراءه من الانس بها .

وهذا المعنى يتلاءم مع السياق السابق الذى ترى فيه أولئك الغافلين " يبغون في الأرض " أى يسرعون في الفساد فيها متجاوزين كل حد .

----

(١) المفردات للراغب مادة (ظن) .

(٢) انظر الكشاف ٢/٢٣٣ .

فيقول الراغب : " وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ " تنبيه على أنهم صاروا في حكم العالمين لفرط طمعهم وأملهم ".(١)

فإذا ما عدنا إلى هذا اليقين الذى خالط قلوبهم نجد أنه مبني على الظن و غلبة الهوى وما سولته لهم أنفسهم حتى استيقنته قلوبهم تأمل بناء الجملة كيف بنست هذا اليقين على الظن فعبرت بهيئتها عن معانيها .

ثم تأمل كيف ينهار هذا اليقين والظن البالغ الذى بنوه على شفا جرف هار. أمام إتيان أمر الله بغتة .

أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ

ومعناه " نزل بها ما قدرناه من العذاب وهو ضرب زرعها بما يحتاجه من الآفات والعاهات ".(٢)

ويقول الزمخشرى : " وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ".(٣)

تأمل ما وراء ذلك من عظم الخطب وشدة الحسرة وهذا يتناسب مع طغيانهم وشدة الغفلة .

---

(١) المفردات للراغب مادة (ظن) .

(٢) روح المعاني ١١/١٠١ ،أبو السعود ٤/١٣٧.

(٣) الكشاف ٢/٢٣٣.

ثم تأمل ما توحي به لفظة " أمرنا " من السرعة، إذ من معاني الأمر : سرعة الإيجاد بأسرع مما يدركه الوهم :

" وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (١) "

و كيف يتلاءم مع (أتى) " لأن أتى مجيء بسهولة ". (٢)

وفي الاضافة في كلمة (أمرنا) ما يوحى بالتعظيم والهيبة والإجلال والإكبار لهذا الأمر وعظيم القدرة التي تطوى الكل في ومضة.

ثم تأمل هذا التناسق البديع بين قوله تعالى :

" هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

إلى قوله : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ "

وقوله :

أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

و كيف أحاط بهم الموت من كل جانب في الآية الأولى إحاطة مكانية وهم في لجج البحر ثم لما أمهلهم الله أمنوا مكره وبغوا في الأرض فنبههم عز وجل في هذه الصورة الماثلة بين أيديهم بأن قدرته محيطة بهم إحاطة زمانية وهما الليل والنهار إذ لا يخرج كائن عن وقوعه فيهما

---

(١) المفردات للراغب مادة (أمر). القمر آية ٥٠.

(٢) المصدر السابق مادة (أتى).

فهي زمانية مكانية فإن هم نجوا من الموت وأنستهم فرصة النجاة لحكمة الله واستدراجاً لهم فلن يأمنوا إتيان أمر الله ليلا أو نهارا . وقد أحاط بهم زمن غفلتهم أو زمن يقظتهم فيجعلهم حصيدا ويستأصلهم استئصال هذا النبات الذى ضرب به مثلا لحياتهم فيهلكهم كما أهلك القرون الأولى .(١)

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

الجعل : "عامٌ في الأفعال كلها ومن معانيه تصْيير الشيء على حالةٍ دون حالةٍ وهو بعد مَرْحلة الخَلْق ".(٢)

والحصيد : " أصلُ الحَصْد قَطْعُ الزَّرْع)وقوله : "فجعلناها حصيدا " فهو الحَصادُ في غَيْرِ إبَّانِهِ على سَبيلِ الإفْسَادِ ".(٣)

ومعنى فجعلناها حصيدا أى فجعلنازرعها ونباتها شبيها بما حُصِدَ مِنْ أصله .(٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١١/ ١٤٣ ،وانظر روح المعاني ١١/ ١٠١ .

(٢) الراغب مادة (جعل) .

(٣) المصدر السابق مادة (حصد) .

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٣ ،روح المعاني ١١/ ١٠١ .

فبعد أن عظم الانتفاع بهذا النبات وكمل حسنه وبهجته ودنت قطوفه وظنوا أنهم قادرون عليه متمكنون من الانتفاع بغلته وقع اليأس منه إذ باغتهم أمر الله فأحاط بالزرع فجعله حصيدا . وفي إضافة الجعل الى الأرض وحذف نباتها من المبالغة والايحاء بشمول تلك الإصابة وعمومها وعظيم خطبها واستئصالها للزرع حتى كأن الأرض نفسها لم تكن لتغيرها بتغير مافيها . (١)

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ

غنى: " غَنِيَ القومُ في دَارِهم أقاموا كأنَّهُم اسْتَغْنَوا بها. والغانية: المرأة .. استغنَتْ بجمالها عن لُبْسِ الحُلي ". (٢)

" وغنوا في دِيَارِهم ثم فنوا وخَرِبَتْ مَبَانِيهِم وحلت مغانيهم " كأن لم يغنوا فيها " وقال بشر :

وَقَدْ تَغْنَى بِنَا حيناً وَنَغْنَى
بها والدَّهْرُ ليس لَهُ دَوَامُ . (٣)

---

(١) انظر روح المعاني ١١/ ١٠١ .
(٢) المقاييس مادة (غنى) .
(٣) أساس البلاغة (غنى) .

فقوله تعالى :

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

" أى كأن لم يَغْن نباتها أى لم يَمْكُث ولم يَقُم ". (١)

تأمل التقابل البديع بين تلك الصورة الغشية الحافلة بالبهجة والأنس والحركة والحياة ، وقد غني القوم فيها بالمكان ، وبلغوا الغاية في الاستغراق في الدنيا والاطمئنان إليها والأنس بها ، وما آل إليه حالها بعد ذلك .

فهذه الجملة توكيد لما قبلها " ومبالغة في التلف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبل ولم تقم بالأرض بهجة خضرة نضرة تسر أهلها ". (٢)

" والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن آنفا ". (٣)

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

" تذييل(*) جامع أى مثل هذا التفصيل ، نفصل ونبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع ". (٤)

---

(١) روح المعاني ١١/١٠١.

(٢) البحر المحيط ٥/١٤٢.

(٣) الكشاف ٢/٢٣٣.

(٤) التحرير والتنوير ١١/١٤٤.

(*) معنى التذييل :أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجمله تحقق ما قبلها . بديع القرآن ص ١٥٥.

" والتفكر التأمل والنظر وهو تَفَعُّل مُشْتَقّ من الفكر ". (١)

" وقال بَعْضُ الأُدَبَاءِ : الفِكْرُ في المعانِي وهو فَرْكُ الأمُورِ وحَثُّها طَلَباً للوُصُولِ إلى حَقِيقَتِهَا ". (٢)

فتأمل كيف يتلاءم التفكر مع هذا التفصيل .

وفي الآية تعريض بالذين لم ينتفعوا بهذه الآيات بأنهم ليسوا من أهل التفكر ..

وجيء بـ " التفكير " بصيغة المضارع للاشارة إلى تفكير شديد ومُكرر . (٣)

ثم تعرض الآيات صورة مقابلة لتلك الدار الفانية لتتميز المعاني وتتجلى الصور .

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٤٤).

(٢) الراغب مادة (فكر).

(٣) التحرير والتنوير ١٢/ ٨٥ .

يقول تعالى :

وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ

وفيها ترغيب للناس إلى الدار الباقية بعد ترغيبهم عن الدار البائدة . وتوحى هذه التسمية من كونها سالمة مما يكدر صفو عيشها سالم أهلها مما يبتلى به أهل الدنيا من الآفات والعاهات والموت والهلاك ، فضلا عن سلام من ربهم وسلام الملائكة عليهم وسلام بعضهم على بعض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا
كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
مُّقْتَدِرًا (٤٥)

---

(١) الكهف آية ٤٥ .

من أسرار المناسبة .

تمتد أسرار المناسبة بين هذا المثل البديع وبين بداية السور الكريمة التي أنزل الله فيها الكتاب على عبده :

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (١)

تأمل هذا النعيم المقيم الذى لا انتهاء له ولا انقضاء والذى يحيط بهم فلا يفارقهم لحظة عين،وقارنه بنعيم الحياة الدنيا السريعة الانقضاء القريبة الفناء .

ثم تأمل قوله تعالى :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٢)

أى سنجعل ما عليها من زينة ونعيم حطاما وركاما كأرض جرداء لا نبات فيها ، وقارنه بتلك الحياة التي اختلطت بنبات الأرض فاختلبت بنضرتها القلب ثم ما لبثت أن أصبحت هشيما تذروه الرياح .

وبعد أن بين سبحانه الحكمة من ذلك وهي اختبار الخلق أيهم

---

(١) سورة الكهف آية ٣ .

(٢) سورة الكهف آية ٧ .

أحسن عملا يعرض لنا قصة من روائع قصص القرآن لمن أعرض عن الدنيا وزينتها وأقبل على الرحمن فاراً بدينه مثبتا لنفسه على الإيمان فآواه الله / وأيده وهيأ له من أمره رشدا وربط على قلبه فثبته غاية التثبت .

ومن لطائف هذه القصة وأسرار مناسبتها للتمثيل الذى نحن بصدده أن الحياة الدنيا في حس المؤمن قصيرة جدا تأمل قولهم بعد أن بعثوا من تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت فقالوا :

لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (١)

وما وراءه من الإحساس بقصر الحياة الدنيا ، وهو المعنى الذى جاء المثل لتقريره وتوكيده وما وراءه من / تأكيد البعث الذى ينكره الغافلون لافتخارهم بهذا الإرتفاق العاجل وتعاليهم على فقراء المسلمين .

فأُمر عليه الصلاة والسلام أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين تتعالى عليهم قريش، ونبهه إلى أنهم هم الذين يجب أن يباهي صناديد قريش بمجالستهم لأنهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي إن دعت قريش مفاخرها وآباءها وأموالها .

ثم بين عز وجل كيف أعد لهم من العقوبة ما يجانس عملهم فمن أحاطت به مفاخره وطوقته أنسابه وأمواله وحالت بينه وبين الإيمان بالله ورسله أحاطت به جهنم بسرادقها، وأغيثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه

---

(١) الكهف آية ١٩ .

المتكبرة التي أنفت الإسلام ورفضته لأنه يساوى بينهم وبين هؤلاء الضعفاء الذين تعاف أنفسهم مجالستهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت .(١)

ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لم يعطوا في الدنيا حظا، هو لهم خالص يوم القيامة على أبهى سمت وأكمل بزة :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢)

وقارن بين هذا الارتفاق العاجل الذى فاخر به القوم وبين ذلك الارتفاق الآجل الذى أُعد لمن آمن وعمل صالحا .

ثم لما بلغ بهم الحال إلى هذا المآل فأبطرتهم النعمة وطلبوا طرد فقراء المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم مثلا لرجلين أحدهما للمؤمن الذى يعمل بطاعة الله والآخر الكافر الذى أبطرته النعمة وعاقبة كل منهما .

ومخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشيع في أجواء السورة الكريمة لأنها نزلت تسلية لهذا الحبيب الباخع نفسه على آثارهم حزنا على ألا يؤمنوا فَحَسُنَ إسناد ضرب الأمثال إليه .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٥ .

(٢) الكهف آية ٣١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

* وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ○ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا
وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ○ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (١)

تأمل هذا التصوير الرائع البديع الذى يصور به القرآن منظر هاتين الجنتين المثمرتين بأنواع الكرم، المحفوفتين بأشجار النخيل فكأن ضعف تلك وطراوتها أحيط بقوة هذه ومكانتها ليحفظها من العاهات والآفات فـ ﴿آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ (٢) غاية الوفاء و منتهى العطاء والسخاء والجودة والطيب .

ثم تأمل صفاءها حين لا تتوزعها المشارب بل يمدها ويسقيها نهر عظيم واحد ، وقارن هذه النعمة التي ينطق حالها بشكر المنعم بصاحبها الذى بلغ به العجب والفخر والتطاول غايته ومنتهاه فما كان منه إلا أن يجادل صاحبه المؤمن الذى يذكره بالله بقوله :

---

(١) الكهف آية ٣٤ .
(٢) الكهف آية ٣٤ .

أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ (١)

تأمل ظلمه لنفسه حين أشرك بالله وكذب بالبعث وبطر بالنعمة فكأنه عرضها للهلاك (٢) فلم يحط ضعفها بسياج قوى من إيمان بالله وعمل صالح دائم كما أحيطت جنتاه بذلك وأمدت بما يديم حياتها ونضرتها، وأخذ العبرة والعظة من هذه الطبيعة والكون من حولنا أمر يحث عليه الشارع الحكيم . فانظر إلى ضعف نفسه وقد توزعته الأهواء وخالطه الكبر والعجب والشرك بالله ثم تأمل كيف يتضاعف غروره ويتكاثف عُجْبُه فيقول :

مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣)

وهكذا تمتد جذور الأمل في الحياة ويشتد الحرص عليها وتعظم الفتنة بها فلا يتجاوز نظره إلى ما وراءها ،فيقول :

ومآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً

ثم يستخفه العجب والغرور فيقول لصاحبه :

وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٤)

---

(١) الكهف آية ٣٤ .
(٢) انظر روح المعاني ١٥/٢٧٥ .
(٣) الكهف آية ٣٥ .
(٤) الكهف آية ٣٦ .

فينكر عليه صاحبه كفره وجحوده لنعم ربه ويقول له مقرعا وموبخا :

﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ (١)

تأمل كيف يذكره بالنظر والتأمل في أصل نشأته وخلقته إذ كيف يعجب بنفسه ويتعالى وهو من تراب .

* ثم من نطفة * أي من ماء مهين ، وفيه إشارة الى ضعف نشأته وهوانه فكيف يسند قوته إلى ما خوله الله من نعمة المال والولد ويغفل عن الواهب المنعم القادر على سلبها ومحقها .

* ثم سواك رجلا * فأى جحود أعجب من مخلوق سَوِى ينكر خالقه ، ورجولة تزدرى عقلها وكرامتها حين تنكر البعث وتشرك بالله .

ثم تأمل كيف يحمله على الإقرار بعجزه وضعفه والاعتراف بأن هذه النعم من خالقه الذى لا قوة إلاّ به إن شاء أبقاها أو شاء أفناها .(٢)

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (٣)

---

(١) الكهف آية ٣٧ .

(٢) انظر روح المعاني ١٥/٢٧٩ .

(٣) الكهف آية ٣٩ .

ثم يخبره بغراسة المرء من الصادق الذى ينظر في العواقب بما ستؤول إليه جنته إن هو ظل على معصيته لربه :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ (١)

أى لا تأمن أن تأتيها آفة من فوقها أو من تحتها .

ثم تأمل كيف أحاطت بثمره عاقبةُ كفره :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (٢)

" والإحاطة الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدوّ بالقوم إذا غزاهم " (٣)

والثُمُر: المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع . وهو مأخوذ من ثُمَّر ماله ، يقال ثَمَّر اللّهُ مالَه إذا كَثُرَ قال النابغة :

فلما رأى أنْ ثَمَّرَ اللّهُ مالَهُ
وأثّل مَوْجُودا وَسَدَّ مفاقِرَهُ .(٤)

---

(١) الكهف آية ٤٠ .
(٢) الكهف آية ٤٢ .
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٢٦ .
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٣١٨ .

وهذه الفاء في قوله : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ للتعقيب والتحسر اذا وقع الأمر بغتة .(١)

* هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا * .

تأمل كيف أتت هذه الجملة تذييلاً للجمل التي قبلها ،فالكافر لما علم أن آلهته لم تغن عنه شيئا أدرك أن الولاية لله فقال :

﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

وهكذا نرى أن أعظم حائل بين المشركين والنظر في أدلة التوحيد كان انهماكهم في الإقبال على الحياة الدنيا الزائلة وافتخارهم بهذا الارتفاق العاجل ، واعتقادهم أن الحياة هي حياتهم الدنيا ، فأمر عليه الصلاة والسلام أن يضرب لهم مثلا آخر لهذه الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها بعد أن ضرب لهم مثلا بين فيه لهم أن ما يفتخرون به على فقراء المسلمين ليس أهلا لأن يفتخر به لأنه إلى زوال .(٢)

قال تعالى :

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

---

(١) انظر روح المعاني ١٥/٢٨٣.

(٢) انظر نظم الدرر ١٢/٦٥.

(٣) الكهف آية ٤٥.

في ظل هذا الإحساس البالغ الأسى والحسرة الذى تتأجج في صدر هذا الشرك وهو(يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) ينقله الحق نقلة أرحب يرى فيها حياته الدنيا ماثلة أمام عينه ماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيصبح هشيما تذروه الرياح ويوقفه على أن الحسرة العظمى هي في خسرانه لحياته كلها :

خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١)

ثم تأمل كيف ناسب أن يبدأ المثل بقوله : " واضرب لهم " لأنه يتناسب مع قوله تعالى :

* وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ (٢)

وكأنها إيقاعات تشتد وتقوى و تتوالى لتنبيه النفس الغافلة لتقف على فقه هذه الأمثال الغريبة الصفة العجيبة الشأن وتأخذ العظة الوجدانية من هذه الطبيعة حولها .

والمعنى : " اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها و نضارتها وسرعة زوالها لئلا يغتروا بها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا ". (٣)

---

(١) الحج آية ١١.

(٢) الكهف آية ٣٢.

(٣) روح المعاني ٥/ ٢٨٥.

وفي تقديم الضمير " واضرب لهم " مزيد عناية واهتمام بضرب المثل لهؤلاء الغافلين وكأنهم لشدة غفلتهم ضمير غائب ، وغيبة الضمير توحي بفقدان الحس ، وفيه تحقير لهم وازدراء لشأنهم لعدم تشريفهم بالخطاب ، وإذا ما عدت إلى الضمير وجدته يتناسق مع ضمائر الجمع في سياق الآيات كقوله تعالى : " وحشرناهم - وعرضوا ...) .

والمراد بمثل الحياة الدنيا أى الحياة القريبة الحاضرة، كنى عن الحضور بالقرب .(١)

فهي قريبة في حسهم وتصورهم بمتعها ولذاتها ، ولكن حقيقة أمرها وسرعة انقضائها بعيد عن إدراكهم لذلك مثلت لهم في هذه الصورة الحسية حتى تدرك كنهها العقول الغافلة والقلوب الشاردة التي لا تقوى على إدراك غير المحس ولا تؤمن إلا بالحاضر :

كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ

فاختلط به نبات الأرض: لكثرته وتكاثفه ووفرته التف بعضه ببعض فهو في غاية الخصب والنضارة والازدهار ، أو المراد أن الماء دخل في النبات حتى روى واهتز ورف .(٢)

فهو في غاية النضرة والبهجة .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٣٣١ وروح المعاني ٥/ ٢٨٥ .

وقارن هذه الحال بحال ذلك الصاحب الذى بلغ أوج الكمال والقوة مع وفرة نعمه وكثرتها واعتزازه وافتخاره بنفره وثمره.

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ

"والهَشْمُ : كَسْرُ الشيءِ الرِّخْوِ كالنَّبَاتِ"(١).

وهو اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول أى مهشوما محطما، فالهشم : الكسر والتفتيت.(٢)

(والهشيم : ما تهشم وتحطم الواحد هشيمه).(٣)

وفي صيغة هشيم مبالغة تفيد شدة تهشمه وبلوغه غاية التفتت والتلاشي.

والمعنى : " أى فأصبح ذلك النبات الملتف أثر بهجته ونضارته هشيما تذروه الرياح ".(٤)

وقوله : تذروه " الرياح " أى تثيره وتفرقه في الهواء وتذهب به.

وهذه الجملة تأكيد لعدم بقائه وتنصيص على زواله كأنه لم يكن

---

(١) المفردات للراغب. مادة (هشم).
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١.
(٣) روح المعاني ٥/ ٢٨٦.
(٤) المصدر السابق.

لأنّ (ذرو) لها أصلان أحدهما الشّيءُ يُشرِف على الشّيء ويظله والآخر الشيء يَتَساقَطُ متفرّقاً . (١)

وقارن هذه بتلك الجنتين اللتين أظلت صاحبها ثم تساقطت عنه وهوت على عروشها وكذلك هي حياته الدنيا وما يسودها من مفاخرةَ تتساقط عنه فتصبح هشيما تذروه الرياح .

فإذا قوته التي فاخر بها وكاثر و تباهى وتعالى تؤول إلى منتهى الضعف والذلة والهوان ، يقول الزمخشري " شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ". (٢)

و هي(رياح) وليست ريحا تلك التي تذهب بحياته الدنيا وتفرقها وتذروها كأن لم تكن فهو جزاء يجانس عمله حين توزعته الأهواء والمطامع والشهوات من العجب والغرور والافتخار بكثرة ماله ونفره وثمره ثم الجحود لنعم الله والشرك به وإنكار البعث والتهكم والسخرية بمن يذّكره ويدعوه وهكذا ..

وقارن بين قوله :

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾

وقوله : ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ﴾

---

(١) المقياس مادة (ذرو).

(٢) الكشاف ٢/٤٨٦.

وأصبح بمعنى صار ولكنها تفيض من ايحاءتها وظلالها إذ توحي بانبلاج وظهور صبح الحقيقة الثابتة التي غفلوا عنها تحت وطأة الشهوات وظلمة الشرك والعجب فكأن خواء هسا على عروشها أذهب ليل غفلتهم فأصبح الحق جلياً لكل من تتأتى منه الرؤية .

كما أن تهشم النبات وتفتته أى زوال الحياة الدنيا وسرعة تقضيها جلّى حقيقتها وأنها مهما بلغت من النضرة والبهجة فهي إلى زوال فجديرٌ من هذه طبيعتها الزهدُ فيها والرغبةُ عنها وألا يفتخر بها عاقل فضلا عن أن يكاثر بها غيره .

ثم أنك إذا استقصيت التأمل وراجعت المثل وجدت أن المثل يحكى قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة كانت خضراء وارفة ثم أصبحت هشيما واهيا ولكن هذا الالتفات من الماضي الذى عليه نسق الآيات الى المضارع في قوله " تذروه الرياح " فيه حياة لا زالت تنبض بالحركة ترى فيه الرياح في عمل دؤوب وسعى حثيث متجدد تذرو الهشيم وتظل هذه الصورة ماثلة أمام أعيننا حتى تتم العظة وتحصل العبرة .

فلله هذه الطبيعة التي يمثل الله بها ما لا تدركه الحاسة ولا يقف عليه بصر .

---

(١) انظر نظم الدرر ١٢/٦٨ .

* ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ *

(المقتدر : قوى القدرة كاملها).(١)

وجملة التذييل هذه موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها وترتيب أسباب الفناء على أسباب البقاء وذلك اقتدار عجيب.(٢)

كما أن قوله (مقتدرا) جاء متناسبا مع الحياة الدنيا التي تطويها يد القدرة في لمحة تسوطئة لأحداث القيامة الرهيبة بعد ذلك ولذا جاء باطلاق آخره ومتعلقه ".(٣)

ثم نعود للآيات الكريمات ننظر في طريقة صياغتها ونظمها لنرى كيف أتى التمثيل ليخرج الأمر المعقول في صورة المحسوس.

والمشبه : هو حالة هذه الحياة الدنيا في إقبالها وبهجتها ونعيمها وسواء أكان المراد الحياة الدنيا كلها أم حياة الأفراد أم المراد بها حياة الثمرات من المال والولد أي زينتها ، ثم توليها وزوال ذلك كله أو زوال نفع هذه الثمرات وانعدام التمتع بها.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) من الإعجاز البلاغي في القرآن / د. صباح دراز ص ٦٧.

والمشبه به : حال النبات المنبت بالماء يكون أخضرا وارفا ثم يصير يابسا تطيره الرياح كأن لم يكن .

وقد نُعيت الآية على هذا الإيجاز البديع والترتيب والتعاقب السريع الموحي بقصر الحياة الدنيا وما يقتضيه قِصَرُها من قصر مدة التمتع بها وأنها وشيكةُ الارتحال سريعة الزوال . وتعاقب الفاء في الآية:

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ... فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾

لم يدع للزمن فترة يتراخى فيها ويخلد إلى الأرض كما في سورة يونس بل ربطت الكلام بعضه ببعض ورتبت ثانيه على أوله وثالثه على ثانيه بهذا التعاقب السريع المبنى على الإيجاز .

يقول صاحب روح المعاني : " وعبر بالفاء في الآية للاشعار بسرعة زواله وصيرورته بتلك الصفة فليست فصيحة ". (١)

بمعنى أننا لو قدرنا المحذوف فقلنا : (فَزَهَا و مكث فأصبح) لكنا قد أغفلنا هذا الجانب العظيم المراد من نظم الآية وهو سرعة زوالها كأنها لم تلبث ولم تمكث فتزهو .

كما أن في عدم ذكره وتقديره توكيد بأنه لم يكن ، ورحم الله الإمام عبد القاهر حين قال : " وتجدك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطق ". (٢)

وقارن بين سرعة الفناء وطول أمل البقاء .

---

(١) روح المعاني ٥/ ٢٨٦ .

(٢) الدلائل ص ١٤٦ - تحقيق محمود محمد شاكر .

(٣)



قال تعالى :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ (١)

----

(١) سورة الحديد آية ٢٠ .

من أسرار المناسبة :

من المقاصد الأساسية لسورة الحديد تحقيق إيمان المؤمنين وتزكيته في القلب وما ينبثق عن ذلك من تضرع واخبات وخشوع لله الذى يسبح له ما في السموات والأرض والذى وصف نفسه سبحانه بصفات الجلال والكمال والبقاء مع بداية هذه السورة الكريمة مما يحمل القلب على التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله الذى له ميراث السموات والأرض .

ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١)

ثم تأمل التوبيخ والتعجيب من أمر التقاعس عن تلبية نداء ربهم وعن تصديق إيمانهم والعلة وراء ذلك .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ (٣)

---

(١) سورة الحديد آية ٧ .
(٢) سورة الحديد آية ٨ .
(٣) سورة الحديد آية ١٠ .

ثم نوه سبحانه بفضل أولئك السابقين الى مرضاة ربهم :

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ (١)

وبين ما أعد لهم من خير عظيم وما أعد ضد ذلك للمتقاعسين الغافلين أو المنافقين وبين لهم سبب ارتكاسهم وحرمانهم من الأجر العظيم :

﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (٢)

ثم يحذر عز وجل عباده المؤمنين من بلوغ هذه الحالة والوقوع في مهواة قساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم ويعاتبهم عتابا بالغا تخبت له القلوب المؤمنة :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٣)

ثم يطمعهم عز وجل في عونه ورحمته وقدرته على إحياء قلوبهم بذكره كما يحي الأرض الميتة بوابل السماء .

---

(١) الحديد / ١٠ .

(٢) الحديد / ١٤ .

(٣) الحديد / ١٦ .

وبين لهم أن من أسباب خصوبتها وإخباتها أن يصدّقوا في سبيل الله ففي ذلك تحقيق لإيمانهم وتزكية لقلوبهم وأن هؤلاء الذين حققوا ايمانهم وصدقوه :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ (١)

ولما كانت العوائق التي تحول بين العبد والإنفاق في سبيل الله هو الشح والحرص على استبقاء المال لانفاقه في لذائذ الحياة ومتعها من لهو ولعب و تفاخر وتكاثر مثلت لهم الدنيا من هذا الجانب الذى يحرصون عليه و يتنافسون فيه .

وصدرت بما يوجب غاية اليقظة والحضور.(٢)

يقول الزمخشرى : " وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه العاهة فهاج واصفرّ وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم ".(٣)

---

(١) سورة الحديد / ١٩ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٢/ ٦٨ ، التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣٨ .

(٣) الكشاف / ٤/ ٦٦ .

ويقول صاحب التحرير والتنوير : " أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح وأنه الحرص على استبقـــاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا فضرب لهم مثل الحياة الدنيـــا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لها وتزهيدا فيها لأنّ التعلـــق بها يعوق عن الفلاح كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجـــب وغيره وأشار إلى أنه ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة ووقاية من العذاب الشديد وما عدا ذلك فهو متاع قليل ".(١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٠.

من أسرار اللغة والنظم :

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ (١)

" اعلموا " : افتتح الكلام بـ " اعلموا " ليشير إلى أن الكلام الذى بعده له مغزى عظيم يجب التفات الذهن بكليته إليه .(٢)

" والخطاب في (اعلموا) للمؤمنين / الغافلين على طريقة الالتفات اقبالاً عليهم للاهتمام ".(٣)

تأمل كيف أن القصر انصبّ على مافي الحياة الدنيا من اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر إذا حال بين العبد وطاعة ربه ، فمتع الحياة أو حياة المتعة فانية كهذا الزرع الذى هذا مثله فما أحراهم أن يفنوا ما هو فان في الإعداد للآخرة التي آمنوا بها والمسابقة إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض .

وهذا القصر الإضافي في " إنما " لتنزيل المنكرين منزلة غير المنكرين لأن لديهم من البراهين والأدلة ما لو فطنوا إليها لرأوها على وجهها الذى وصفها بها القرآن من أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر .

---

(١) سورة الحديد / ٢٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٩٣ .

(٣) المرجع السابق ٢٧ / ٣٩٤ .

كما أن فيه تعريضا بهم لغفلتهم عن هذه الحقيقة وتحذيرا لهم من أن يكونوا كالمنافقين الذين فتنوا أنفسهم وتربصوا وغرتهم الأماني وغرهم بالله الغرور ، أو كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، أو كالكفار الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وأولئك أصحاب الجحيم .

ووراء وصف الحياة الدنيا باللعب بسهولة انخداع النفس بها وسرعة استجابتها لما هو في طبعها وفطرتها من حب اللعب الذي فيه من الأنس والمسرة والحلاوة للنفس ما فيه وما هو إلا وهم وسراب لا يلبث أن ينجلي عن إضاعة للأوقات والأزمان التي هي رأس مال الإنسان .. ثم إن الإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسة العقل .(١)

فضلا عما في تنكير (لعب) ما يوحي بأنه لعب عظيم بالغ يكثر ويغلب على أحوال الناس في الدنيا ويستغرق جزءا عظيما من حياتهم.(٢)
وقد ورد وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، قال تعالى :

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ (٣)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٠١.
(٢) المصدر السابق ٢٧/ ٤٠٢.
(٣) سورة الأنعام آية ٣٢.

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٢)

وقدم اللعب على اللهو في الأكثر " لأنّ اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب ". (٣)

بينما قدم اللهو على اللعب في سورة العنكبوت " لأنّ المراد زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء * وإنَّ الدَّارَ الآخرة لهي الحيوان".

أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لابدها بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب . (٤)

واللَّهْوُ : " ما يَشْغَلُ الإِنْسانَ عَمَّا يَعْنِيهِ وَيَهِمُّهُ يقال لَهَوْتُ بكذا ولَهَيْتُ عن كذا اشْتَغَلْتُ عنه بلَهْوٍ .

... وَيُعَبَّرُ عن كلِّ مَا بِهِ اسْتِمْتَاعٌ بِاللَّهْوِ ..

وَمَنْ أرادَ باللَّهْوِ المرأةَ والولد فَتَخْصِيصٌ لبعضِ ما هو من زِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا التي جُعِلَ لَهْواً ولَعِباً ". (٥)

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤.

(٢) سورة محمد آية ٣٦.

(٣) اسرار التكرار في القرآن للكرماني ، ص ٦٨.

(٤) المصدر السابق .
وانظر : صفاء الكلمة ص ٢٢٠ ضمن سلسلة من أسرار التعبير في القرآن ، د / عبد الفتاح لاشين .

(٥) الراغب ، مادة (لهى) .

وهكذا تتكاثف المعاني وتفيض وتغزر .

ترى هذا وتدركه في تكشيف الحياة الدنيا من تلبيسها وإغرائها وخداعها للنفس على مراحل زمنية تستغرق عمر الإنسان فكلما امتد بـه العمر مرحلة قوى تعلقه بها واستغراقه فيها فهي تبدأ باللعب فتـرة الطفولة لتغرى النفس ببراءة مقصدها ثم لا تلبث أن تستميل القلب فترة الشباب والطاقة والنشاط فتلهيه عن غايته العظمى وهدفه الأسمى عما يُهمُّه ويعنيه من طاعة ربه والإقبال على آخرته فإذا لهى القلب أصبح مصيدة للشيطان فزين له سوء عمله .

تأمل كيف وصف الحياة الدنيا بأنها زينة بعد هاتين المرحلتين وقد تهيأت فيها النفس لاستقبال هذا التمويه والخداع والتزيين فإذا بها ترى القبيح الفاسد والزائل الفاني جميلاً باقيا .[1] فتحرص على عمارته وتنفق في سبيل ذلك العمر والمال بدلا من إنفاقهما فيما هو خيـر وأبقى .

ثم تأمل كيف أتت كل من كلمة (لهو وزينة) نكرة لتوحـي بأنه لهو عظيم يشغل الناس ويشغلوا به ، وزينة طاغية تأسر القلب أسـرا بينما هي في الحقيقة زينة حقيرة باطلة لا يحصل من ورائها شرف ذاتي .

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ١٥/ ٢٣٤ .

فاذا ما غلبت هذه الأمور على النفس وضربت بجذورها في تربة القلب آتت أكلها وكان من ثمارها التفاخر والتكاثر .

أرأيت كيف تتولد المعاني بعضها من بعض ، وكأن الحياة الدنيا شجرة انبثقت داخل نفسه فازينت فبلغ به العجب غايته أن يفاخر ويكاثر بزينتها من الأموال والأولاد وقارن هذا بأولئك الذين يفاخرون بالأضعاف المضاعفة عند ربهم .

وهكذا تتأكد المعاني وتتراقى الصفات وتقوى وتشتد .

فاللهو فيه معنى اللعب وزيادة والزينة فيها معنى اللهو وزيادة والتكاثر والتفاخر نتيجة وثمرة لإنبهار النفس بهذه الزينة وكأن التكاثر امتداد لنفسه التي يفاخر بحسبها ونسبها . * وتفاخر بينكم * " الفاء والخاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على عِظَم وقِدَم . من ذلك الفخر.ويقولون عن الفَخْر هو عَدُّ القديم . والتفخُّر التعظُّم ونخلة فُخُور عظيمة الجِذْع غليظةُ السَّعَف .. " (١)

وهكذا يأتي الفخر بعد طول أمد لأنه عد القديم الذى زين له ، ووراء طول الأمد قسوة قلب وغلظة نفس تحول بين العبد وامتثاله أمر ربه ، وقارنه بأولئك المخبتة قلوبهم من المصّدقين والمصّدقات .

---

(١) المقاييس مادة (فخر) .

وتأمل ما وراء صيغة (تفاخر وتكاثر) على وزن تفاعل من بلوغه غاية الانفعال والهيجان لأنّ هذه الصيغة تزيد من حدة التكاثر والتفاخر وطغيانهما وتوحى بهذا التنافس والتباهي والعجب الذى غلب نفوس أهل الهوى .

ثم هو لا يتجاوز هذه البينونة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أى هذه المسافة الضيقة بينكم من الأنساب البالية والمتع الفانية ، وقارن هذا بما يتسابق إليه المؤمنون " مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض فالتفاخر والتسابق هناك له ذلك البعد وتلك الرحابة التي تسع السموات والأرض أى الكون كله .

ثم تأمل كيف بدأ التكاثر بالأموال والأولاد أى بالعَدَدِ والعُدد وما وراء ذلك من توزع نفسه واستغراق قلبه بما هو زائل مائل .

وقارن هذا التكاثر بما هو فان بالأضعاف الباقية ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١)

ولما كانت هذه الأمور قد شغلت الناس عن الدار الآخرة وألهت القلوب عن الطاعة والإخبات لربها وجعلتهم يقصرون هممهم على متعها

---

(١) الحديد آية ١٨ .

بدلا من اتخاذها وسيلة لنعيم الآخرة.

ولما كان الإعجاب بها قد بلغ بالنفوس غاية العجب مثلت لهم هذه الحقيقة في هذا التمثيل البارع الذى يصور أطوار الحياة الدنيا وما فيها من شباب وكهولة وهرم وفناء ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك ،بأطوار الزرع وكلها أعراض زائلة وآخرها فناء .(١)

قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

فالمشبه : هنا أحوال أهل الدنيا الغالبة عليهم الصارفة لهم عن طاعة ربهم ،والمشبه به : نبات الغيث الذى بلغ غاية الينوعة والخضوبة والجمال فلم يلبث أن اصفر ثم أصبح حطاما .

تأمل كيف بدأ التمثيل (بغيث) وما وراء ذلك من العناية والاهتمام .

والغيث : هو الذى يأتي بعد قنوط الناس "وهو الحَيَا النّازِلُ من السَّماءِ". (٢)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٣.

(٢) المقاييس مادة (غيث) .

وفي تنكيره ما يوحي بأنه غيث متفرد في جوده وعظم نفعه لذلك صدر به المثل حفاوة به واعظاما لشأنه .

ثم تأمل تركيب هذه الجملة القرآنية على هذا النمط البديع الذى يكاد ينطق بما يختلج في صدورهم ويعتصر في نفوسهم من نشوة الإعجاب .

وذروة الافتتان بهذا النبات الذى بلغ العجب به أن غفلوا عن مصدره فأوغلوا في البعد .

وأداروا ظهورهم للغيث وأقبلوا على نباته مفتتنين معجبين فشغلوا بالمعمول عن العامل وبالنبات عن المنبت وقارن هذا بأولئك الذين فتحت لهم الدنيا بعد جدب وشقاء وأوتوا من زهرتها ما آنس نفوسهم وشغل قلوبهم فافتتنوا بها وغفلوا عن واهب هذه النعم فلم يوءدوا حق شكرها .

أوباولئك الكافرين الذين إذا رأوا معجبا لم يتخط فكرهم عما أحسوا به فيستغرقوا إعجابا .

وأعجب : " أمرٌ عجيب إذا استُكْبِر واستُعْظِم . وقد أُعجِبْتُ به وشيءٌ مُعْجِبٌ إذا كان حسَنَاً جِداً " (١)

---

(١) المقاييس مادة (عجب) .

والكفار : " في اللغة من الكُفْرِ وهو سَتْرُ الشيء ، وَوصْفُ الليل بالكافرِ لِسَترهِ الأشخاص ، وَالزَّارع لستْرِهِ البذْرَ في الأرضِ ، وَكُفْـــرُ النِّعْمةِ وكُفْرانَها سَتْرُهَا بتَرْكِ أداء شكْرِها . (*)

ثم تأمل كيف تتضافر عناصر التمثيل لتؤكد وتقوى معنى الاعجاب وشدته وأخذه بمجامع القلوب .

وذلك لأنّ تخصيص الكفار بالذكر هنا " لأنهم أهل البصر بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة ". (١)

" فاذا أعجب الزَّراع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن " (٢)

ولكن في إيثار كلمة (كفار) بدلا من (زراع) كما في سورة الفتح (٣) (يعجب الزراع) إيحاءً بأن عملهم لم يتجاوز ستر هذا البذر في الأرض وأن المنبت الحقيقي والزارع الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى .

ثم لاحظ كيف بُنيت عناصر التمثيل على المبالغة لتؤكـــد معنى الإعجاب وشدة الغفلة فهم كفار على صيغة المبالغة لتوحي بكثرة

(*) الراغب مادة (كفر) .
(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٤ .
(٢) الفخر الرازى . ١٥/ ٢٣٥ .
(٣) آية ٢٩ من سورة الفتح .

الأغطية والأسدال التي حجبت عنهم نور الفطرة والإيمان من اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر تعظيما لأمر الدنيا وإعجابا بمحاسنها وحطام بنائها .

والنبات: ما نبت من ذلك الغيث وحصل به ونشأ عنه وهو اسم مصدر من (نبت) وهو هنا أطلق على النابت من إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة . (١)

وفي إضافة النبات للغيث لتأكيد تفرده عن النبات بخصوبته وبهائه ونضارته وروائه فهو غاية الحسن .

كما أن في ذلك ايحاءً بأنه نبات ذلك الغيث وليس مما عملت أيديهم وقارنه بتلك النعم من الأموال والأولاد وأنها مما وهبهم الله ليبتليهم فيها وليست مما كسبت أيديهم . * ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً * .

يهيج : " يقالُ هَاجَ البَقْلُ يَهِيجُ إصْفَرَّ وطابَ " (٢)

" يهيج يتحرك الى أقصى ما يتأتى له " (٣)

---

(١) التحريروالتنوير ٢٧/ ٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة (هاج) .

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوى ٦/ ١٦٠ .

"ومن المجاز هاج البقل إذا أخذ في اليبس".(١)

ولابن عاشور كلام نافذ دقيق يبين فيه " أن الهياج الغلظ ومقاربه اليبس لأن مادة الهياج تدل على الاضطراب والثوران وسميت الحرب الهيجاء قال النابغة :

* أَهَاجَك من سُعداك مَغْنَى المعاهدِ *

والزرع إذا غلظ تكونُ لحركته صوت فكأنه هائج أي ثائر وذلك ابتداء جفافه وذلك كقوله تعالى «كَزَرعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ »(٢)

ووازن هذا بأولئك الذين بلغوا باللهو واللعب والتفاخر والتكاثر أقصى ما يتأتى لهم وما وراء من الجلبة والهيجان وشدة الانفعال وقد أخذ بهم العجب أقصاه .

ثم تأمل هذا التعقيب السريع المترتب على ذلك الهيجان وهذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله (فتراه مصفرا) وهي الحقيقة التي غفل عنها الغافلون فاستغرقوا إعجابا ، هذه الحقيقة ظاهرة جلية لكل من يتأتى منه الرؤية أنه يرى هذا النبات مصفرا بعد أن كان زاهيا ناضرا قد بلغ غاية الحسن والاستواء والغلظ.

ولم يقل (فيروه) إشارة إلى غفلتهم وأنهم في غيهم يعمهون .

---

(١) الأساس للزمخشري مادة (هاج) .

(٢) التحرير والتنوير ص ٤٠٥ / ٢٧ ، روح المعاني ٩ / ١٨٥ ، أبو السعود ٤٥ / ٤ ، سورة الفتح آية ٢٩ .

ثم تأمل دقة أهل العلم في استنباط المغزى من التمثيل إذ يقولون : " واصفرار النبات أعظم دلالة على التهيوء للزوال وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا ".(١)

ولم يقل : (فتراه يابسا) لأنّ الاصفرار يقابل النضرة والجمال أي العرض الذي أعجبهم وحال بينهم وبين روءية الجوهر.

ولم يقل (فتراه يصفر) والتي توحي بتجدد هذه الصفة وحدوثها حالا بعد حال ، وانما أوحى بقوله مصفرا إلى ثبوت ذلك ودوامه وكأنه الأصل وكأن الهيجان هو الحادث الطارىء الذى ما لبث أن زال ليترتب عليه هذه الحقيقة الثابتة اللازمة له.

هذه الحقيقة التي تجلت في قوله (مُصْفَرّاً) والتي أفرغت النبات من كل معاني الحياة والسرواء والعطاء وجعلته خاويا تصفر فيه الريح ومن كانت هذه صفته اللازمة له لم يكن قط محط إعجاب .

ثم أنك إذا ما عدت إلى معنى (رأى) في قوله تعالى : (فتراه مصفرا) لرأيته يقتضي معنى العلم هذا ما يشير إليه الراغب في أن (رأى) إذا عدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم.(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٦٠٤٠٦.

(٢) الراغب مادة (رأى) .

تأمل هذا وكيف أن كل راءٍ تتأتى منه الرؤية يرى النبات مصفرا ببصيرته المؤمنة رؤية إثر رؤية .

(ثم يكون حطاما) .

" الحَطْمُ كَسْرُ الشيء مِثْلُ الهَشْم ونحوه اسْتُعمِلَ لكلِّ كسْرٍ مُتَناهٍ ". (١)

حطم : " هو كَسْرُ الشيء يقال للمتكسِّر في نفسه حَطِم. ويقال للفرس إذا تهدَّم لطول عمره حَطِمٌ . الحَطَمُ داءٌ يصيب الدابّة في قوائمها أو ضَعْفٌ. والحَطْمة السنة الشديدة لأنها تَحْطِم كلّ شيء. والحُطَم السوّاق يَعنف يحطِم بعضَ الإبل ببعض ". (٢)

ثم تأمل جملة (ثم يكون حطاما) ولم يقل : (يجعله حطاما) أى كأن هذه الحطامية في جبلته وطبعه وفطرته). (٣)

ويتلاءم التحطيم هنا مع تلك الأموال المكدسة والقلوب المستغلظة البالغة غاية الفخر والعجب والقوة والقسوة.

ولما كانوا قد بلغوا الغاية في الانهماك في الدنيا والإعراض عن الآخرة عظّم عَزَّ وَجَلَّ أمور الآخرة الأبدية تنفيراً من الإنهماك في الدنيا

----

(١) الراغب مادة (حطم) .
(٢) المقاييس مادة (حطم) .
(٣) نظم الدرر ١٩/ ٢٩٠.

وحثا على ما يوجب كرامة العقبى فقال ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ (١)

وبهذا التذييل البديع تتأكد حقيقة هذه الدار التي غرت وخدعت وألبست الأمور غير لباسها فأوهم النفع فيما فيه الضرر البالغ فقال ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ .

والغَرُور : الخديعة أو إظهار الأمر الضار الذى من شأنه أن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذى يرغب فيه . (٢)

وفي الراغب : " الغَرُورُ كلُّ مَا يَغُرُّ الإِنْسَانَ منْ مَالٍ وَجَاهٍ وَشَهْوَةٍ وشَيْطَانٍ ، وقد فُسِّرَ بالشيطان إذ هوَ أَخْبَثُ الغارِّينَ ، وبالدُّنْيا لما قيلَ : الدُّنْيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وَتَمُرُّ ." (٣)

---

(١) حاشية الشهاب ٨/١٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٧.
(٣) الراغب مادة (غرر)

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا :

أول ما يلفت النظر للتأمل والتفكر هذا البناء البديع المحكم السبك المتقن المتلاحم ،الذى بنى عليه التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم ، وقد أفرغ إفراغا واحداً ،بحيث يرى وهوعلى حد واحد من الاستواء والتلاحم والتحدر ، آخذا بعضه بحجز بعض متميزاً بصورته وهيئته وسمته وملامحه عن صور التشبيه الأخرى ،وإن كان يتحد معها في الغرض والمعنى العام لأنه قد اتضح لنا بالتحليل والمدارسة، أن كل تشبيه تمثيلي متميز يتناول جانب من جوانب هذا المعنى العام لم يتناوله غيره .

ولما كان أهل العلم يرون أن لكل معنى في الجملة هيئة وسمتا يعرفه به أهل العلم معرفة لا تلتبس.(١)

صار بالضرورة لكل تشبيه في القرآن الكريم هيئة وصورة يتميز بها ،وهي من جهة أخرى تتلاءم وتتناسق مع السياق الذى ورد فيه ، لأن جزء كبيراً من بلاغة التشبيه ودقائق معانيه هي من معطيات هذا السياق .

---

(١) انظر الصورة في التراث البلاغي ص ١٧٩ عن مجلة اللغة العربية جامعة أم القرى السنة الثانية ١٤٠٤-١٤٠٥هـ ، د. محمد محمد أبو موسى .

١ — وأول تلك الأسرار في هذا التنوع هذا المطلع البديع لكل مثل من أنواع التشبيه التمثيلي ، والذى يتلاءم مع طريقة النظم في السياق الذى ورد فيه .

ففي سورة يونس (عليه السلام) ورد قوله تعالى :

إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

ثم قارن طريقة النظم هذه مع طريقة النظم في التمثيل :

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

وفي سورة الكهف قال سبحانه :

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وفي سورة الحديد يقول سبحانه :

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ

وهكذا وكأنها إيقاعات أو ضربات متواليات متناسقات تتلاءم وتتلاحم مع السياق ، فيشتد ويقوى وتتكاثف معانيه، وتفيض وتكون من الغزارة والوفرة بحيث لا يحيط بها ، ويبين عنها إلا ضرب الأمثال وقيامها ، فترى بداية كل مثل فضلا عن أنها تتناسق مع السياق من جانب

الإيقاع الخارجي طريقة النظم فانهما أيضا تتلاءم مع المعنى الذى سيقت له.

٢ - تدور المادة اللغوية أو عناصر التشبيه التي كونت أساليبه حول الماء النازل من السماء أو الغيث - نبات الأرض واختلاط الماء به - الزخرف - الزينة - أهل الأرض وافتتانهم بها - الحصيد - الهشيم الرياح - الكفار أو الزراع - الأحوال التي طرأت على النبات من الهيجان والاصفرار والحطام .

هذه التشبيهات وإن كانت قد اشتركت في معنى عام وهو تشبيه حال الحياة الدنيا في نضرتها وبهجتها وافتتان الناس بها ثم ما تؤول إليه من الهلاك والفناء الا أن لكل تشبيه معرضا و معنى يتلاءم مع السياق الذى ورد فيه .

ففي سورة يونس أتى التعبير بأسلوب القصر (إنما مثل الحياة الدنيا) ليقلب معتقداً باطلاً تغلغل في قلوب القوم وحملهم على التمادى في ذلك إنكارهم للبعث فاطمأنوا إلى الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة فناسب مجيء هذا الأسلوب ليحسم شبه المنكرين وليعرض بغباوتهم وشدة غفلتهم.

فالتمثيل هنا مبني على التفصيل والتحليل الذى يصف فيه تغلغل هذه الحياة الدنيا في قلوب أهلها وشدة افتتانهم بها وفيه

إشارة إلى ناحية من نواحي الإعجاز العلمي في القرآن الكريـــــم وهوظهور سلطان العلم وطغيانه على الناس حتى توهموا أنهم متمكنون من الدنيا قادرون عليها عالمون بها كل العلم.

بينما نجد التمثيل في سورة الكهف مبني على الطي والايجـاز، فالمراحل التي فصلت في سورة يونس مطوية هنا ،لأن الغرض الأساسي بيان سرعة زوال هذه الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها ،وهذا يتناسق ويتناسب مع عقيدة المشركين ، الذين يظنون إن هي إلا حياتهم الدنيا ، والذى يمثله موقف هذا المشرك المعجب الذى بلغت به شدة افتتانـــه بجنته أن يقول :

﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾

تأمل طول أمله بهذه الحياة الدنيا وكيف ناسب ذلك أن يبنى التمثيل على قصر مدة التمتع بها وسرعة زوالها ،وهي الحقيقة الثابتة التي تقابل هذا الاعتقاد الواهم ،والمتأمل لسياق الآيات في سورة الكهف يجدها تتحدث عن افتخار المشركين بأموالهم وأولادهم على فقراء المسلميـــن وضعفائهم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفســـــه معهم .

مما يقتضي أن يتناول التمثيل أيضا سرعة زوال متعهـــــــــــــا وزينتها من الأموال والبنين لكونهما من أقوى أسباب التعالي على النـاس وطول الأمل وشدة الحرص .

وكأن التمثيل يوحي بمعنى خاص يستقيه من السياق

بعد ذلك المعنى العام الذى يتبادر إلى الذهن عند تلاوته ،

ومما يؤكد أن التمثيل لا يضيق عن هذه المعاني قوله سبحانه بعد ذلك :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (١)

٣ - ومن أسرار التنوع في سورة الكهف / قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ بينما كانت الإحاطة بهم في سورة يونس ، وكيف جاء نسق التمثيل متناسقا مع هذا المعنى الذى سيق له .

يقول سبحانه :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٢)

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾

---

(١) الاية ٤٦ من سورة الكهف .

(٢) الاية ٤٢ من سورة الكهف .

لأنّ هذه الحالة التي بلغها صاحب الجنتين من العجب والافتتان والغفلة حينما استوفت جنته غاية الحسن والطيب والجمال وشعوره بالقوة والاقتدار ، ثم ما آل إليه حاله من ضعف وذلة وهوان بعد أن تفرقت عنه نعمته وخوت جنته .

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا

يتناسب مع بلوغ هذا النبات غاية قوته وتكاثفه ونضارته وبهجته ، ثم ما آل اليه حاله :

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ

فغاية القوة والاعتداد يقابلها منتهى الضعف والهوان .

بينما تجد الإحاطة بهم في سورة يونس إذ يقول سبحانه :

وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ

إلى قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم
مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١)

---

(١) الآيات ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ (١)

وهذا من بديع التناسق والتلاؤم في نظم القرآن الجليل إذ كيف يتناسب ويتلاءم استئصال جذور الحياة الدنيا التي تحصد وتقلع من منابتها وكأنها لم تغن بالأمس بعد أن ظن أهلها وأيقنوا أنهم قادرون عليها

مع تهديدهم بأن عاقبة بغيهم ستعود عليهم لأن القوم بلغوا الغاية في الفساد .

٤- ومن أسرار التناسق والتلاؤم أن العناصر التي تكونت منها صورة التشبيه التمثيلي للحياة الدنيا وهي الماء الذى اختلط بنبات الأرض ، وما جرت عليه من أحوال وتعلقت به من مواصفات ، وما آل إليه حاله بعد ذلك هي بعينها العناصر التي يمثل بها لقيام البعث في القرآن الكريم ، لأنه لما

---

(١) يونس / ٢٤

كان المخاطبون في الأمثال السابقة مشركين منكرين للبعث أو مؤمنين غافلين أو منافقين كما في سورة الحديد .

مثلت لهم الحياة الدنيا وقد مضت وفنت ،لتؤكد وتقرر الإيمان باليوم الآخر فإذا البعث الذى ينكرونه أو يغفلون عنه ماثل لهم من بين حصيد الفناء .

٥ - ومن التناسق البديع التناسب بين العاقبتين في المثلين الكريمين اللذين ينتهيان باتيان أمر الله ومباغتته لهم ، فالنبات المختلط بالماء والذى بلغ غاية قوته وكمال بهجته ووفرته لا يترك ليتابع مراحله الطبيعية نحو الفناء ، ولكنه يفاجأ ليلاً أو نهاراً بما يقتلعه ويجتاحه من آفات وعاهات فيجعله حصيدا .

أو يذهب ماؤه غوراً ، فيجف ويتهشم فتراه في أوج إقباله قد أدبر .

وكلمة (أصبح) تؤكد معنى المباغتة والمفاجأة التي أذهلتهم بعد أن كشفت عنهم قناع الغفلة .

وهذا الذى يتناسب مع الطاغين المفسدين في الأرض المنكرين للبعث ومع المفتخرين بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين .

بينما يتابع النبات في سورة الحديد أطواره ومراحله الطبيعية فعنصر العقوبة غير موجود ،لأنّ المخاطبين هنا أولئك الذين فتحت لهم الدنيا بعد الفتح وأُوتُوا من زهرتها ما آنس نفوسهم واختلبها ،وقد يكون بعضهم حديثي عهد بالاسلام ، ولا زال التكاثر بالمال والتفاخر بالولد بقايا الجاهلية في نفوسهم فلما فتحت لهم الدنيا وذاقوا من نعيمها بعد بوءس وجدب ، فبلغ في أعينهم غاية العجب ، ثم دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله والمجاهدة بأموالهم وأنفسهم تقاعست نفوس بعضهم ،وحال بينها وبين المسارعة لتلبية نداء الله ، وداع الجهاد ،حرصها على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا ومتاعها من اللعب واللهو والزينة ، والتفاخر والتكاثر فحصر اللّه سبحانه أسباب الشح هذه . وقصر الحياة الدنيا قصر إضافي على هذه الأمور التي حالت بينهم وبين المسارعة بانفاق أموالهم في سبيل الله ،فهي أصول تنضوى تحتها كل متعة أو متاع .(١)

---

(١) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، محمد جابر الفياض ص ٣٢٨ .

٧ - ومن أسرار التنوع أن التمثيل في سورة الحديد آثر التعبير بلفظة (كفار) والمراد بهم الزراع ، لأنهم أهل البصر بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقا ،فهو إيماء إلى بلوغ هذا النبات كمال الحسن ومنتهاه.

بينما عبر عنه في سورة يونس بقوله سبحانه :

* وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا *

لأن الحياة الدنيا لما كانت ممثلة هناك بالعروس ،كان لفظ أهلها مما يقتضيه النظم القرآني البديع لما في ذلك من الإيماء إلى أنهم أهل البصر بها ومعرفة وجوه طلبها والذين انقطعوا لها وجعلوها كل همهم وغاية أمرهم.

٨ - ومن أسرار التنوع أيضا إضافة النبات الى الغيث في سورة الحديد بينما أضيف الى الأرض في سورة يونس والكهف ، لأن المقصود من إضافته للغيث التنويه برونقه وقوته وجماله الذى لعب بالقلوب ، واختلب النفوس فألهاها عن طاعة الله وعن المسارعة لإعزاز دين الله ، ولا زال حسنه يتكاثف ويقوى ويشتد حتى باتت لا ترى كحسنة وبهائه.

كما أن وراء إضافة النبات للغيث - والله أعلم - ايماء بأن هذه النعم التي يفاخرون ويكاثرون بها إنما هي من رحمة الله وفضله الذى أغاثهم بها ثم هم يجحدونها ويمنعوها أداء شكرها .

بينما أضيف النبات الى الأرض في سورة يونس والكهف لأن المقصود (والله أعلم) الإشارة إلى ضعف نشأته التي توحي بها طراوة هذا النبات ورخاوته ، والإنسان في بدء خلقه ، كنبات الأرض ثم يشتد ساعده ويقوى فينسى ضعف نشأته ويغفل عن هدى ربه ، فيقسو قلبه ، فيطغى ويبغى ، ويفتخر ويتعالى ويفاخر ويكاثر .

٩ - ومن أسرار التنوع أن يقتضي النظم القرآني البديع ، وسياق الايات التعبير عن بلوغ النبات أقصى ما يتأتى له من النمو والنضارة والبهجة بقوله (ثم يهيج) لأنه اللفظ الذى يفي بالمعنى الذى سيق له ، ألا وهو اللعب

واللهو والتفاخر والتكاثر وما وراء ذلك من الهيجان والجلبة ،ففي لفظ (يهيج) إضطراب وثوران يتلاءم مع شدة الانفعال والعجب التي تصاحب حالة اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر فتبلغ أشدها وما عليه واقع الناس اليوم من شدة افتتانهم بهذه الأمور يؤكد هذا المعنى .

بينما فصل هذا المعنى في سورة يونس بقوله :

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ

لأن سياق الآيات هنا مبني على التحليل للحياة الدنيا وتفصيلها وهو الذى يتناسب مع أهلها الذين رضوا بها وأنسوا واطمأنوا إليها ،والذين هم عن آيات الله غافلون .

بينما طوت سورة الكهف كثيرا من هذه المعاني ، لأن السياق ليس سياق تحليل للحياة الدنيا ورسم خطواتها التي أوغل القوم فيها فابعدوا .

وإنما هو تصوير للإقبال ثم الإعراض وهو الأشبه بحال الصاحب الذى أحيط بثمره بينما كانت له جنة لا يظن أن تبيد أبدا .

١٠ - ومن أسرار التنوع أيضا ملاءمة العناصر التي بني عليها التشبيه للسياق الذى ورد فيه ففي سورة يونس نجد أن البحر والريح الطيبة والموج والماء والنبات كل هذا من واد واحد .

وفي سورة الكهف نجد الجنة التي أمست خاوية على عروشها والماء والنبات والهشيم الذى تذروه الرياح أيضا من واد واحد في التلاؤم والتناسق والاحكام.

وفي سورة الحديد تلمح هذا التناسق بين اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر وما يحدثه من هيجان وثوران / وبين حالة العجب بنبات الغيث وحركة هذا النبات عندما يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما .

وهكذا نجد أن تنوع التشبيه في القرآن الكريم يفسح مجالا لدراسة دقيقة تبحث الأسباب والأسرار التي من أجلها كان هذا التنوع ، وهي فروق لا تظهر ولا تتجلى إلا بمقدار ما تعطيها من المتابعة والمدارسة والتحليل وجمع النفس ، وتفريغ الخاطر ، والنظر بسكون طائر ، وخفض جناح .

وكلما اقتربنا أكثر وجدنا أسرارا أجمل وخواطر أعظم وكان الرماني يقصد إلى هذا اللون من البحث حين ساق آية يونس ، وآية الحديد في قرن واحد ، وعلق على آية يونس بقوله :

(وقد اجتمعتا في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقيرٌ وإن طالت مدته ، وصغيرٌ وإن كبر قدره . (١)

---

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٣ .

وقال في تعليقه على آية الحديد " وقد اجتمعتا في شدة الإعجاب ،ثم في التغير بالانقلاب ،وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها"(١) وهو بذلك يلفت الإنتباه إلى أسرار التنوع بطريق غير مباشر.

---

(١) المصدر السابق ص٨٣.

الفصل الثانى :
التشبيهات التى تمثل الإنفاق وأسرار تنوعها .

ويتضمن :

١ - الإنفاق في سبيل الله .

٢ - الإنفاق المشوب بالمن والأذى أو الرياء أو الكفر .

المدخل :

ورد ذكر الإنفاق في القرآن الكريم في مواضع عديدة وعلى صور بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق التشبيه والتمثيل وبعضها الآخر عن غير طريق التشبيه حث فيها سبحانه النفوس على البذل والإنفاق بألطف أنواع الخطاب فقال تعالى :

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١)

ووعدهم بأنه سيخلفه وأنه يوفى إليهم غير منقوص :

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (٢)

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٣)

وأنه فوق ذلك سيتجر لهم بما أنفقوا وينميه ويثمره لهم حتى يصبح أضعافا مضاعفة :

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (٤)

---

(١) آية ١١ من سورة الحديد .

(٢) آية ٣٩ من سورة سبأ .

(٣) آية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٤) آية ٢٤٥ من سورة البقرة .

وان لهم فوق ذلك أجرا عظيما وعطاء كريما والأمن يوم الوعيد

، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

ثم بين لهم سبحانه صفات قبول هذه النفقة الطيبة التي لها

هذا الفضل وهذه المزية .

فاشترط أن تكون من أطيب المال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (١)

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٢)

وأن تكون خالصة لوجه الله :

وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ (٣)

وأن لا يمن بها ولا يؤذى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى (٤)

وأن أعلى مراتب الإنفاق ،الإنفاق على كل الوجوه سراً وعلانيةً

حتى تصبح هذه الصفة خصلة قائمة في نفوسهم وجبلة تنطبع عليها

قلوبهم فلا يبالون أن ينفقوا على أية حال :

----

(١) البقرة / ٢٦٧ .

(٢) آل عمران / ٩٢ .

(٣) البقرة / ٢٧٢ .

(٤) البقرة / ٢٦٢

(١)
﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾

ثم مثّل سبحانه لهذه المعاني كلها في صور تمثيلية رائعة المعنى بديعة النظم خصبة التشبيه تنفذ إلى القلب من نوافذ شتى ترى فيها تلك الأضعاف المضاعفة ماثلة في :

﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾

أو ترى فيها تلك النفس الزكية المطمئنة ونفقتها بخيرها الخصيب :

كمثل ﴿جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾

كما ترى مقابل ذلك تمثيلاً لمن شابت نفقته شائبة المن والأذى أو الرياء / أو الكفر فتراه كصفوان عليه تراب :

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾

أو ترى أعماله جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾

---

(١) آل عمران / ١٣٤.

أو تراها كحرث أصابته ريح فيها صر فأهلكته .

وسأجتهد بإذن الله وتوفيقه في بيان أسرار التنوع وراء التمثيل للإنفاق بالحبة التي أنبتت سبع سنابل ، وبالجنة ذات الربوة كما أبين أسرار التنوع وراء تشبيه المانّ المؤذى بالمرائي وبالصفوان الذى عليه تراب وبالجنة التي احترقت فزالت ، وبالحرث الذى أصابته ريح فيها صر فأهلكته .

وقد راعيت أثناء تحليلي لهذه الآيات أن تكون كما هي في سياقها الذى وردت فيه ولم أفصل آيات الإنفاق في سبيل الله عن الإنفاق رئاء الناس لأنّ كليهما يربطهما سياق واحد وأنها بهذا التضاد تتضح معانيها وتتجلى بلاغتها وحسبه أنه رابط من أقوى روابط الكلام وصلته ببعضه .

١ - الانفاق في سبيل الله .

قال تعالى : مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ
سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

(سورة البقرة) .

وقال تعالى : وَمَثَلُ الَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ
جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ (سورة البقرة) .

٢ - الإنفاق المشوب بالرياء أو المن والأذى أو الكفر .

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي
يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(سورة البقرة) .

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(سورة البقرة) .

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ (سورة آل عمران) .

من أسرار المناسبة :

للآيات في القرآن الكريم سياق قريب يرتبط به وسياق عام لا تنفصل عنه ولذلك تتعدد وجوه النظر في أسرار المناسبة ولطائفها فالآية القرآنية أشبه بفرع في دوحة ؛ وكلما عظمت هذه الدوحة وطالت دقت أسرار المناسبة ولطفت وبعدت وامتدت فإذا أردنا الوقوف على بعض تلك الأسرار في السياق العام لهذه الآيات نجدها تمتد إلى بداية السورة ، كقوله عز وجل :

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١)

إجمال لصفة من صفات المتقين ثم يأتي التفصيل بعد ذلك في ثنايا السورة ، حيث يأمر اللّه عَزَّوَجَلَّ بالإنفاق ويصفه بأنه بمثابة القرض للّه ويرغب في ذلك ، ويعد بمضاعفته أضعافا كثيرة ، ثم يضرب الأمثال ويقص القصص لمن بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيله ، ثم يذكر البعث وإحياء الموتى وانتهاءهم إلى الدار التي يوفون فيها أجورهم يوم لا تنفع فِدْيَة ولا خلّة ولا شفاعة وإنّما تنفعهم أعمالهم التي أهمها الإنفاق في سبيله ، ثم يضرب المثل

---

(١) الآية ٣ من سورة البقرة.

للمضاعفة بعد أن يقرر أمر البعث ، بالدلائل والأمثال إذ كان الإيمان أقوى البواعث على بذل المال .(١)

يقول الطبري : " وهذه الآية مردودة الى قوله تعالى :

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ :

والآيات التي بعدها قيل اعتراض من اللّه تعالى ذِكْرُه بما اعترض به ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذى يقرض اللّه قرضا حسنا وما عنده له من الثواب على قرضه ".(٢)

واذا ما اقتربنا أكثر نجد أسرارا أدق ولطائف أرق ،وذلك أن الكلام الشريف بدأ الفقرة التي تسبق هذا المثل بالأمر بالانفاق ، ثم بآية من أكرم آياته وأعظمها وكل آيات ربنا عظيم ،لأنها اشتملت على توحيده وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى بما لم يجتمع في آية أخرى ،وهي آية الكرسي ،وبذلك تقوم الحجة على كل إنسان بهذا الدين ، ثم يتبعه نهيا عن الإكراه في الدين لأن الحجة قامت عليه ، ثم يقيم الأدلة عن اليوم الآخر ،ثمَّ يعودُ للحديث عن الإنفاق فيكون

---

(١) انظر تفسير المنار لرشيد رضا ٣/ ٥٩ - ٦٠.
(٢) جامع البيان ٣/ ٤١.

الحديث عنه برهانا ودليل صدق على الإيمان بالله الذى تجلت صفته في أعظم آية . والإيمان باليوم الآخر الذى أقيمت له الأدلة لأنّ المال شقيق الروح لا يبذل ولا يهان ما لم يعمر القلب الإيمان واليقين .

ثم تأمل هذا الذى :

﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (١)

وكيف حفظ الله له طعامه ، وشرابه لم يتسنه بينما فنيت راحلته ثم بعثت ، وما وراء ذلك من إثبات القدرة لله على كل شيء فالقادر على حفظ قوت الإنسان الذى هو مظنة التلف والفساد قادر على حفظ جزاء الأعمال التي هي الزاد ليوم المعاد .

وهكذا يقر المرء من بقدرة ربه إيمانا ويقينا :

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

ثم تأتي مرحلة أعلى وأعظم مرحلة الاطمئنان القلبي برؤية الحياة ، تبعث بعد موت في هذه الأطيار الممزقة بين يدى رجل مؤمن قد بلغ من إيمانه علم اليقين ولكنه الشوق العالي الذى يحرك قلبه ، فلا يهدأ

---

(١) البقرة / ٢٥٩ .

(٢) البقرة / ٢٥٩ .

ولا يطمئن حتى يأنس برؤية صنع الله وقدرته تمثل بين يديه فإذا هو عين اليقين .

ويا لهذه النفس المؤمنة العالية كيف تتشوق إلى هذا الأنس والاطمئنان من الرحمن الرحيم. ويا لله لهذا الود والرحمة الربانية تغمر قلب عبده الأواه الحليم.

فإذا كان إبراهيم طلب من ربه ذلك وهو من هو إيمانا ويقينا، فما أحرى هذه النفوس المؤمنة التي نوديت بصفة الإيمان وحرضت على الإنفاق في سبيل الرحمن أن تطمئن وتأنس بمعاينة ورؤية ما أنفقته يبعث ويمثل بين يديها أضعافاً مضاعفة ليكون ذلك تحريضاً لها وتأليفا لقلبها، ما دمنا في/الحديث عن البعث سياق فهذه الشمس تأتي من المشرق فتولد معها الحياة والدفء، وتلك القرية الخاوية على عروشها تعود إليها نضارتها وخصوبتها بعد يبس وجفاف، وهذه العظام تنشز ثم تكسى لحما بعد رفات ورميم، وتلكم الطيور ترفرف في السماء، وقد جمعت عليها أشلاؤها بعد فناء، وهذه الحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء، كل هذه المظاهر يظهر فيها روح الحياة والخصوبة والتوالد والتكاثر .

ثم تذوق بديع هذا التناسق بين العناصر التي مثلت كيف تبعث الحياة من عالم الفلك إلى عالم الحيوان إلى عالم الطير/ثم إلى عالم النبات .

ومع ذلك فان السياق القرآني لا يضيق عن معان وأسرار أخر فكلها حلقات في سلسلة سياق متسق ، فقد ذكر أهل العلم أنه لما ذكر عز وجل فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال.(١)

كما قالوا " انه لما ذكر المبدأ والمعاد ودلائل صحتها أتبع ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف فبدأ بإنفاق الأموال في سبيل الله ".(٢)

وفي ذلك إرساء لقواعد النظام الاقتصادى والاجتماعي الذى يقوم عليه المجتمع المسلم الجديد وهذا النظام يقضي على النظام الربوى الذى كان سائدا في الجاهلية ويزرع السخاء والعطاء والإنفاق في سبيل الله الذى له ميراث السموات والأرض بدل الربا الذى صار حربا لله ولرسوله وهذا هو الفرق بين التوجه الإنساني الرحيم في الاقتصاد الإسلامي والتوجه الأناني البغيض في النظام الربوى .

والمتأمل لأمثال القرآن الكريم في سورة البقرة يجد أن التمثيل للإنفاق في هذه السورة له من العناية والاهتمام ما ليس لغيره وذلك لشرف النفقة وفضلها ومكانتها .

----

(١) تفسير الفخر الرازى ٧/٥٨ .

(٢) البحر المحيط ٢/٣٠٣ .

فقد ورد في سورة البقرة تمثيل للمنافقين في مثلين بديعين وهما

قوله تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (١)

كما ورد فيها تمثيل لقسوة قلوب اليهود قوم موسى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ (٢)

وجاء فيها تمثيل للذين كفروا :

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ (٣)

والمتأمل لهذه العناصر التي بنيت فيها صور التشبيه يجدها من واد واحد ويرى بينها من التناسب والأحكام ما يحمل النفس على الاخبات لربها مصرّف الأمثال، فالمستوقد ناراً يستضيء بها وأصحاب الصيب الذين يتعثرون في خطاهم بين ظلمات ورعد وبرق ،

وأولئك القاسية قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة وسط طبيعة تتفجر أحجارها ينابيع ثرة وتهبط من خشية اللّه، وذلك الناعق على غنمه

----

(١) آية /١٨-١٩ من سورة البقرة .

(٢) آية/ ٧٤ من سورة البقرة .

(٣) آية / ١٧١ من سورة البقرة .

وهم في غفلة عنه، وتلك الحبة التي أنبتت سبع سنابل، والجنة بربوة التي أصابها الوابل، والصفوان الذى عليه تراب، والحبة التي احترقت فزالت، كلها صور متناسقة وهيئات للمعاني متناسبة تدل على طبيعة واحدة تجلت على مرآتها قدرة رب واحد وبارىء واحد ..

ولكن ثمة فرق دقيق بين تلك الصور وبين الإنفاق في سبيل الله إذا أردت أن تقف عليه فتأمل ما توحي به تلك الصور من معاني الحيرة والشك والضلالة والقسوة والغفلة وعدم الانتفاع والفناء والهلاك بينما يمثل الإنفاق في سبيل الله معاني الخير والخصوبة والبركة المضاعفة والحياة النامية الزاكية الباقية عند الله.

من أسرار اللغة والنظم :

يقول ابن القيم : " شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء أكان المراد بها الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرا فأنبتت سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها" (١)

وهذا من التشبيه التمثيلي الذى يمثل المعقول في صورة المحسوس : " ولا بد فيه من حذف مضاف : أى مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة". (٢)

وأيا كان المحذوف ففي الآية إيجاز بالحذف في المفرد وهو كثير في كلام الله تعالى .

وفي البدء بالذين آمنوا إشارة إلى أن رأس الأمر في هذه المضاعفة هو الإيمان ومقدار عمقه في القلب يعظم الأجر عليه .

وهو ما يومئ إليه بالسنابل السبع والمضاعفة المطلقة لمن يشاء .

وهذا المثل مدني مضروب للمؤمنين لذلك بدأ بذكرهم ووجه الحديث إليهم، فهم موضع العناية والاهتمام لذلك أرجح أن يكون

---

(١) ابن القيم ، كتاب إعلام الموقعين ص ١٨٣.
(٢) الكشاف ١/١٩٣.

المحذوف مقدراً في المشبه به لأنّ ذكر الحبة لا يُغني عن ذكر باذرها لأنّ المراد/ما تعود به هذه المضاعفة من خير خصيب على نفس زارعها. (١)

والمشبه: حال إعطاء النفقة

ومصادفتها موقعها وما أعطى من الثواب لهم والمشبه به: هذه الحبة التي هذه صفتها :

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾

وأما وجه الشبه فله / جوانب كثيرة قد تتسع وتمتد وتظهر أثناء التحليل والدراسة والتأمل ولكنها على وجه الإجمال تتلخص في " أن كليهما دفع ما يعز عليه وما حبه من فطرة النفوس دفعه عاجلاً من أجل نفع آجل وخير فعاد عليه نفعه وأجره أضعافا مضاعفة ". (٢)

فهي الهيئة الحاصلة من النمو والزيادة في شيء بعد قلته وضآلته .

ثم تأمل ما وراء التعبير بهذه الصلة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾

---

(١) انظر الأمثال في القرآن د/ محمد جابر الفياض ص ٣٥٦ ،

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٩٤٠٤

والمؤذنة بأن المراد حال إنفاقهم خصوصا هذه الحال التي تكاد تكون عزيزة ونادرة إذ هي مما تتميز به النفوس الكريمة :

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١)

ثم تأمل كيف يستنهضون أنفسهم من الإخلاد إلى حب المال فيهلكونه سخيا في سبيل الله بهذا الفعل " ينفقون " والذى يوحي بتجدد ذلك الوابل المغدق بالعطاء واستمراره، هذا بعض ما تشي به هذه الصلة بموصولها عن هذه النفقة بمنفقها من دقائق فتعظم قدرهم وتغيض بسخاوة نفوسهم وإيثارهم الباقي الخالد على الفاني البائد .

ثم إذا ما عدت إلى هذه الصلة ، وجدت أن التعبير بها جاء على هذه الصورة الجماعية : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ والتي تتجاوب فيها القلوب المؤمنة تتنافس على البذل والعطاء ، وتتسابق إلى الأجرة والجزاء لا تبتغي تميزا ولا شهرة ، بل حيث كان الخير سارعت إليه وزاحمت عليه ، ثم استحضر في نفسك صورة عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - حين جاء بأربعة آلاف مقرضاً ربه يسابقه عثمان رضي الله عنه وهو يجهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها .

---

(١) الاية ٩ من سورة الحشر .

ووازن هذا التنافس والتعاون والإخاء بصورة ذلك المنافق

في قوله تعالى :

(١)
﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ .

فهو ينفق وحده ويرائي وحده ، وكأنه لا يرى إلا نفسه ولا يسعى إلا لما

فيه استعلاؤها وتميزها وشهرتها .

وفي إضافة الأموال إليهم في قوله تعالى :

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾

رغم كونهم مستخلفين فيها ما يشير إلى طيب نفوسهم عند بذلها لأنها

أموالهم التي منحوها من وكد نفوسهم وصبابة قلوبهم فهم لا يبذلونها

إلا فيما فيه بركتها وبقاؤها ولأن المال بعد النفقة صار مالهم المدخر

لهم عند ربهم فالسياق سياق تكريم لهم وتشريف لأنهم امتثلوا وأنفقوا

كما أن فيه إشارة إلى طيب الأموال لأنها من هذه المعادن الكريمة

الطيبة . وازن هذا بأولئك الذين يتخيرون الخبيث الردئ لينفقونه .

ثم تأمل كيف قيد الإنفاق بقوله : * في سبيل الله * .

إشارة إلى الاخلاص في العمل ، ووقوع النفقة موقعها حيث

وقعت في سبيل الله الذى له الكمال كله . وهذه الجملة هي مناط الفائدة

---

(١) البقرة / ٢٦٦ .

فليس المهم أنهم ينفقون أموالهم لأن من الخلق من ينفق الكثير من ماله وإنما المهم أنهم ينفقونها في سبيل الله .

ولما اجتمع لهذه النفقة طيبها، وطيب منفقها ، وطيب موقعها كانت بركتها وما أعطى من الثواب لهم :

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾

وهكذا يقع التمثيل في القرآن موقعه الأمكن حيث ينقلهم عَزَّوَجَلَّ إلى عالم الغيب فإذا هو مرئي ومشاهد، وإذا أموالهم التي فنيت وهلكت ماثلة أمام أعينهم وبين أيديهم أضعافا مضاعفة ، وبهذه الصورة الحية الخصبة يستجيش القرآن المشاعر ويملك القلوب ويحض ويرغب إذ يريهم ما يغلب على الظن أنه مغرم بأنه مغنم وما يرونه نقصا بأنه زيادة وأي زيادة.

يقول ابن القيم : " والباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوعت له نفسه وسهل عليه إخراجه.

فإن علم أن المستقرض ملئ وفيٌّ محسن كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه ، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فان علم أنه في ذلك يزيده من فضله وعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم ،فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل

والشح أوعدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه ". (١)

ووراء تنكير (حبة) ما وراءها من كونها حبة فريدة مميزة في صفتها وبركتها وطيبها، والحب ما يزرع للاقتيات ففيه إقامة أود الإنسان كما أن النفقة عمود من أعمدة الدين، وبها يقام ركن من أركان الإيمان وهي الزاد ليوم المعاد .

وفي كلمة (أَنْبَتَتْ) : أي بما جعل اللّه لها من قوة الإنبات بطيب أرضها واعتدال رِيِّها فهي أبرك بذر وقعت في أخصب أرض فنمت أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة إلى سبعمائة ضعف أي منتهى الخصب والنماء أو تمامه وكماله . (٢)

والمنبت الحقيقي هو اللّه وفي إسناد الإنبات لها تأكيد لقوة السببيّة. (٣)

و (السُّنْبُلَةْ) : فُنْعُلَة من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل أي استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالإسبال، وقيل معناه: صار فيه

---

(١) تفسير ابن القيم ، ١/ ١٤٩.

(٢) تفسير المنار ٣/ ٦٠ .

(٣) انظر الكشاف ١/ ٣٩٣.

حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه ". (١)

و (أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ) أى تشعب منها سبع شعب في كل شعبة سنبلة وهو من السنبل ، وهو مجتمع الحب في أكمامه كأنه آية استحقاق اجتماع أهل ذلك الرزق في تعاونهم في أمرهم وتعريف بأن الحب بجمعه لا بوحدته ". (٢)

وإذا ما استقصيت التأمل وراجعت هذا المعنى الذى ذكره الامام البقاعي رأيت فيه أن هؤلاء الذين ألف بين قلوبهم الإيمان وجمعتهم النفقة في سبيل الرحمن ، لما تشابهت قلوبهم وأعمالهم ونفقاتهم وخلصت لله جاء التعبير عنهم في صورة تجلت على مرآتها قلوبهم المجتمعة على محبته وطاعته فكأن الحب في أكمامه صورة لتلك القلوب المتحابة والمتضامنة والتي صارت تمثل كياناً واحداً وتغذى بماءٍ واحد وتعيش حياة واحدة ، وهذا لب ما يهدف إليه التشريع الحكيم من الأمر بالإنفاق المؤدي إلى ضربٍ من التكافل والتعاون ، والتضام والتحاب .

---

(١) تفسير القرطبي ٣/ ٣٠٤ .
(٢) نظم الدرر ٤/ ٧٥ .

وفي ذكر (السَّبع) لما يوحي به من التمام وما يقبله من التكثير لأن العرب تكثر به ما هو أقل منه أو أكثر"(١) ولأن عدد السبعة ومضاعفاتها حظيت في القرآن الكريم بعناية خاصة وأنها استخدمت للدلالة على الكثرة الكاثرة والتعبير عن أقصى ما تستشعره النفوس من الأضعاف المضاعفة.(٢)

فتأمل كيف جعل سبحانه أدنى النفقة في سبيله سبعمائة ضعف ثم فتح باب التضعيف إلى ما لا يصل إلى عد أو حد . وهذا الذى ذكره سبحانه من التمثيل للإنفاق في سبيله إنما هو لأول الإنفاق.(٣)

وجملة التذييل هذه ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ : إعلام من الله سبحانه وتعالى بأنه " يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها ".(٤)

فالله الذى له الكمال في كل صفة ، والله بما له من السعة يضاعف ولم يقل (يزيد) إذ المضاعفة أن يضم إليه مثله فصاعدا ، وذلك منتهى

---

(١) انظر نظم الدرر ٤/ ٧٥.
(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، د/ محمد جابر الفياض ص : ٣٦٨ - ٣٦٩.
(٣) انظر نظم الدرر ٤/ ٧٥.
(٤) أعلام الموقعين ١/ ١٨٤.

العطاء والفضل والسعة ، ولأنه (عليمٌ) بنية المنفق وسائر أحواله ، فهو يضاعف لمن يشا بحسب علمه ، فسبحان من لا يحصر فضله ولا يحد عطاؤه ، وهكذا تتناسب الفاصلة (عليم) مع السياق السابق . وبهذا التذييل البديع يتم المعنى ليستأنف بعد ذلك معنى آخر مرتبط بما قبله من حيث أنه بيان لكيفية الإنفاق الذى بين فضله ،أى الانفاق الذى ينمو ويربو ويتضاعف إلى ما شاء الله ،ومن جهة المشبه به فهو بيان للحارث كيف يحرث حرثه ويحفظه مما يستأصله أو يفسده فيتعاهده بالسقي ونفي الآفات المهلكة عنه .

ويقابله في المشبه ألا يتبع المنفق إنفاقه بما يبطله من المن والأذى أى يذهب ثوابه بقوله تعالى :

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

نص على هذه الصلة بموصولها فقال :

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ في الآية السابقة

وأعادها هنا مرة ثانية وأظهرها حفاوة بها واهتماما لأنها رأس المعنى وأصله ، ثم عطف عليها قوله :

ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى

فهذه الجملة معطوفة على حيز الصلة وهي قوله :

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

فهو الإنفاق النائي عن المن والأذى .

والمن : أن يَعْتَدّ على من أحسن إليه باحسانه ويريه أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا .(١)

وكانوا يقولون إذا صنعتم صنيعة فانسوها ،وفي نوابغ الكلم: " طَعْمُ الآلاء أحلى من المنِ وهو أمرُ من الآلاء مع المن "(٢) وفي هذا من مرارة المن وشدة وطأته على النفوس الكريمة ما فيه .

والأذى : أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه فيتعالى . ويتفاخر أو يذكره لغيره،فالأذى أشمل وأعم ، فهو من قبيل عطف العام على الخاص ،وإنما قدم المن لكثرة وقوعه ".(٣)

ثم تأمل ما وراء لفظ (ثم) من دقائق .

و" ثم " في الأصل لتباعد الأزمنة وتراخيها ،فقالوا إنهـــا استعيرت من معناها الأصلى لتدل على التفاوت بين الإنفاق وتـــرك

----

(١) الكشاف ٣٩٣/١.
(٢) الآلاء الأولى : النعم ، الآلاء الثانية : شجر مر الورق .
المن الأول : يشبه العسل ، المن الثاني : تذكير المنعم عليه بالنعمة.
(٣) انظر أبو السعود ٢٥٨/١.

المن والأذى في الرتبة والبعد بينهما في الدرجة .(١)

يقول الزمخشري : " و معنى (ثم) إظهار التفاوت بين الإنفاق و ترك المن والأذى وأن تركهما خير من نفس الإنفاق ".(٢)

وفي الشريعة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ومنهم من أبقى (ثم) على معناها الأصلي و هي الإشعار ببعد الزمن فأفادت دوام وجود الفعل و تراخي زمن بقائه أى أنهم "يد ومون على تناسي الإحسان و ترك الاعتداد والامتنان ليسوا بتاركيه ".(٣)

وهكذا تخلص العبودية لله عندما تخلص هذه القلوب وتطهــــر من حب الدنيا و تستعلي بإيمانها و نفقتها عن الرغبة في نيل الجــــزاء من الناس ، والذى هو المحرض الأول للمن والأذى .

ولما كانت الحكمة من الإنفاق تطهير النفس وتزكيتها من البخــــل والشح ،كان لا بد من مجاهدة النفس في ذلك ، فجاء التعبير القرآني :

ثـــم لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى

و ترتيبها على دوام الإنفاق واستمرار العطاء مع تناسي الإحسان وترك الامتنان ،

---

(١) انظر روح المعاني ٣/ ٣٣ .

(٢) الكشاف ١/ ٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

لأن المال مال الله وهم مستخلفون فيه ، وما جرى على أيديهم من فضل فلله الفضل والمنة جميعا ، وبذلك تؤتي النفقة ثمارها حين تسمو بنفس صاحبها ، فتنمو وتقوى روابط المحبة والتكافل والتعاون وتزكو النفوس بالمشاعر ، ويطهر المجتمع من الفقر والحرمان والشر والطغيان وهكذا ينأى المسلم بنفسه عن أن يكون عبدا للمال أو عبدا لإحسانه أومستعبداً لأخيه الإنسان .

ثم تأمل ما وراء تعريف (الصدقة) وتنكير (المن والأذى) في قوله تعالى :

ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى وما يوحي به من أن المراد منا ، أي من ، ولا أذى ، أي أذى ، أي أنه للتقليل وإذا نهوا عن القليل من المن والأذى فهم عن الكثير أشدُّ نهياً .

والنفس المؤمنة تعرف المعروف وتنكر المنكر مهما عظم وطغى أو قل وخفي ، قال تعالى :

لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

" لما كان الإنسان قد يزرع ما يكون لغيره بين أن هذا لهم " (١)

---

(١) نظم الدرر ٤/ ٧٦ .

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفي تكرير الإسناد وتقييد الأمر بقوله تعالى (لهم)(عند ربهم) من التأكيد وتشريف ما لا يخفى .(١)

ثم تذوق كيف أثرى هذا القيد (عند ربهم) المعنى وضاعفه إلى حد يفوق الوصف وأشار إلى التربية ومزيد الفضل والعناية بها . فهو ربهم المحسن إليهم بتربيتهم القائم على ما يقبل من النفقات بالحفظ والتنمية حتى تصير في المعظم إلى ما لا حد له أو عد .(٢)

فلله هذا الفضل العظيم والخير الخصيب وهو ينمو ويربو عند المربي الكريم الذى يأخذ الصدقة بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله .

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

« أى لا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه من المكاره ولا هم يحزنون لفوت مطلوب من المطالب قل أو جل أى لا يعتريهم مايوجبه .»(٣)

وفي تنكير (خوف) ما يوحي بأنه لا يعتريهم أدنى خوف .

---

(١) روح المعاني ٣/ ٣٣ وانظر (أبو السعود) ١/ ٢٥٨.
(٢) نظم الدرر ٤/ ٧٧.
(٣) أبو السعود ١/ ٢٥٨.

ثم تأمل كيف يجازيهم ربهم من جنس عملهم جزاء نفسيا معنويا بالإضافة إلى الجزاء الحسي الذى يرونه ،فمن كان ديدنه وشأنه تفريج الكروب ببذل ماله وتطييب النفوس ، وتنديتها بطيب نفسه وقوله وسموه عما يقطع صلته ويورث الآلام النفسية ،ويجرح المشاعر والكرامات الإنسانية من المن والأذى ،كان جزاؤه أن ينفي عنه ما نفاه عن أخيه فلا يكربه ولا يحزنه هم ولا غم فدوام انتفائهما " أى الخوف والحزن " جزاء يجانس عمله مع انتفاء ما يشوبه ويكدره ويقطعه فلله هذه الطمأنينة التي لا تشوبها شائبة من خوف .

وهذا الأمن الذى لا يعتريه شيء من كرب يوم القيامة . يوم يود ﴿الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ (١)

---

(١) الرعد / ٢١ .

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره كالدعاء والتأنيس والترجيه بما عند الله يرد به السائل من غير إعطاء شيء.(١)

وفي تنكير (قول) : ما يشير إلى أن قليله خير.

(ومغفرة) : أى ستر للخلة وسوء حالة المحتاج وتجاوز لما وقع منه من الإلحاف في المسألة وصفح عنه.(٢)

خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى

" لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الأولين من الضرر ".(٣)

وهكذا تؤكد هذه الجملة المستأنفة النهي عن المن والأذى وتقرر الحكمة من الإنفاق وهو تهذيب النفوس وترضية القلوب وربطها برباط المحبة في الله.

فإذا لم تحقق الصدقة هذا المعنى ،بل شابته شائبة المن والأذى

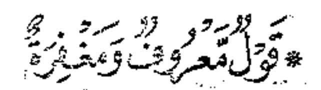
---

(١) انظر البحر المحيط ٢/٣٠٧ ،وأبو السعود ١/٢٥٨ ، والطبرى ٣/٤٣ المحرر الوجيز ٢/٣.

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) أبو السعود ١/٢٥٨.

فان هناك ما يقابلها من الصدقة المعنوية صدقة البيان :



كلمة طيبة تغدق على قلب السائل من فيوضا تهـــــــــا خير عند الله من صدقة مهما عظمت يتبعها أذى فيها كشف لحاجته ، وإذلال لكرامته ومن ثم تصدع لبنيان المجتمع كله .

فكأن قوة المؤمنين وركتهم في تحابيهم وتعاونهم وإيثارهم ، وإلا فإن اللّه غني حليم ، غني " لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى ". (١)

غني عن صدقات العباد ، وإنما أمرهم بها ليثيبهم وهو غني عن الصدقة التي يتبعها من وأذى لأنه لا يقبل إلا طيباً .(٢)

(حليم) لا يعاجل بالعقوبة على المن والأذى وفي ذلك من الوعد والوعيد ما فيه .

وفي هذا التذييل البديع ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ندب للمؤمنين أن يتخلقوا بصفات ربهم ويتأدبوا منها بما تطيقه أنفسهم وتتسع له طبيعتهم .(٣)

---

(١) أبو السعود ٢٥٨/١ .

(٢) انظر البحر المحيط ٣٠٨/٢ ، انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣٤٢/١ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ٤٧/ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

الآيـة .

تأمل هذا الالتفات البديع الذى يقبل فيه الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين بالخطاب ،بعد أن بين/ مابين بطريق الغيبة فيما مضى من الآيات ليبالغ ويؤكد النهي عن إتباع النفقة بالمن والأذى .

وفيه تنصيص على أن المن والأذى يمحق النفقة ويبطلها ،لذلك ضرب مثلاً لهما ،وضرب للمثل مثلا مبالغةً في الزجر عن ذلك .(١)

ووراء النداء في القرآن الكريم أسرار تدق وتلطف ،إذ لا يستدعي بهذا النداء : " يا أيها الذين آمنوا " إلا المعاني الهامة الجليلة .

ثم تأمل كيف عظم الله قبح المن والأذى في معارض الكلام بثلاث طرق بيانية تدرجت بالنفس وارتقت بها عن أن يكون من هذا شأنه .

---

(١) انظر تفسير روح المعاني ٣ / ٣٤ ، انظر نظم الدرر ٤/ ٧٩ ، أبو السعود ١/ ٣٥٩ . انظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٨ .

بدأ ذلك بالثناء على تاركه :

لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى

ثم بين أنها مشوبة بضرر ،لذلك فضل عليها :

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ

لأنهما خالصتان من الضرر .

ثم صرح بالنهي عنها لأنها تبطل العمل ، أى تذهب بثوابه وتمحقه (١) فقال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم

" الإبطال جعل الشيء باطلا أى زائلا غير نافع لما أريد منه ." (٢)

أى لا تحبطوا أجرها بواحد منهما .

---

(١) انظر البحر المحيط ٢/٣٠٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/٤٧ .

يقول أبوحيان : " ولما جرى ذكر (المن والأذى) مرتين أعادهما هنا بالألف واللام ".(١)

وفيه إشارة الى أنهما لم يعودا ملتبسين منكرين على أهل الإيمان ووراء قوله عزوجل (صدقاتكم) أى التي كان بها صدق إيمانكم بالغيب لأن الرزق غيب والواثق بذلك الغيب منفق ماله تصديقا بأن الله سيخلفه .

﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذى ينفق ماله (رئاء الناس) لا يريد رضا الله ولا ثواب الآخرة .(٢)

ويجوز أن تكون الكاف في محل النصب على الحال : أى لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذى ينفق ".(٣) والتشبيه هنا تشبيه مسلوب أو منفي .

والمعنى تشبيه الذين يتصدقون بأموالهم ثم يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى بالمنفقين رئاء الناس،ثم مثل لحال الذى ينفق ماله رئاء الناس

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٠٨.
(٢) الكشاف ١/ ٣٩٤.
(٣) المصدر السابق .

والمراد بالمرائي هنا على الوجه الراجح : المنافق والكافر معا . لأنهما شريكان في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وإن أخفاه الأول وأظهره الثاني فالرياء يمكن أن يصدر عنهما وذلك أن المنافق مراء إذا أنفق ماله مدعيا أنه لوجه الله وهو في قرارة نفسه لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، والكافر مراء إذا أنفق ليقال عنه سخي كريم خيّر رحيم فهو يتظاهر بالرحمة والشفقة(١) كما يحدث اليوم مع جماعات التبشير التي تستميل القلوب بمساعدتها للشعوب الفقيرة والمنكوبة وهي لا تؤمن بالله واليوم الآخر.

---

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٣١٤.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

هذا تمثيل لحالة المرائي فيه تفصيل لما أجمله.

يقول أبوحيان : " ضرب اللّه لهذا المنافق أو الكافر الباغي المثل بصفوان عليه تراب يظنه الظانّ أرضاً منبتة فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب فبقي صلدا متكشفا وأخلف ما ظنّه الظان وكذلك هذا المنافق يُرِي الناس أعمالاً كما يُرى التراب على هذا الصفوان فإذا كان يوم القيامة أذهب الوابل ما كان على الصفوان من تراب ". (١)

والصفوان : " صيغة مبالغة من الصفا وهي الحجارة الملس الصلبة التي لا تقبل انصداعها بالنبات ". (٢)

عليه تراب : قال الآلوسي : " أي عليه شيء يسيرمنه " (٣)

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٠٩.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٨٠ وانظر الكشاف ١/ ٣٩٤.

(٣) روح المعاني ٣/ ٣٥.

والذى يظهر لي - والله أعلم - أن عليه تراباً كثيراً لأنْ التراب يمثل أعماله التي راءى بها وكان يرجو منها النفع بالإنبات والأجر وهي أعمال كثيرة فضلا عن أن عناصر الجملة مبنية على المبالغة .

ففي كلمة صفوان : مبالغة في شدة ملاسته ونعومته .

وفي تنكير وابل : مبالغة في شدته وقوته فهو وابل شديد الوقع عظيم القطر .

لذلك كان المناسب أن يكون التراب عظيما وفيرا ولو كان ترابا يسيرا لكفاه اليسير من المطر لإزالته .

وَأَصابَ : تَأْتِي في الخَيرِ والشّرِ والمُرَادُ بها هنا الشّرّ تَلاَؤماً مع المعنى الذى سِيقَتْ له.[1]

فتركه صلدا : أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه ومنه صلد الجبين الأصلع : إذا برق .[2]

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ١/ ٣٩٤ .

ثم تأمل كيف تلاحقت الفاءات (فمثله - فأصابه - فتركه) من غير مهلة لتتعاقب من ورائها المعاني والأحداث الشديدة الوقع، ويا لهذه الطبيعة الغضبى كيف يتحول وابلها الذى هو مظنة النفع والحياة إلى بلاءٍ وفتنة تصيب هذا الصفوان فتجرده مما كان يقيه ويستره عن الناس وما كانوا يتوهمون فيه النفع والنماء والزكاء فتركه صلداً لا حياة فيه نقياً لا شيء يواريه ﴿ لا يقدرون على شيء مما كسبوا ﴾ .

وعبر عن النفقة بالكسب لأنهم قصدوا بها الكسب .(١)

والمعنى : أن المرائي والمان والمؤذى لا يقدرون على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم الذى هو كسبهم عند حاجتهم إليه .(٢)

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

تذييل فيه تعريض بأن كلا من المن والأذى من صفات الكافرين وأحوالهم فليحذر المؤمنون من تسرب ذلك إليهم وليجتنبوه .

---

(١) القرطبي ٣/٣١٣ .
(٢) البحر المحيط ٢/٣١٠ .
(٣) روح المعاني ٣/٣٥ والتحرير والتنوير ٣/٥٠ .

وهكذا ترى السياق القرآني الجليل يعرض مقابل تلك الحبة التي أنبتت سبع سنابل وأخصبت أيما إخصاب .

ووسط تلك الطبيعة المترعة السخية صورة صفوان عليه تراب فإذا هو في الظاهر جزء منها يتناسب شكلاً مع جوها إذ يحسبه الناظر أرضا منبتة ويتوهمه الجاهل تربة صالحة ، فهو معها ظاهراً مخالفا لها باطنا ، فقلبه الصلد لا ينمو بنموها ، ولا يؤثر فيه خيرها ، بل يضره ويكشف عنه سره ، فإذا التراب الذى يحجب حقيقته ينقشع عنه ويتركه صلداً ساعة إقبال الخير ، وعند ترقب العطاء والإنبات فتراه وقد فاض خير الطبيعة السخية الجوادة ، عارٍ عن كل خير ، وتراه وقد شطت الرحمة من حوله وحده ، لا يقدر على شيء فيا لخسارته وضياعه ، ويا لهوانه وذلته وانكساره . .

فكذلك المرائي والمان والمؤذى يوم القيامة ، وعند لقاء الكرامات :

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

وبهذا الأسلوب البياني في المقابلة بين المعاني وأضدادها تتميز صور المعاني ويزداد رسوخها في النفس المؤمنة ، فتنفر أشد النفرة عن مقاربة ذلك فضلا عن الوقوع فيه .

قال تعالى :

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

سورة البقرة آية ٢٦٥ .

يقول ابن القيم : (١)

" وتحت هذا المثل من الفقه، أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبَذْر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره ، باذر ماله في أرض زكية ، فمغلة بحسب بَذْره ، وطيب أرضه ، وتعاهُدِ البذر بالسقي ، ونَفْي الدَّغَل والنبات الغريب عنه ، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تُحرقَ الزرعَ نارٌ ولا لحقته جائحة، جاء أمثالَ الجبالِ ، وكان مثله كمثل جنة بَربْوَةٍ، وهي المكان المرتفع الذى تكون الجنة فيه نُصْب الشمس والرياح، فتتربى الاشجار هناك أتم تربية ، فنَزَلَ عليها من السماء مَطَرٌ عظيم القَطْر متتابع، فروَّاها ونمّاها ، فآتت أكلَها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل ، فإن لم يصبها وابلٌ فطَلٌّ، مطر صغير القَطْر ، يكفيها لكرم منبتها، تزكو على الطل وتنمو عليه ". (١)

تأمل كيف تترابط المعاني، وتتناسب، وتتنامى ، وكيف تزداد صور التمثيل تركيبا، وخصوبة، وثراء تناسبا مع خصوبة المعاني، ووفرتها وغزارتها ، فضلا عن التناسق والتقابل البديع بين أجزاء التمثيل .

---

(١) اعلام الموقعين ١/ ١٨٤ .

ومن هذا التناسب ما أشار اليه أبوحيان حيث يقول :

" لما ضرب مثل من أنفق ماله رئاء الناس وهو غير مؤمن ذكر ضده بتمثيل محسوس للذهن حتى يتصور السامع تفاوت ما بين الضدين وهذا من بديع أساليب فصاحة القرآن ".(١)

ويقول ابن عاشور(٢) وقوله :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾ معطوفة على قوله تعالى :

﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾

لزيادة بيان ما بين المنزلتين من البون الشاسع وتأكيدا للثناء على المنفقين باخلاص ".

والمثل أوالشبه هنا هم المنفقون ، ونفقاتهم على أرجح الأقوال(٣) لأن العمل لا ينفصل عن صاحبه فهو صورة صادقة لهذه النفس وما يعتمل فيها.

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٣١٠ وانظر المحرر الوجيز ٢/ ٣١٦.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣/ ٥٠.

(٣) انظر البحر المحيط ٢/ ٣١٠.

يقول تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾

" البغي : يَقالُ بَغَيْتَ الشَّيْءَ إذا طَلَبْتَ أكْثَر مما يَجِبُ وابْتَغَيْتُ كذلك وهو على ضربين أحدُهما محْمودٌ وهو تجاوزُ العَدْلِ إلى الإِحْسَانِ والفَرْضِ إلى التَّطَوُّعِ .

وأما الابْتِغاءُ فقد خُصَّ بالاِجْتِهادِ في الطَّلَبِ فمتى كان الطَّلَبُ لشَيْءٍ مَحْمُودٍ فالابْتِغاءُ فيه مَحْمُودٌ ".(١)

مرضاة الله :

" المرضاة مفعلة لتكرار الرضى ودوامه ".(٢)

و (ابتغاء) منصوبة على تأويل المصدر في موضع الحـــال أي مبتغين مرضاة الله ومثبتين من أنفسهم ".(٣)

والتثبيت من ثبت : " كلمةٌ واحدةٌ وهي دَوامُ الشيءِ يقال : ثَبَتَ ثباتاً وثُبوتاً ".(٤)

---

(١) الراغب مادة (بغى) .

(٢) نظم الدرر ٤/ ٨٢ .

(٣) انظر المحرر الوجيز ٢/ ٣١٦ والتحرير والتنوير ٣/ ٥١ .

(٤) المقاييس مادة (ثبت) .

ويقول الراغب : وقوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا

أى أَشدَّ لتحْصيلِ عِلْمهم وقيلَ أَثْبَتَ لأَعمالهم واجْتِناءِ ثَمرةِ أفْعَالهم بخِلاَفِ مَنْ قَالَ فيهم :

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (١)

وقد ذكر العلماء في معنى ذلك وجوها منها :

أن قوله (وتثبيتا) معناه (وتيقنا أى أن نفوسهم لها بصائر متأكدة فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتا ". (٢)

يوءيد هذا الوجه أبوحيان حيث يقول :

" إن نفس المؤمن هي التي تثبته وتحمله على الإنفاق في سبيل الله ليس لها محرك إلا هي لما اعتقدته من الإيمان وجزيل الثواب فهي الباعثة له على ذلك والمثبتة له بحسن إيمانها وجليل اعتقادها". (٣)

---

(١) الراغب مادة (ثبت).

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣١٦ .

(٣) البحر المحيط ٢/ ٣١١ وانظر الكشاف ١ / ٣٩٥ .

وهذا الوجه الذى ذكره أبوحيان وغيره يأتي بعد المرحلة التي أشار إليها غيره من المفسرين وهو قولهم :

أن قوله (تَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ) معناه (ليثبتوا منها ببذل المال الذى هو شقيق الروح وبذله أشق على النفس من سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان لأن النفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها وبالعكس فكان إنفاق المال تثبيتاً لها على الإيمان واليقين).(١)

ووراء ذلك كبح هذه النفس عن التشكك والتردد بحيث لا يتركون لها مجالاً لخواطر الشح (فإن في إراضة النفس على فعل ما يشق عليها أثرفي رسوخ الأعمال حتى تعتاد الفضائل وتصبح ديدنها والمقصود الترغيب والتحريض في تحصيل الفعل أى تكرير الإنفاق .(٢) وقد أشار الفخر الرازى الى معنى/ أخلاقي جليل وهو ما تقرر في الحكمة " الخلقية من أن تكرير الأفعال هو سبب حصول الملكة الفاضلة في النفس إذ يقول :

أن من يواظب على الإنفاق مرة بعد أخرى لابتغاء مرضاة الله حصل له من تلك المواظبة هذا الاطمئنان القلبي ولم يحصل لنفسه منازعة مع

---

(١) الكشاف ١/ ٣٩٥.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣ / ٥١.

قلبه كما قال تعالى :

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا

وقوله تعالى :

وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝

ثم إن هذا الابتغاء والطلب يُصْبِحُ ملكةً قائمةً في النفس وتصبح هذه العبادة كالعادة .(١)

فالمشبه هنا إذاً هؤلاء المنفقون الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم أى هؤلاء المجتهدون في الطلب الذين تجاوزوا العدل إلى الإحسان والغرض الذى أمرهم به ربهم إلى التطوع عشقاً وحباً لهذه الطاعة وبلوغاً لهذه المنزلة العالية التي باتت فيها حالهم الدائمة وديدنهم ابتغاء مرضاة الله ويقينا جازماً لا يخالطه شك بثواب الله وفضله الذى لا يحد .

فهي نفس تعالت وتسامت وربت وزكت ورسخت فيها هذه الملكة الفاضلة ملكة حب الإنفاق حتى طبعت عليها فصار لا يصدر عنها إلا كلُ خيرٍ لأنّ معدنها خير، فحالها إذاً وَمَثَلُها مع نفقتها :

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

---

(١) انظر الفخر الرازى ٧ / ٦٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣ / ٥٢ انظر روح المعاني ٣ / ٣٦ .

الجنة : أكثر ما تطلق في كلامهم على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف (والجَنة كلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يسْتُرُ بأشْجارِهِ الأرضَ)[(١)].

الربوة : (سُمّيتِ الرَّبْوة رابِيَة كأنّها رَبَتْ بنفسها في مكانٍ، ومنه رَبا : إذا زادَ وعَلا قال تعالى :

فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ

أي زادَتْ زيادَة المُتَربّي)[(٢)].

ويشير الرازي هنا إلى دقيقة في معنى كلمة (ربوة) يخالف فيها بعض من سبقه ممن ذكروا أن المراد بالربوة المكان المرتفع من الأرض فيقول : (ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه، بل المراد منه كون الأرض طينا حراً، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا فإنَّ الأرضَ متى كانت على هذه الصفة يَكثُر ريعها وتكمل الأشجار فيها)[(٣)].

ثم يحتج لرأيه هذا بدليلين الأول : قوله تعالى :

وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ

والثاني : أن هذا المثل في مقابلة المثل الأول وهو الصفوان الذي لا يؤثر فيه المطر فلا يربو ولا ينمو فالمراد إذاً كون الأرض بحيث تربو وتنمو ثم يقول وهذا ما خطر ببالي والله أعلم بمراده[(٤)].

والذي عليه غيره وهو الأرجح أن الربوة هي المكان المرتفع وخصها بذلك لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً[(٥)].

---

(١) الراغب مادة (جن).

(٢) الراغب مادة (ربو).

(٣) الفخر الرازي ٧ / ٦١.

(٤) المرجع السابق ٧ / ٦١.

(٥) الكشاف ١/ ٣٩٥.

ثم تأمل كيف أن الذى يربوو ينمو في القرآن بالإضافة إلى النفقة هي نفس منفقها فهي تزكو وتنمو بحيث لا يكون لها طلب ولا مطمع إلا ابتغاء مرضاة الله .

وقوله : أصابها : توحي بالخير العميم لأنّ الإصابة في الخير اعتباراً بالصَّوْب أى المَطَر . (١)

" والوابل المطر الشقيل القطار " . (٢)

وفيه إشارة إلى سخاوة نفسه وعظم جوده .

وقوله (آتت) " آتيت فلاناً على أمره مؤاتاةً وهو حُسْن المطاوعة والإيتاء الإعطاء ". (٣)

تأمل هذا المعنى وهذا العطاء السخي وكيف لانت هذه الجنة واستجابت لهذا الوابل السخي فما أسرع ما آتت أكلها وأثمرت خيراتها ونضر نعيمها وأورفت ظلالها .

بينما نجد أن المرائي لم يؤثر فيه خير هذا الوابل فلم يثمر ولم تؤت أعماله أكلها ولم يجن ثمرتها .

وقوله : (ضعفين) - التثنية لمجرد التكرير والتكثير أى آتت أكلها مضاعفا على تفاوتها أى ضعفاً بعد ضعف . (٤)

ويرجح هذا الوجه أبوحيان إذ يقول : (ويحتمل عندى أن يكون قوله (ضعفين) مما لا يزاد به شفع الواحد بل يكون من التشبيه الذى يقصد به التكثير ، وكأنه قيل فآتت أكلها ضعفين ضعفاً بعد ضعف أى أضعافاً كثيرة وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة ، لأنّ الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء تضاعفها أضعافا كثيرة وعشر أمثالها وسبع مائة وأزيد) . (٥)

---

(١) انظر الراغب مادة (صوب) .
(٢) الراغب مادة (وبل) .
(٣) المقاييس مادة (آتى) .
(٤) انظر روح المعاني ٣/٣٠٦ .
(٥) البحر المحيط ٢/٣١٢ .

تأمل جنة أعمالهم كيف فاض خيرها وعطاؤها على نفس صاحبها وعلى كل الناس فإليها المأوى والملجأ من الخوف والفزع والجوع والظمأ والحر والقر فهي ظل ظليل وثمر وفير وستر لصاحبها في الدنيا والآخرة ثم تأمل تكرار التضعيف وتكرار الرضى من الله غاية مابعدها غاية .

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾

والطل الرذاذ من المطر وهو اللين منه .(١) إشارة الى أن أضعف المطر يكفيها لبقاء خصوبتها ،أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها .

والمراد أن خيرها لا يخلف على كل حال لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها ،وحاصل التشبيه أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال ،وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يقارنها من الإخلاص في الابتغاء والتثبيت ،كما تتفاوت أحوال الجنات الزكية في مقدار زكائها ولكنها لا تخيب صاحبها فهي جنة أكلها دائم وظلها .(٢)

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

" البَصَرُ يقالُ للجارحةِ النّاظِرَةِ - والبَصِيرَةُ لقوّةِ القلبِ المُدْرِكةِ ." (٣)

وفي هذا التذييل البديع ما فيه من الوعيد والترهيب للمرائي الذى يقصد بعمله رؤية من لا تغنى رؤيته شيئا ويغفل عن وجه البصير الحقيقي الذى تغني رؤيته وتفقر .(٤)

كما أن فيه من الترغيب للمؤمن المنفق المخلص ما فيه (٥) وحسبه أن يستشعر معية الله ونظر الله إلى قلبه ليكون قلبه كله لله .

وفي هذا من التوكيد والتقرير ما فيه .

---

(١) روح المعاني ٣ / ٣٦ .
(٢) انظر روح المعاني ٣ / ٣٦ وانظر التحرير والتنوير ٣ / ٥٣ .
(٣) المفردات للراغب مادة (بصر) .
(٤) انظر روح المعاني ٣ / ٣٦ - ٣٧ . وانظر أبو السعود ١ / ٢٦٠ .
(٥) انظر المصدر السابق .

وبعد هذه الرحلة الشاقة المجهدة التي تجاوزت فيها النفس المؤمنة الصادقة، تلك العوائق، وبعد أن انطلقت في سيرها بإنفاقها متجهة إلى الله مخلصة في السير إليه آن لها أن تحظى بهذه الرقائق والمنح الربانية.

وذلك منتهى ما تطمح إليه النفس التواقة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

أرأيت كيف ارتقت هذه النفس من طلب المضاعفة في الأجر إلى ابتغاء مرضاة الله، أي من الجزاء الحسي إلى هذا الجزاء والنعيم الروحي والبلوغ بالنفس إلى هذه المنزلة ليس أمرا هينا، لأن النفس قد يعتريها من الشك والتردد والأهواء والمطامع ما يصرفها عن الثبات على هذه الطاعة، لأن الإيمان يزداد وينقص. فتأمل كيف يتدرج القرآن الكريم في تربية النفوس وترويضها على ما يشق عليها حتى تصبح هذه الطاعة سجية من سجاياها.

فيكون حالها كهذه الجنة بربوة لا تخيب صاحبها، ولا يخلف خيرها بحال.

فهي جنة بربوة متفردة عن الجنان، مما يزيدها حسن منظر وزكاء ثمر، فيضاعف هذا الموقع من عطائها وإغداقها فتؤتي أكلها ضعفين

وهي نفقة عن نفس تبتغي مرضاة الله زاكية عند ربها أيما زكاء ،
بمعنى أن هذه النفس قد بلغت من التثبيت والثبات على الطاعة حدا
لا يتجاوز الإخلاص في طلب مرضاة الله ، فهو إما وابل وإما طل ، بحيث
لا يخلف خيرها بحال .

قال تعالى :

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ
جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

البقرة آية ٢٦٦.

ثم تأمل هذا الاستئناف البياني البديع الذى أثاره ضرب المثل العجيب للمنفق في سبيل الله من حبة أنبتت سبع سنابل إلى جنة بربوة آتت أكلها ضعفين . وذلك الجزاء والبركة والخير الخصيب للمنفقين في سبيله الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ثم لما نهوا عن المن والأذى استشرفت نفس السامع لتلقي مثل لهم يوضح حالتهم الذميمة التي هي ضد تلك الحالة المحمودة . (١)

وهكذا تجدنا أمام مشهدين كبيرين ، المشهد الأول : يمثل هؤلاء المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتا من أنفسهم وكيف تعهدوا حرثهم فآتت جنتهم أكلها ضعفين بعد أن أصبح الإنفاق طبيعة فيهم وسجية من سجاياهم الكريمة لا ينقطع وابلها ولا يجف نداها .

والمشهد الثاني : يصور حال المنفقين في سبيل الله الذين أبطلوا إنفاقهم بالمن والأذى أى أضاعوا حرثهم وجنة أعمالهم فلم يحفظوها بل أتبعوها بالمعاصي التي أحرقتها وهم في أشد الحاجة إليها .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣/ ٥٣٠

وقوله : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ الود حب الشيء مع تمنيه والهمزة للإنكار والتحذير ومناط الإنكار هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق. (١)

تأمل هذا الأسلوب الاستفهامي والابتداء الرائع الذى يجعل النفس تحذر الوقوع في ذلك.

" وهيئة المشبه محذوفة وهي : هيئة المنفق نفقة متبعة بالمن والأذى ". (٢)

وقوله ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى " الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقي من المستتبعات ". (٣)

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى دوامها وخلودها.

﴿وَلَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المراد التكثير كقوله تعالى : (وأوتيت من كل شيء).

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ "هذه الحال التي هي مظنة شدة الحاجة إلى منافع تلك الجنة ومنتهى العجز عن تدارك أسباب المعاش ". (٤)

---

(١) انظر روح المعاني ٣/٣٧ وانظر أبو السعود ١/٢٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ٣/٥٤.
(٣) أبو السعود ١/٢٦٠.
(٤) روح المعاني ٣/٣٧.

﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ حال من الضمير في أصابه . تأمل تداخل الأحوال وزيادة القيود التي تقوى وتتكاثف بها عناصر الضعف والعجز حتى تبلغ الحاجة أشدها ثم يعظم الخطب عند شدة الحاجة ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ "الغبارُ الذى يَسْطَعُ مستديراً والجمع أعاصير .(١)

﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أى نار شديدة فالتنكير فيها للتعظيم .

﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ عطف على (فأصابها) .

يقول ابن القيم :(٢) " فهذا مثل ضربه اللّٰه سبحانه للحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظيم قدرها ومنفعتها ، والذى ذهبت عنه وقد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته ..

وقال ابن عباس : (هذا مثل الذى يختم له بالفساد في آخر عمره) .(٣)

وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا : اللّٰه أعلم، فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك ، قال : ضربت مثلاً لعمل ، قال لأي عمل ؟ قال لرجل غني يعمل بالحسنات ثم بعث اللّٰه له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها ".(٤)

---

(١) المقاييس مادة (عصر) .

(٢) ابن القيم ، تفسير القيم ١/ ١٥١ . (٣) المصدر السابق .

(٤) الكشاف ١/ ٣٩٥ .

تأمل قوله (فعمل بالمعاصي) والمعاصي أن يعص العبد ربه فيخرج عن طاعته ،وقد خرجوا هنا عن طاعته بإتباعهم نفقاتهم بالمن والأذى فاحترقت أعمالهم أى أنهم بنوها على خير ثم أتبعوها بما أفسدها وأحبطها .

وفي هذا المثل قوله تعالى :

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ

لون من ألوان البديع أطلق عليه ابن أبي الأصبع (الاستقصاء) وهو أن يتناول المعنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئا يقول :

" وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك ما لا يلحق به سبقا ".

فانظر إلى استقصاء هذا المعنى حين لم يبق فيه بقية لأحد ذلك أنه بعد قوله جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ قال تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وكمل الوصف بقوله لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فأتى بكل ما في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها ثم قال وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ثم استقصى المعنى الذى يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه (بالكبر) : وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ، ولم يقتصر على كونه له ذرية حتى قال ضُعَفَآءُ ،ثم ذكر استئصالها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال : فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ، فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافياً ولكن لما علم الله

سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك كما يحصل إذا كان فيه نار ، فقال سبحانه : (فيه نار) ثم أخبرنا باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحراقها باطفاء أنهارها وتجفيف أوراقها وثمارها فاخبر بإحراقها احتراساً من ذلك ، وهذا أحسن استقصاء وأتمه بحيث لم يبق في المعنى موضع إستدراك ".(١)

ولهذا المثل من الفضل والمزيه ما جعل المفسرون يشيرون إلى أهميته فترى الرازى يقول فيه :

" هذا المثل في غاية الحسن و نهاية الكمال ".(٢)

ويقول النيسابورى :

" ولا يخفى أن هذا المثل - في المقصود - أبلغ الأمثال فإن الإنسان إذا كان له جنة في غاية الكمال وكان هو في نهاية الاحتياج إلى المال وذلك أوان الكبر مع وجود الأولاد والأطفال فإذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة فكم يكون في قلبه من حسرة ؟ ".(٣)

---

(١) التحرير والتحبير ص ٥٤٢-٥٤٣.

(٢) الفخر الرازي ٥٠٨/٢.

(٣) غرائب القرآن ٥٣/٣ - ٥٤.

وبهذا الأسلوب الرائع والعرض الأخاذ والترغيب والترهيب يحذر المؤمنين من أن يتبعوا إنفاقهم بالمن والأذى ويرغبهم في أن يدخروا ذلك لينتفعوا به في وقت أحوج ما يكونون إليه .

قال تعالى :

مَثَلُ

مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

آل عمران / ١١٧ .

من أسرار المناسبة :

تتحدث الآيات السابقة للمثل عن أهل الكتاب من نصارى ويهود

ومحاجتهم والرد عليهم ومعاتبتهم على صدهم عن سبيل الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمن تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ (*)

وعن كفرهم بالله :

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ (١)

ويرغب المؤمنين في الاعتصام بحبله سبحانه والحذر من كيد اليهود ومحاولتهم إيقاع الفرقة بين صفوف المؤمنين وتشكيكهم في عقيدتهم . وهكذا يظل الحديث متواصلا عن اليهود والنصارى وكيدهم للإسلام والمسلمين وإعدادهم العدة لمحاربة الله ورسوله . ولكن الله يبشر عباده بالنصر وأن كيد أولئك لن يضرهم :

وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (٢)

ثم تعقد الآيات موازنة بين طائفتين من أهل الكتاب ، طائفة مخبتة إلى ربها :

يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ (٣)

(*) آل عمران / ٩٩

(١) آل عمران / ٧٠ .

(٢) آل عمران / ١١١ .

(٣) آل عمران / ١١٣ .

وأخرى تحارب الله ورسوله بإقامة الحصون وتجهيز الجنود ولكن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من عذاب الله شيئا :

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وهكذا ينهض التمثيل القرآني البديع ليؤكد أن ما أنفقه الكافرون في هذه الحياة الدنيا وفي عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام هالك لا محالة ولن يقدروا على الانتفاع به ولذلك نرجح ما رواه ابن عباس رضي الله عنه، حين خص بني قريظة والنضير بالمثل والآية السابقة له.

" قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم كانت لأجل المال ". (١)

وتخصيص الحديث عن الكافرين من أهل الكتاب لا يمنع من عموم حكمه لكل من ماثلهم من الكافرين في عداوته لهذا الدين. (٢)

وقد ذكر المفسرون في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها وجوهاً فقالوا:

" شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذى حسه البرد فذهب حطاما.

---

(١) أبو السعود ٢ / ٧٥ .

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، د / محمد جابر الفياض ص : ٣٩٠.

وقيل هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم .

وقيل ما أنفقوا في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله ". (١)

والذى يظهر أن الوجه الأخير هـو الذى يقتضيه سيـاق الآيات .

---

(١) الكشاف ١/٤٥٧.

من أسرار اللغة والنظم :

* مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا *

يصـــــور القرآن الكريم المعنى العقلي المجرد في صورة محسوسة بهذا التشبيه التمثيلي الذى يمثل صدقات الكافرين ونفقاتهم في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها بمثل زرع أصابته ريح باردة فاهلكته ولم ينتفع أصحابه بشيء منه بعدما كانوا قد علقوا الأمل به.(١)

ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من خيبة الأمل والحسرة على ما بذلوه من جهد ومشقة كان يظن أنه ينتفع بثمرتها .

والمشبه ما ينفقون من أموال في هذه الحياة الدنيا لمحاربـــة دين اللـــه .

والمشبه به هو الزرع الذى أهلكته الريح الباردة وهذا الزرع لقوم ظلموا أنفسهم فعاقبهم اللـه بإهلاك زرعهم .

ثم تأمل ما وراء قوله تعالى :

* هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا *

من التحقير لها والازدراء إذ أن إنفاقهم لم يتجاوز هـــذه

----

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢٠٤٠ القرطبي

الظرفية الفانية الوانية لأنها هي التي في حسهم وتصورهم.

وازن هذا بأولئك الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله .

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾

وقد اختلف العلماء هنا في المراد بالريح التي فيها صر .

هل هي الكفر الذى أهلك ما أنفقه الكافر ؟.

أم هي النفقات التي أنفقوها في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم فأهلك ما كان لهم من أعمال الخير ؟

وسياق الآيات يفصح عن ذلك.

فالآيات السابقة تتحدث عن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد نهى اليهود عن معاداته وأصحابه والكيد للمؤمنين ولكنهم فتنوا بما لهم من حصون وأموال وأولاد . ومعرفة بفنون الحرب فأوقع الله بهم وعيده فغُلبوا وأُخرجوا من ديارهم .

ولم تغن عنهم حصونهم شيئا . وهذا النصر إنما أجراه الله على أيدى المؤمنين فهم الذين تولوا إهلاكهم وتحطيم حصونهم فماأشبههم بهذه الريح التي فيها صر أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم فلم يغنهم ما زرعوه شيئا . (١)

---

(١) انظر الأمثال في القرآن ، محمد جابر الفياض ص: ٣٩٦

والصر : الإصْرارُ التَّعقُّدُ في الذّنْبِ والتّشدُّدُ فيه والامتناعُ عنَ الإقْلاعِ عنه وأصْله مَن الصَّرِّ أى الشّدّ (ورِيْحاً صَرْصَراً) لفْظُهُ مِنَ الصَّرِّ وذلك يَرْجِعُ إلى الشّدِّ لمَا في البُرودةِ من التّعَقُّدِ . (١)

فالصر : البرد الشديد .

وفي تنكير (ريح) ما يوحي بشدتها وقوتها . ولقد وصف سبحانه المؤمنين بقوله :

أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ

والريح أهلكت الحرث بما فيها من صر أى برد بارد بالغ البرودة .

قال تعالى :

وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . (٢)

أرأيت إلى هذه الصدور التي تتقد غضبا وغيظا وهذه الأموال التي تبذل لمحاربة الله ورسوله واشعال نار الفتنة والعداوة وبث الفرقة

---

(١) الراغب مادة (صر).

(٢) آل عمران / آية ١١٨.

بين المسلمين فناسب أن يكون إخمادها وإبطالها بهذه الريح الباردة غاية البرودة لتقابل مع هذه النار المتأججة المستعرة في قلوب القوم وفي أموالهم التي بذلوها حربا وعداوة وفتنة ولو كانت إعصارا فيه نار لزادت الموقف تأججا واشتعالا .

ثم تأمل كيف بدأ المشبه به بلفظ الريح لما لها من العناية والاهتمام لأنها تمثل العذاب والتهديد والوعيد لقوم ظلموا أنفسهم فتعدى ظلمهم إلى حرثهم هذا ما يمكن أن نستشفه من هذا القيد وهو قوله تعالى :

حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

وما فيه من الإشارة إلى أنهم حادوا به عن غايته ووضعوه في غير محله فوجب استئصاله وإتلافه : وهكذا يأتي أسلوب القصر في قوله تعالى : وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ليؤكد أن اللـه سبحانه ما ظلمهم بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة) (١) .

---

(١) الكشاف ١/٤٥٧ .

وفي تقديم (أنفسهم) أى أنهم ما يظلمون إلا أنفسهم ، وجاء الفعل (يظلمون) بصيغة المضارع ليدل على دوام ذلك العمل منهم وتجدده واستمراره .

وفي الآية الكريمة لطيفة بلاغية وهي (رد العجز على الصدر) في قوله :

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

تأمل ذلك بين (ظلم) وبين(يظلمون) .

وهذا العذاب الذى أصاب القوم (إنما هو عن ظلمهم لأنفسهم لأن الاهلاك عن سخط أشد وأبلغ) (١) .

والفاء في (فأهلكته) لبيان النتيجة المترتبة على ما تقدم من اصابة الحرث .

وإذا ما عدنا إلى المواد اللغوية التي بني عليها التمثيل .

نجد : الريح والصر والإصابة والحرث والظلم والإهلاك ، معاني توحي بهذا الجو الشديد العصف والشديد الهول .

---

(١) الكشاف ١/٤٥٧ .

وتلك الأصوات المتتابعة في الآية كصوت هذه الريح التي فيها صر وكيف تعبر الكلمة بمخارج حروفها عن ذلك .

ثم كيف ينتهي المشهد عند قوله (فأهلكته) .

وما وراء هذه الجملة من الهلاك والفناء وعدم الإنتفاع .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الإنفاق :

أ- تدور المادة اللغوية التي بينت منها تشبيهات الإنفاق في سبيل الله .

حول : الحبة - السنابل - المضاعفة - الجنة - الربوة - الوابل - الطل .

ونلاحظ أن المثل الأول وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ

وإن شارك الثاني وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ

في معنى عام وهو العطاء والخصوبة والمضاعفة ، والأجر العظيم الذى يعود على صاحبه المنفق في سبيل الله إلا أن المثل الأول يهتم ببيان مضاعفة الثواب ، هذه المضاعفة الحسابية التي تتمثل في حبة أنبتت سبع سنابل .. الخ »

فهو تصوير للأضعاف وكأنها ماثلة بين يدى الناظر .

بينما نجد أن التمثيل الثاني يبرز أثراً آخر للإنفاق في سبيل الله وهو ما يعود به هذا الإنفاق على قلب صاحبه المؤمن بحيث يعتاد الخير حتى يطيب هذا القلب وتزكو هذه النفس وتخلص من الأكدار وتصبح

كالأرض الحرة الخصبة في الربوة العالية الشماء وهي ممرعة بالخير زاكية على كل حال إن أصابها وابل أثمرت وأمرعت وإن أمسك الوابل فهي ممرعة مثمرة لأن معدنها كله خير فلا يصدر عنها إلا الخير.

٢ - من أسرار التنوع / مجيء التشبيه الأول بسيط التركيب لتحصل السرعة بتخيل هذه المضاعفة الحسابية . وليحصل التحريض والترغيب وإثارة محور الطمع في الإنسان فمن ذا الذى لا يحب الربح خاصة إن كان هذا الربح بهذه المضاعفة التي هي أقصى ما تستشعره النفس الإنسانية .

بينما جاء التشبيه الثاني معقد التركيب لأن الأحوال هنا تكاثفت وتداخلت وتراكبت فالنفوس زاخرة مفعمة بمعاني الخير والطاعة مبتغية مرضاة الله والنفقة فيه وارفة الظلال دائمة الأثمار فهي ظل ظليل وثمر وفير وستر لصاحبها وحجاب من النار .

٣ - من أسرار / التنوع أنه لما كان لكل مثل بناؤه ونظمه كان لكل واحد أيضا تذييله وفاصلته التي تلائمه وتنتظم معه ومع السياق الذى وردت فيه فذيلت آيات التمثيل الأول بقوله تعالى :

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ

ليتناسب مع المضاعفة التي وعد الله سبحانه أنه يضاعفها لمن يشاء من عباده .

بينما اختتمت آيات التمثيل الثاني بقوله تعالى :

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾

ليتناسب مع تلك القلوب المتفاوتة في زكائها وإخلاصها فيجازى كلاً بعمله .

٤ - قد يكون من أسرار التنوع أيضا الانتقال من الحسى إلى المعنوى وذلك تدرجا في تربية النفس المؤمنة لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك .

٥ - وقد يكون من أسرار التنوع ما ذكره بعض المفسرين ومنهم الطبرى - والبقاعي (١) إذ يقول :

" إن المراد بالتمثيل الأول نفقة الجهاد في سبيل الله لأن الجهاد واقع عند الحاجة والمنفق ابتغاء مرضاة الله ينفق في كل وجه دائم الإنفاق فكان مثله كالجنة الدائمة ليتطابق المثلان بالمثولين فعمت هذه النفقة جهات الإنفاق كلها في جميع سبل الخير ".

---

(١) نظم الدرر ٤/٧٧ وانظر جامع البيان ٣/٤١ .

وتدور المادة اللغوية التي بنيت منها تشبيهات الإنفاق رئاء الناس، والانفاق المصحوب بالمن والأذى، وإنفاق الكافرين حول :

الصفوان - التراب - الوابل - الصلد .

ثم جنة من نخيل وأعناب - إعصار فيه نار - الكبر - الذرية الضعاف - ريح فيها صر - حرث قوم ظلموا أنفسهم .

وهذه التشبيهات وإن كانت تجتمع في معنى عام وهو بيان احباط العمل وإبطاله وضياعه بعدما كان يأمل نفعه . إلا أن كل تشبيه ينفرد بِمَعْرِضٍ ومَعْنًى يتناسب مع السياق الذي ورد فيه :

١ - المان والمؤذى والمرائي وإن كانا يشتركان في احباط العمل إلا أن المرائي ينفرد في التمثيل الأول وهو قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾

ببيان أن نفقته لم تثمر أصلاً لأن قلبه خال من الإيمان بالله واليوم الآخر وإن كانت تبدو كأنها صالحة للنفع والانبات بينما يصور لنا التمثيل الأخير وهو قوله تعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ ﴾

نفقة المان والمؤذى وقد بلغت غاية الوفرة والكثرة والثراء ونهاية ما تطمح إليه نفس ثم طرأ عليها ما أحبطها وأحرقها .

٢ - الذى أبطل نفقة المرائي ، وأضاع ثوابهــــا وأزالهـــا

وهي لم تثمر بعد رياوءه الذى يمثله الوابل وهي علة داخلية تمس جوهـر العقيدة .

بينما الذى أحبط نفقة المان والموءذى مَنّه وأذاه والــــذى (يمثله إعصار فيه نار) وهما علتان خارجتان طرأتا عليه .

فالفسادالخارجي لم يبن الإنفاق أصلا عليه وإنما خالطـــه بعد اكتماله فأفسده وهو أحوج ما يكون إليه . لذلك يقول أبوحيان :

" إن الصدقة وقعت صحيحة ثم بطلت بالمن والأذى ". (١)

بينما المرائي بالإجماع لم يأت بالعمل مقبولا صحيحاً وإنما أتى به باطلاً مردودا . (٢)

٣ - الرياء خير في ظاهره وسبب لنيل المدحة والثنـــاء من الناس وإن كان ضارا وشرا في باطنه وآثاره فهو أشبه بالوابل الذى كان مظنة النفع فأصبح وبالاً عليهم .

---

(١) البحر المحيط ٣/٣٠٩.

(٢) روح المعاني ٣/٣٥.

بينما المن والأذى شر في ظاهره نار في باطنه ، وأثره على النفس إذ أنه يمحق الإنفاق ويمزق المجتمع ويثير الأحقاد وقديماً أفاض الشعراء والبلغاء في وصف حرارته وحرقته وشدة وطأته على النفوس ونفروا منه لذلك هو أشبه بالإعصار الذى فيه نار.

٤ - من أسرار التنوع أيضا أن يكون الجزاء من جنس العمل . فالمرائي عاد عليه رياؤه الذى هو مظنة النفع فأبطل عمله وأذهبه والمان والمؤذى عاد عليه منه وأذاه إعصاراً فيه نار جزاءً يجانس أعماله . .

لتحرقها بعد أن استوفت غاية الحسن والطيب والكمال وعند بلوغه غاية العجز والضعف والهوان فأى حسرة أعظم من حسرته .

٥ - ومن أسرار التنوع بين الجنة التي احترقت بإعصار فيه نار وبين الحرث الذى أهلك بالريح الباردة .

أن الإعصار الذى فيه نار يمثل المن والأذى وهو في حرقته وتمزيقه لأواصر المحبة وتفتيت المجتمع كهذا .

بينما الريح التي فيها صر تمثل المؤمنين وقوتهم وبأسهم وشدتهم ثم ما هم فيه من برودة اليقين التي تخمد نار الحقد والشرك والكفر .

٦ - نفقة المان والمؤذى بنيت في أجواء رطبة ندية فأثمرت وأينعت ثم طرأت عليها آفة أحرقتها فناسب أن تكون هذه الآفة إعصار فيه نار لإحراق الجنة بينما حرث هؤلاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم زُرِع في أجواء حارة متأججة حقدا وبغضا وحربا لله ورسوله فاحتاج إلى ريح شديدة البرودة لإطفاء جذوته وإهلاك ثمرته.

٧ - من أسرار التنوع هذا التقابل البديع بين المعاني ليزداد رسوخها في النفس بين حبه أثمرت أيما ايثمار وصفوان لم يثمر شيئا

ثم بين هذا الصفوان الذى لم يتصدع لوابل السماء

وبين تلك الجنة بربوة التي آتت أكلها ضعفين

بين جنة ثابتة نامية زاكية وبين جنة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت،

بين هذا الإعصار الذى فيه نار وتلك الريح التي فيها صر ،

بين تلك الآفة الباطنية من الرياء وتلك الآفة الخارجية من المن والأذى،

بين ذلك التركيب البسيط في حبة أنبتت سبع سنابل ، وذلك التركيب المضاعف في جنة بربوة آتت أكلها ضعفين،وهكذا تجد التقابل في القرآن الكريم بين معانيه عنصراً من عناصر بلاغته وإعجازه وبيانه .

الفصل الثالث :

التشبيه الذي يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر الحق والباطل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وعلى صور بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق الحقيقة والبعض الآخر عن طريق التشبيه والمجاز بين فيها سبحانه أنه الحق وأن كتابه الحق وأن له دعوة الحق .

فقال تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ٱلْبَٰطِلُ (١)

وقال :

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ (٢)

وقال :

وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ (٣) .

فهو سبحانه الحق ودعوته دعوة التوحيد هي الحق ومنهجه وقرآنه هو الحق .

يقابل ذلك أن ما يعبد من دون الله هو الباطل وأن كل مذاهب وعقائد وتشريعات غير ما سنها وأنزلها هي الباطل وأن دعوة الشرك والإلحاد

---

(١) الحج / ٦٢ .
(٢) الرعد / ١٤ .
(٣) الرعد / ١ .

والكفر هي الباطل ،فالباطل معبود ومنهج ودعوة كما أن الحق إلـــه ومنهج ودعوة.

كما بين سبحانه أن الباطل لا محالة زائل وأن الحـــق باق في الأرض فقال :

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١)

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٢)

وقد مثل سبحانه للحق الذى هو كتابه وكيف تلقته قلوب عباده واستجابت له وموقفه مع الباطل وصراعه معه فقال :

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (٣)

كما مثل سبحانه الحق الذى هو كلمته ودعوته وهي أساس الدين وشعار الإسلام ومفتاح دار السلام وهي كلمة التقوى والعـروة الوثقى التي من أجلها قامت السموات والأرض وفطر الله عليها جميع المخلوقات .

---

(١) الأنبياء / ١٨.

(٢) الاسراء / ٨١.

(٣) الرعد / ١٧.

ومثل فيما يقابلها لكلمة الكفر والشرك فقال تعالى :

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (١)

والعناصر التي كونت أساليب التشبيه هنا هي الماء النازل من السماء

والسيل والزبد والمعادن التي يوقد عليها والحلية والمتاع .

ثم الشجرة الطيبة وما جرى عليها من أحوال وصفات .

والشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض .

وسوف أجتهد بإذن الله في بيان أسرار التنوع وراء

تشبيه الحق بالماء والمعدن والشجرة الطيبة ،

وتشبيه الباطل بالزبد والشجرة الخبيثة .

---

(١) إبراهيم / ٢٦ .

قال تعالى :

أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ
مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

الرعد / ١٧ .

من أسرار المناسبة :

تمتد أسرارالمناسبة بين تشبيه الحق والباطل وبين بداية السورة الكريمة التي من مقاصدها تقرير هذا الحق المتمثل في إنزال الكتاب الذى يثبت وحدانية اللّٰه وتفرده عزّوجل بالخلق والإيجاد والإحياء والإماتة والنفع والضر.

وتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وإحاطة علمه بكل شيء ودفع الباطل المتمثل في تلك الشبه التي يثيرها المشركون باللّٰه يقول تعالى :

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ (١)

ثم تأتي الآيات لتقرر دلائل هذا الحق وآياته في الوجود وأنها ظاهرة ظهورا لا خفاء فيه ولا التباس في السموات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار، والزروع والثمار، في البرق الذى يخيف ويطمع، والرعد الذى يسبح بحمده، والملائكة/التي تخاف وتخشع، والصواعق التي يصيب بها من يشاء، والسحاب الثقال والمطر في الوديان، والزبد الذى يذهب جفاء

---

(١) الرعد / ١.

ليبقى ما ينفع الناس ومع ذلك تجد وسط هذا الكون المسبح الضارع قوما :

يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١)

ثم تأمل وانظر إلى هذا الظامئ وحده وسط هذا الكون السخي الذى لا زالت سماؤه تمطر وبرقه يخيف ويطمع .

يقول عز وجل :

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٢)

ما أقرب الحق إليه وما أدناه من بين يديه وقد تلبس به الكون كله فهذه أدلته باهرة ناطقة يرعد صوتها ويبرق ضوؤها يبشر وينذر ولكن :

هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ (٣)

ثم قارن هذا الظامئ وحده وسط طبيعة ربا تتدفق بالحياة والخصوبة، بأولئك المخبتة قلوبهم الرطبة الندية يسيل فيها ماء الهدى والحق والنور . يقول تعالى :

---

(١) الرعد / ١٣.

(٢) الرعد / ١٤.

(٣) الرعد / ١٦.

قال تعالى: أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (١)

وهكذا تمطر سماء الحق فيحتمل السيل زبدا رابيا ، ويصهر المعدن فيطفو زبد مثله :

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

بهذا التمثيل الرائع البديع الذى مثل بين أيديهم في الأجواء البارقة الراعدة ، والسماء تمطر والماء يتدفق بين الجبال وعلى التلال ، يهبط سريعا من كل مرتفع ، حتى يملأ الأودية ، فإذا بها تسيل في منظر بديع ، يملأ النفس رغبةً ورهبةً وهي ترى وتسمع هدير السيل ودويه وقوة إندفاعه وجيشانه يشنف الآذان الواعية ويملأ القلوب الخالية فتخبت له وتنقاد اليه وتحسبها لشدة تأثرها به وإقبالها عليه كأنها تسيل ، أفمن يعمي عن هذا الحق الذى أهاج الكون كله هل يستوى

---

(١) الرعد / ١٧ .

هو ومن يبصر ، أم هل تستوى ظلمات الكفر والشك والنفاق مع نور الحق والإيمان واليقين ؟

بهذا التمثيل البديع ينتصب الحق مرئيا مشاهداً في أعظم آية من آيات اللّٰه في الكون في هذا الماء الذى جعل اللّٰه منه كل شيء حيا ليمثل الحق ، بل هو عين الحق لشدة المماثلة.

يقول الزمخشرى : " هذا مَثَلٌ ضربه اللّٰه للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما ، فَمَثَّل الحق وأهله بالماء الذى يُنزِله من السماء ، فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفِلِزّ (١) الذى ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ولو لم يكن إلا الحديد الذى فيه البأس الشديد لكفى به ، وإنّ ذلك ماكث في الأرض باق بقاءً ظاهرا يثبت الماء في منافعه ، وتبقى آثارُه في العيون والآبار والحبوب والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذى يرمي به وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه إذا أذيب ". (٢)

---

(١) المعادن الموجودة في الأرض .

(٢) الكشاف ٢/٣٥٦.

وقال أبوحيان :

قال ابن عطية : " صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى وإقامة الحجة على الكفرة ،فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثالاً للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به).[١]

" وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب/والحق والباطل فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب ،وبقاء الشرع والدين والأودية مثل للقلوب .

ومعنى (بقدرها) أى على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما انتفع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ، ومنها دون ذلك بطبقة ،ومنها دونه بطبقات ،والزبد مثل الشكوك والشبه ، وإنكار المنكرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل ، والماء الصافي المنتفع به مثل الحق ".[٢]

ويقول صاحب التحرير والتنوير[٣] :

" شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوى عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعلمهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٨٢ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٨١ .
(٣) التحرير والتنوير ١٣/١١٧ .

ويمر على قلوب لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون .

ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحاداً . كقولهم " هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم إنكم لفي خلق جديد " ومنه الأخذ بالمتشابه ... شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها . ثم ما يدفع من نفسه زبداً لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفنى والماء بقي في الأرض للنفع".(١)

وقد جاء في الحديث النبوى ما يماثل هذا المعنى " عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نَقِيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ".(٢)

وسنقف عند التحليل والمدارسة لآيات التمثيل على ذلك إن شاء الله ونرى كيف تؤكد سياق الآيات هذه المعاني وتشير إليها في تناسق بديع وإحكام جليل وسبك دقيق وهذا الذى نصف به لغة القرآن لا يتجاوز لغتنا التي تقصر عن وصف بلاغته وتعجز عن الإحاطة بمعانيه وإلا فإن القرآن يعلو ولا يعلى عليه . وهو في إعجازه في نظمه وتراكيبه وصوره ومعانيه خارج عن حدود طاقة البشر .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١١٧ .

(٢) مختصر صحيح البخارى المسمى (التجريد الصريح) كتاب العلم ص ٤٠ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا

.

(أنزل من السماء) : أى من جهة السماء ، والمطر لا ينزل إلا من السماء، ولكنه على طريقة :

فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ (١)

لتأكيد المعنى ، والإيماء إلى سمو هذا الماء، وعلو قدره، وصفائه، وطهارته ، وأنه ليس من مصدر آخر إلا السماء ، ويقابل هذا المعنى في المثل لـه أن " الحق والقرآن " لا ينزل إلا من السماء ، وفي ذلك إثبات لوحدانية الله، وأن الخير لا يكون لهذه الأرض إلا منه، وتشريعه .

وفي تنكير (ماء) ما يوحي بهذا الفيض السخي، الذى نزل من السماء ، أو المراد به نوع منه وهو ماء المطر الذى لا يحمل إلا الخير. (٢)

----

(١) النحل / ٢٦ .

(٢) انظر(أبو السعود) ٥/ ٦٤ .

وهكذا يأتي الإنزال لهذا الماء دليلا مشاهدا على قهره عَزَّ وَجَلَّ لكل شيء لأنَّ حمل الماء في العُلُو لا يمكن إلا عن قهر ،كما أن رفع السماء بغير عمد لا يكون إلا عن قدرة وقهر ،وكذلك إنزال الماء في وقت دون غيره دليل على ذلك. (١)

(فسالت أودية بقدرها) :

مادة (السين والياء واللام) أصلٌ واحد يدلُّ على جريانٍ وامتدادٍ . (٢)

(أودية) : أصلُ الوادِى المَوْضِعُ الذى يَسِيلُ فيه الماءُ وَمِنْهُ يُسَمَّىَ المَفْرَجُ بَيْنَ الجَبَلَيْنِ وَادياً وجمعُه أَوْدِيَةٌ . (٣)

وهو اسمُ فاعلٍ من ودى إذا سال .. ويسمى الماءُ وادياً إذا سال . (٤)

---

(١) نظم الدرر ١٠/ ٣١٤ .
(٢) مقاييس اللغة مادة (سيل) .
(٣) الراغب مادة (وادى) .
(٤) انظر الفخر الرازى ١٩/ ٣٧ .

ثم تأمل هذا التوافق العجيب، والتقدير البديع لهذه القلوب التي سالت بالحق، وقد هيئت بأصل فطرتها وطبيعتها، لتكون الموضع الذي يسيل أو يتدفق فيه نور الحق، وهدى القرآن، لذلك كانت استجابتها للحق سريعة حين أسالها فسالت، وأجراها فجرت، وامتدت، وأمدت بالحياة، فكأن في سيلانها امتداداً لحركة الحق في الوجود، وثباتاً له، وبقاءً لنفعه في الأرض.

وقد جاءت (أودية) على صيغة النكرة، لأنها تلك الواقعة مواقع المطر، المتعرضة لفيوضاته ونفحاته، فليس المراد جميع الأودية بل نوع خاص منها، لأن الأمطار لا تستوعب الأقطار، وإنما تنزل على طريق المناوبة، فتسيل بعض الأودية دون بعض. (١)

وفي هذا دليل على أن من أقبل على الحق وعرض نفسه عليه لم تجد نفسه بدا من الإيمان به، لأن الفطرة مهيأة لقبول ذلك، وأنَّ من أعرض، وأنكر، كان كمن يُغطِّي فطرته، ويحجب بصره، ويُغلُّ عقله، وينأى بنفسه عن هذا الخير والنور.

----

(١) انظر(أبو السعود) ٥ / ١٤، روح المعاني ١٣ / ١٣٩.

كما يوحي التنكير بأن هذه الأودية على قلتها أودية عجيبة الصفة، عظيمة القدر، تخرج عن المعتاد والمألوف من أودية الناس، كيف لا وهي أودية في صدور الذين آمنوا، واستجابوا لربهم، يسيل فيها ماء الحق، فيخصب جدبها، ويروى ظمأها، ويبعث فيها الحياة الدائمة الباقية التي لا ينتهي عطاؤها، ما دامت تستمد من هدى القرآن .

وسواء كان المعنى المراد بقوله (فسالت أودية) معنى (الأودية) الحقيقي التي فيها الإسناد مجازى كما في (جرى النهر) أى ماؤه، أو أريد بها معناها المجازى والإسناد فيها حقيقي، من باب إطلاق اسم المَحَلْ على الحال فيه .

فكلا المعنيين لا تضيق عنه لغة القرآن، فهذا الحق يمتد في العروق، ويجرى في القلوب، وهي لشدة تأثرها به، واستجابتها له، وإقبالها عليه، كأنها تسيل .

وقوله (بِقَدَرِهَا) في موضع الحال من أودية، والقدر بمعنى المقدار، واللفظ له وجهان :

الأول : أى سالت بمقدارها الذى عينه اللّه تعالى من الماء، واقتضته حكمته في نفع الناس، لأنّ المطرَ مثلٌ للحق، وهو نافع خال من الضرر . (١)

---

(١) انظر أبو السعود ٥/ ١٤، والبحر المحيط ٥/ ٣٨١ .

الثاني : أو بقدر صغر الأودية وكبرها، لأن النافع ذلك، (١)
بحيث لا يفيض الماء فيضر، لأن من السيول جواحف، وزواحف، تجرف الزرع والبيوت والأنعام. (٢)

ووراء تفاوت الأودية في المقادير اختلاف الناس، وتفاوتهم، في قابلية الانتفاع بما نزل من الحق، وهذا يتناسق ويتلاءم مع اختلاف الثمرات التي تسقى بماء واحد . يقول تعالى :

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وكأنها باختلافها تحدث التكافل، والتكامل، إذ أن كل ثمرة تختص بمنفعة أو تمنح الجسم فائدة يحتاجها، كما أن كل قلب يحمل بالقدر الذى يطيقه فهمه ووعيه، ولو كانوا جميعا سواء لما احتاج قلب إلى قلب، ولا عقل إلى عقل، ولما حدث التآلف، والتعاون، ولا استغنى كل

---

(١) حاشية الشهاب ٥/٣٢ .
(٢) التحرير والتنوير ١٣/١١٨ .
(٣) الرعد / ٤ .

عن الآخر وهكذا تمنحك لغة القرآن معنيين لا تضاد بينهما فهو بالقدر الذى ينفعهم ،ففيه حياة القلوب وصلاح المعاش وزاد المعاد وهم يحملون منه بالقدر الذى تطيقه جبلتهم وطبيعتهم .

* فاحتمل السيل زبدا رابيا *

ذهب أكثر المفسرين الى أن (احْتَمَلَ) بمعنى (حمل)جاء فيه (افْتَعَلَ) بمعنى المجرد .

والذى يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن إيثار احْتَمَلَ على حَمَلَ لزيادةٍ في معناه وقوة في مبناه،لأنّ الاحتِمال : "رَفْع الشّيء على الظهرِ بقوةِ الحَاملِ له ".(١)

" وتحامَلْتُ إذا تكلّفتَ الشيءَ على مشقّةٍ والاحتِمالُ الغَضَبُ . . لأنهم يقولون احتمَلَه الغضبُ وذلكَ إذا أزعَجَهُ ". (٢)

ووراء ذلك جهد أهل الحق واصطبارهم على احتمال هذا الغثاء المجتمع من الأوساخ والأكدار التي تقذف بها نفوس الكافرين والمشركين من الشكوك والشبه والإنكار والتكذيب .

---

(١) نظم الدرر ١٠/٣١٥ .
(٢) المقاييس مادة (حمل) .

وجاء " السيل " معرفا لأنه معهود مذكور بقوله تعالى :
(سالت أودية) وإن لم يجمع، لأنه مصدر بحسب الأصل . (١)

ثم تأمل هذا المعنى ، واستقص النظر إليه ، بتفريغ لب وجمع قلب ، وسكون طائر، حتى كأنك لا تسمع في هذا الكون إلا صوت هذا السيل، الذى أهاج بمسيرته الوجود ، وملأ القلوب رغبةً ورهبةً .

ثم قارنه بتلك الطائفة المؤمنة، أو الجيل القرآني الفريد ، الذى تلقى الحق والوحي مباشرة من فم السماء، ولم يحل بينه وبين سرعة الاستجابة لهذا الحق حائل . ثم انظر أتجد في تاريخ البشرية كلها سيلاً كسيله، أو حركة في الوجود تضاهي حركته في قوتها ، وما أضفته على البشرية من عظيم نفعها، وجليل فضلها ؟

إنه السيل الذى لا زال دويه في أذن الزمان، ولا زالت آثاره في الأرض قدوةً لمن أراد أن يحتذى ويفي بعهد الله ولا ينقض الميثاق (٢) لتكون حركته في الوجود امتداداً لذلك السيل الفريد .

---

(١) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٥/٢٢٣.
البحر المحيط ٥/٣٨٠.

(٢) انظر آية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من سورة الرعد .

ثم تأمل كيف جاء التعبير عن هذا السيل بالإفراد، ولم يجمعه ، فلم يقل (فاحتملت السيول زبدا رابيا) وإنما أفرده وجعله سيلاً واحدا، ومصدرا لكل سيل بعده ، لأنهم في جهادهم وحركتهم في الوجود ضد الباطل ، أمة واحدة، وقلبا واحدا ، وجسدا واحدا ، كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ كما التقت تلك الثمرات بنفعها في جسد/ واحد لتمده بطاقة واحدة ، وان اختلفت منافعها، وتنوعت طعومها، فهي طاقة واحدة، ولغاية واحــدة هي حفظ هذا الجسد من التلف والفساد، الذى يؤدى الى الفناء .

" والفاء " في قوله تعالى :

فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا

لها موقع دقيــق، رتبت فيه المعاني بعضها فوق بعض، فاحكمت سبكها وهي في تسلسلها وتتابعها تحكي قصة واحدة، قصة الحق في فيضانه مــن جناب المقدس (١)

على قلوب خالية عنــه، متفاوته في الاستعداد، ظامئة إليه أشد ما يكون الظمأ ، وما أن يبلغ هذه الأجواف الظمئة حتى تبعث فيها الحياة، وتسيل متدفقة بالخصب والرواء، ولكن يأبى الباطل بشبهـــه ، وشكوكه ، وإنكار منكريه، إلا أن يقف في طريق الحق، وما هو إلا تراب الأرض

---

(١) أنظر(أبو السعود) ٥/ ١٣ .

الذى تطوءه الأقدام ، يرفعه السيل عند اشتداد جريانه ، فيظهر زبداً رابياً ويحاول باعتلائه ، وانتفاخه ، أن يحجب وجه الحق ، و يعكر صفو جوهره و نقاء معدنه ، وما فيه من حياة القلوب ، و نفع الناس ، ولكنه لا يلبث أن يضمحل ويزول أمام اندفاع الحق ، وقوة جيشانه ، فكأن حركة الحق في الوجود هي التي أظهرت الباطل ، وهي التي دفعته ومزقته فذهب جفاء .

(١)
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ .

أى : ومن الذى يوقد عليه الناس من المعادن . كالذهب والفضة والنحاس مما يسبك في النار لطلب الزينة ، أو الأشياء التي ينتفع بها ، كالأواني / مثل زبد السيل ، لا ينتفع به كما لا ينتفع بزبد السيل .

وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى لضرب مثل آخر .

وهذه الواو التي تقتضي المغايرة توحي بأن للحق مع الباطل موقفاً آخر ، أو توحي بأن هناك باطلاً آخر ، يماثل الباطل الأول في صراعه مع الحق .

---

(١) سورة الرعد آية ١٧ .

قوله تعالى :

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ .

" مما " لها وجهان عند المفسرين فهي إما أن تكون تبعيضية ، وإما أن تكون ابتدائية دالة على مجرد كون الزبد مبتدئا وناشئا من المعدن لا تبعيضية ، ويعللون ذلك بأن فيه إخلالا بالتمثيل لأن المقصود من التمثيل بيان عدم استواء الحق والباطل وأنهما أمران مختلفان اختلاف الأعمى والبصير والظلمات والنور ، فكيف يكون الباطل بعض الحق وإنما يخالطه من غير مداخلة فيه تفسد جوهره وإنما تحجب صفاءه وجلاله).(١)

وكأن هناك نوعين من الزبد زبد راب فوق الماء من غير مداخلة فيه وزبد مختلط بالمعدن لا يظهر إلا عند الإيقاد عليه في النار فيظهر ويعلو ظهر المعدن لخفته وانعدام وزنه ، ولكنه ظهور وشيك بزواله وذهابه وفنائه .

---

(١) انظر أبو السعود ٥/ ١٤ روح المعاني ١٣/ ١٣٠.

ووجه المماثلة بين هذين الزبدين في كونهما يتوالدان من الأوساخ والأكدار . تأمل هذا وقارنه بما يقابله من المثل له ، فهل تجد أوساخا واقذاراً تعكر صفو الحق كهذه الشبه والشكوك والتكذيب والإنكار الذى يخالط النفوس، و يطمس بصيرة القلوب ؟ .

وهذا الزبد الطافي الرابي الظاهر إنما هو - والله أعلم - ما واجهته دعوة الحق ، من تكذيب وإنكار من غير لبس ولا خفاء . فقد كانت الحرب بين الحق والباطل واضحة المعالم، بارزة السمات ، ولا يحمل هذه الأمة الكافرة على هذه المواجهة إلا ثقتها بقوتها المادية ، على بساطة عقليتهم و جمودها في الكيد والدس ، وكلما أوغل الإنسان في الحضارة ، والتقدم العلمي ، زاده ذلك دهاء و مكرا ، و تلبيسا . لذلك كان مايلاقيه الإسلام من أهل الكتاب،واليهود خاصة - و هم أهل علم - أشد وأنكى لأن حربهم للحق وغزوهم لأهله بطرق أخفى،وأشد دهاء و مكرا و فتكا بالنفوس .

ولكن هذا الزبد الخفي لا تلبث أن تظهره الشدائد ، والمحن التي تمر بها الأمم ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ من دعوات هادمة واعتقادات فاسدة ، وأعمال وأقوال ، وشعارات ، وأحزاب .

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (*)

وهذه الابتلاءات والمحن التي تبتلى بها الأمم، إنما هي بما كسبت أيديهم . تأمل قوله تعالى (يوقدون) وكيف أضمر فاعله مع عدم السبق لظهوره إيحاءً بأن الذين يوقدون قوم مندسون في هذه الأمم يسعون لإيقاد الفتن، والمحن، ابتغاء متاع قليل، وحلية بالية فانية .

والإيقاد على الشيء على قسمين : أحدهما : ألا يكون ذلك في النار كقوله تعالى ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ ﴾ ، والثاني : أن يوقد على الشيء ويكون في النار ".(١) رغبة في إذابته كالمعادن .

ثم تأمل كيف يفيض هذا القيد (في النار) معنى التوكيد، والتأسيس، والمبالغة . فالتوكيد حاصل من أنه يوقد عليها، وأنها في النار وأن الإيقاد يتجدد، ويتكرر حدوثه، وهذا ما يفيده الفعل (يوقدون) .(٢)

ثم انظر إلى موضع العناية والاهتمام، والإعتبار في الآية الكريمة ، تجده في هذه الجملة المجعولة صلة ، إذ الغرض كَامِنٌ فيها لذلك

(*) الرعد / ١٧ .
(١) الفخر الرازي ١٩/ ٣٨ .
(٢) انظر حاشية الشهاب ٥/ ٢٣٣ .

قدمت هنا وما وراء تقديمها من تشويق للسامع لترقب المسند إليه .

يقول ابن عاشور : " وفي ذلك من بديع صنع الله إذ جعل الزبد (١) يطفو على أرق الأجسام وهو الماء ، وعلى أغلظها وهو المعدن "

ووراء ذلك أنّ الجيل الأول بلغ في الرقة والشفافية وصدق الإيمان وليونته ، وإخبات النفس، ووجل القلب لله ليونة هذا الماء الذى خالط قلبه وعذوبته ، ثم إنه لطول الأمد ، وتراخي العمر، والغفلة عن المنهج ، ومخالطة غيره له قسا وصلب ،ولم تعد حالة الليونة تظهر إلا عند الابتلاء والفتنة، حين يصفو معدنه ، ويطرد عنه الزبد .

فالغرض إذاً كامن في هذه الجملة وهي قوله تعالى :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ (٢)

لأنه تمثيل وتصوير حالة الافتتان والإختبار والابتلاء ومعالجة الأشياء بالشدة لتتبين معادنها ، وتصفيه جواهرها، فينتفع بالخالص المصفى (ابتغاء حلية أو متاع) .

ولأنّ ذكر الإيقاد عليها سبب حصول الزبد وطرده .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣/١١٩ .

(٢) الرعد / ١٧ .

ولما كان الإيقاد على هذه المعادن فيه إشارة إلى التهاون بها، بوضعها في النار، وإذلالها بالايقاد عليها إيقاداً مستعلياً،(١) يتناسب مع مقام الكبرياء، والقهر، ولأن الواحد القهار هو القادر على تسخير هذه النار لإذابة هذه المعادن، أتبع ذلك ببيان منفعتها، وأن الغاية من الإيقاد عليها شدة رغبة الناس في الانتفاع بها من حلية أو متاع أي أن هذا تكريم لها، وتشريفه بإعدادها للنفع والبقاء.(٢)

﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾

تأمل كيف تتحول وتخلص هذه المعادن من تلك الحالة الشديدة، والمكابدة والعناء، إلى هذا الجمال والبهاء، إلى حليةٍ تخطف ببريقها الأبصار، وتشنف بوسوستها الآذان وتشغف بمحبتها القلوب.

يقول أهل العلم(٣):

"وفي ذكر متعلق ابتغاء تنبيه على منفعة (ما يوقدون)"(٤)

ولعل وراء حرصهم على صوغ الحلي التي يتزين بها الناس تعبيراً عن رغبتهم في التمتع بمن يتحلى بهذه الحلية، أو بمتاع الحياة الدنيا، فإن الزينة

---

(١) انظر نظم الدرر ١٠/٣١٥.
(٢) انظر حاشية الشهاب ٥/٢٣٣.
(٣) نظم الدرر ١٠/٣١٦.
(٤) البحر المحيط ٥/٣٨٢.

والحلية والبهاء والجمال ،كان ولا يزال عند الناس من مباهج الحياة ومقاصدها . يقول عز وجل : (*)

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾

والمتاع : " ما يتخذ من الحديد والنحاس وما أشبهها من الآلات، التي هي قوام العيش،كالأواني والمساحي ،والآت الحرب ، وقطاعات الأشجار والسكك وغير ذلك ". (١)

والمتاع من التمتع الإمتِدادُ وَالإرتِفاعُ وكلُّ ما يُنتَفعُ بهِ على وجهٍ ما فهو مَتاعٌ ومُتْعَةٌ . (٢)

وفي تنكير (حلية) و (متاع) ما يشير إلى مدى حرص الناس وشدة رغبتهم في التمتع بهما ،ولو كانت حلية فانية ،ولو كان متاعاً إلى حين . كما يوحي التنكير بأنها حلية بالغة رائعة،ومتاع عظيم ، يمتد بهم ويرتفع وإن هذا حاصل ما دام الإيقاد على هذه المعادن مستمراً متجددا ، فالنفع من ورائها يعظم، ويكبر، حتى يصل إلى أوج فتنته وبهائه ،

(*) الرعد / ٢٦ .

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٠ .

(٢) الراغب مادة (متع) .

وهذا ما آل إليه حال البشرية اليوم من شدة الافتتان بهذه المعادن وتسخيرها لمتعة الإنسان وراحته.

ولعل وراء ذلك - والله أعلم - أن الله/ إنما يبتلي عباده بما يصفيهم، ويجلي جوهرهم، ويطرد الزبد والباطل عنهم، إنَّما يفعل ذلك ابتغاء تحليتهم، بالأحوال السنية، والأخلاق الزكية، التي بها جمال الرجال وقوام صالح الأعمال. (١)

إنَّما الأُمَمُ الأخلَاقُ ما بَقِيَتْ

فإن هُم ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

فهو متاع خالد، دائم، باق، خال من المضرة، ومما يكدر صفو العيش، وهناءته لذلك يأتي التعقيب :

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾

قال أهل المعاني: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة، الدائمة الخالية عن الانقطاع، المقرونة بالتعظيم والإجلال ". (٢)

---

(١) انظر القرطبي ٩/٣٠٦.
(٢) الفخر الرازى ١٩/٣٩.

تأمل ذلك الذى أعد للمحسنين، وقارنه بهذه المنفعة العاجلة، والحلية الحالية إلى حين .

وقوله تعالى : ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ لاشتراكهما في الزبدية .

وفي تنكير (زبد) ما يوحي بضآلته، وحقارته، والازدراء به وإن أعجب الناس كثرته، وظهوره، وعلوه، في بادئ الأمر إلا أنه مضمحل، وشيك الزوال، منسلخ عن المنفعة والبقاء .

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ (*)

جاءت هذه الجملة المعترضة لتفصل مآلهما، بعد أن تحدثت عن حالهما .

" والضَّرْبُ : إيقاعُ شيء على شيء، ومنه ضَرْبُ الأرْضِ بالمطَرِ، وَضَرْبُ الدَّراهِم اعْتبارًا بِضَرْبِ المِطْرَقَة .. وَضَرْبُ المَثلِ هو مِنْ ضَرْبِ الدَّراهِم، وهو ذِكْرُ شيء أَثَرُهُ يَظْهَرُ في غيْرِهِ ". (١)

(*) الرعد / ١٧ .

(١) الراغب مادة (ضرب) .

ويقول الشريف الرضي : " والمراد بضرب الأمثال (والله أعلم) معنيان، أحدهما: أن يكون تعالى أراد بضربهما تسييرها في البلاد وإدارتها على ألسنة الناس من قولهم ضرب فلان في الأرض إذا توغل فيها، وأبعد في أقاصيها، والمعنى الآخر في ضرب المثل أن يكون المراد نصبه للناس بالشهرة تستدل عليه خواطرهم، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم، وذلك مأخوذ من ضربت الخباء إذا نصبته ".(١)

وقوله " كذلك " فيه إشارة إلى أن ما ذكر في الآيات السابقة قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً بحيث صار نموذجاً كاملاً ومثالاً للحق(٢) والباطل، وكأنه لكمال التماثل بينه وبين ما مثل به عين الحق والباطل، وقولنا: إن هذا المثل يشبه الحق والباطل فيه إغفال لهذا المعنى الدقيق، فجاءت هذه الكاف لتفيد بلوغ المعنى تمامه، وتحقيق التمثيل وتثبيته وتوكيده .

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ١٢٣ للشريف الرضي .

(٢) انظر بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص : ٢١٥ .

تأمل كيف كان من علمائنا من يتذوق ويدرك أن وجوه الشبه لا تنحصر في وجه واحد بل قد تمتد وتتسع وذلك منهج عبد القاهر الذى أغفلناه في دراستنا بعد ذلك .

وهذا الوجه الذى صرح به في (التمثيل) إنما صرح به لما فيه من البشارة والنذارة لأهل الحق والباطل ،وأما أهل الباطل فهم الزائلون البائدون،وأما أهل الحق فهم الباقون الدائمون "(١) وهكذا يبدأ في التفصيل بما هو أهم في الذكر.

وعطفت جملة (فأما الزبد) على قوله (فاحتمل السيل زبدا رابيا) بعد أن تفرعت على التمثيل وجيء " بأما " للتوكيد . لأن النفوس لا ترى إلا الظاهر العالي الرابي فتظن أنه لن يزول فجاء التوكيد لهذا الخبر ليصرف أذهانهم إلى هذا الكلام الذى فيه ما فيه من خفى البشارة والنذارة .(٢)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣/ ١٢١.

(٢) المرجع السابق ١٣/ ١٢١.

" وأفرد (الزبد) ولم يثن وإن تقدم (زبدان) لاشتراكهما في مطلق الزبدية، فهما واحد باعتبار القدر المشترك ". (١)

وفي هذا إشارة إلى أن الباطل وحزبه ملة واحدة، وإن كثرت أحزابهم، واختلفت أساليبهم، وطرقهم في الكيد والطعن، وإثارة الشبه والفتن . وسواء أكانوا ظاهرين مجاهرين بالكفر، أو متلبسين مندسين عاملين في الخفاء، فكلهم تجمعهم صفة الزبدية ، والغثائية، التي لا خير فيها ولا منفعة ومن ثم فهي غير باقية .

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾

والجفاء : " وهو ما يرمى به الوادي ، أو القدر من الغثاء إلى جوانبه ". (٢)

يقال : أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ زَبَدَها أَلْقَتْهُ إِجفَاء وَأَجفأَتِ الأَرْضُ صَارَتْ كالُجفاء في ذَهَابِ خَيْرِها ". (٣)

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٨٢.
(٢) الراغب مادة (جفا) .
(٣) المرجع السابق وانظر المقاييس مادة (جفو) .

" وفي هذا وعيد للمشركين بأنهم سيبادون بالقتل ويبقى المؤمنون ".

ووراء استعمال " يذهب " بدلا من " يمضي " أن عين الباطل ومعناه ذاهبان، أي: أهله وماخلفوه من مناهج، وعقائد، ودعوات وشبه، ومنكرات، لأن الباطل قد يهلك أتباعه ويبقى منهجه.

ولكن كيف يذهب هذا الباطل أيذهب عاليا رابيا ظاهراً كما كان، وكما غلب على قلوب البشر واستعبدها وأذلها له .. أم يذهب منبوذاً مستهجنا حقيرا ذليلاً مصروعا مطروحا كما تطرح الفضلات والزوائد التي لا خير فيها ؟

يذهب الباطل " جفاء " ويذهب معه كل باطل يتجدد حدوثه وقيامه إلى أن يورث الله الأرض عباده الصالحين .

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١)

وجاء التعبير عن " الماء " الذى يمثل الحق بالاسم الموصول وصلته (بما ينفع الناس) إيماء إلى وجه بناء الخير وهو البقاء في الأرض ، وفيه من التعريض بالمشركين ما فيه لأنهم لا نفع فيهم للناس .. وهذا المعنى يتطابق مع قوله تعالى :

----

(١) الرعد / ١٧ .

* أنّ الأرضَ يرِثُها عبادِيَ الصّالِحُونَ * (١)

"و (النفع) كلمة تدل على خلاف الضر" (٢)

ويرى صاحب روح المعاني أن قوله تعالى :

" وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ "

يعني من الماء الصافي الخالص من الغثاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث . (٣)

وفي بناء الجملة على هذه الصورة (مَا يَنفَعُ النَّاسَ) إشارة إلى تعدد وجوه النفع واستمراره استمراراً تجدديا تظهر به وجوه أخرى ، كبيرة وعظيمة من المنافع ، والعالم اليوم / كله يشهد بعظم نفع الماء والمعدن في إقامة هذه الحضارة العلمية الباهرة التي بهرت الألباب واختلبت النفوس ، ولله هذا القرآن !! .

فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

" المُكْثُ : كلمةٌ تدلُ على توقفٍ وانتظارٍ ". (٤)

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥.
(٢) المقاييس ٥/٤٦٣.
(٣) روح المعاني ١٣/١٣٢.
(٤) المقاييس ٥/٣٤٥ مادة (مكث).

وعدم استعجال ،فالحق باق في الأرض ببقاء منهجه الذى تكفل الله بحفظه :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١)

وباق ببقاء أهله :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (٢)

وفي قوله تعالى :

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ (٣)

جمع ثم تقسيم ،فيبدأ بذكر الزبد أولا ،لأن ذكره أهم فهو الظاهر المنظور الذى أغر وخدع ،وملك واستعبد ،فالنفس في توق لمعرفة مآله وقدرة الله على الذهاب به ،ولأن الحق هو المتأخر في الوجود لاستمراره.

والرأى الراجح : إن ذلك الترتيب من قبيل اللف والنشر غير المرتب ،وهو مراعاة للملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء،وبين ذكرهما ،فان المعتبر إنما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب،لا قبله ،لأنه ما دام الباطل مستمرا في الوجود فسيحول بين الحق وبين الانتفاع به على الوجه الذى يسر له، ولكن ذهاب الباطل خلوص للحق للانتفاع به على أكمل وجه وأعظمه .

---

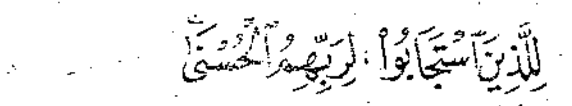
(١) الحجر / ٩.

(٢) الحج / ٤١.

(٣) الرعد / ١٧.

وبعد ذلك فسيظل الحق وأهله في انتظار ولهفة وشوق وتوق للمنفعة الكبرى التي دونها كل منفعة ، وللنعيم الأبدى الذى ليس فوقه نعيم، وفي ضرب هذا المثل توكيد للإيمان باليوم الآخر ، وبالبعث والجزاء الذى جاء الحق لتثبيته وتقريره في النفوس .

لذلك تأتي البشارة بقوله تعالى :



" والحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال " (١)

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ (٢)

" كذلك " للتحقيق والتوكيد أى مثل ذلك الضرب العجيب :

(يَضْرِبُ اللّٰه الأَمْثَالَ) في كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية في الإرشاد ، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله سبحانه :

يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ (٣)

وهكذا يبين الله الحق والباطل حالا ومآلا .

---

(١) الفخر الرازى ٣٩/١٩ .

(٢) الرعد /١٨ .

(٣) الرعد /١٧ .

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ
أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

سورة إبراهيم / آية ٢٤ - ٢٧.

من أسرار المناسبة :

وحدة الرسالة والرسل هما الحقيقتان اللتان تدور حولهما سورة إبراهيم عليه السلام، فدعوتهم واحدة، وغايتهم واحدة، وتلك هي الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلا :

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١)

فهي الكلمة التي دعا إليها كل رسول، كلمة التوحيد، وعليها يقوم الدين كله، يقابلها في الجانب الآخر كلمة خبيثة، هي كلمة الكفر والشرك التي حملت أتباعها على التكذيب بالرسل، ومجادلتهم بالباطل، وكان بينهم ذلك الحوار الطويل، الذى انتهى بتكبيس الكفار في نار جهنم، وإحراق أعمالهم ونسفها :

﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (٢)

ولما وعد الله عباده ورسله بأنه سيمكن لهم في الأرض، ويهلك الكافرين، ناسب أن يمثل لهذا التمكين والتثبت، ويمثل لما يقابله من اجتثاث أهل الباطل وهلاكهم .

---

(١) إبراهيم / ٢٤ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

من أسرار اللغة والنظم :

(أَلَمْ تَرَ) الخطاب هنا لكل من تصح منه الرؤية فعليه أن يرى،لأنه مثل تناهي قدره،وعظم شأنه، فعلى كل راء تتأتى منه الرؤيـة أن يراه ، ولا يغفل عنه ،وفي ذلك أيضا إيحاء بالرغبة في تعميق صورة هذا المثل في وجدان كل راء،لتكون له حافز على السعي لتحصيله والفوز به، وهذا ما نستوحيه من قول الفخر الرازى :

" إنَّ الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكّها لنفسه لأنّ هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل ". (١)

وفي إيثار التعبير(بكيف) دلالة على أن حالة ضرب المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه . (٢)

وعندما استقصيت هذه الصيغة في القرآن الكريم لم أجدها ترد إلا مع هذا المثل من الأمثال القرآنية،وفي ذلك ما يؤكد تفرد هذا المثل بهذه الكيفية العجيبة،وذلك حفاوة بالمعنى وإيقاظاً للذهن لترقب ما يرد بعد هذا الكلام.

---

(١) الفخر الرازى ١٩/١٢٣.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢٢٣.

وفي ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير، وتصوير للمعاني .

ثم تأمل ما تثيره صيغة هذا الفعل الماضي (ضرب) من زيادة التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به، وهذا الاسم الجليل من قوله (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا) يوحي بادئ ذي بدء بما تنطوي عليه الكلمة الطيبة من معاني الألوهية الخالصة لله .

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد .

وعن ابن عباس : شهادة أن لا اله إلا الله .

وفي تنكيرها ما يوحي بأنها كلمة لا يكتنه قدر جلالها فهي كلمة عظيمة القدر، كاملة في الصفة الموصوفة لها (طَيِّبَةٍ) .

وفي ذكر أداة التشبيه في قوله (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) ما يشير إلى أن هذه الشجرة الطيّبة الموصوفة بها الكلمة الطيبة ليست هي عينها، بل دونها مَنزلة ورتبة فالأمثال التي يضربها الحق جل جلاله لتقريب هذه المعاني ، مستقاة من أنفسنا، ومن هذا الكون المحيط بنا ، فالكلمة كلمته، والشجرة مخلوقته ، فلا عجب أن يضرب بها مثلاً لكلمة تناهى قَدْرها وفضلها، ليكون في ذلك من العظة والعبرة ما فيه .

وحسبك ما يوحيه تجردها من التعريف لتكون بصفتها هذه وحدها لا تضاهيها أشجار الدنيا وقد اجتمع لها طيب النظر والرائحة والثمرة وعظم

الانتفاع بها فحصل لها بذلك كمال الطيب . (١)

ويشير الرازى إلى أن في الآية مقصودا شريفا لا ينكشف بالنظر في المفردات وحدها وإنما بالنظر في تتابع الكلمات وما بينها من علاقات وينوه بهذه الصفات اللاحقة للشجرة وهي صفات أربع :

١ - طَيِّبَةٍ .

٢ - أَصْلُهَا ثَابِتٌ

٣ - وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

٤ - تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .

ويعقب على هذه الصفات الأربع بأنها صارت بها هذه الشجرة شجـــرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه سواء أكان لها وجود في الدنيا أو لم يكن . (٢)

قال تعالى :

أَصْلُهَا ثَابِتٌ * وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

ثبت كلمةٌ واحدة وهي دَوامُ الشيء . (٣)

---

(١) الفخر الرازى ١١٩/١٩ .

(٢) انظر الفخر الرازى ١١٩/١٩ .

(٣) المقاييس (ثبت) .

ثم تأمل هذا التركيب تجد تقديم كلمة (أصلها ثابت) وهذا دال على كمال العناية والاهتمام . وهو تقديم رتبه .

يقول الألوسي (تقديم الأصل للعناية به وبيان أنه ضارب بعروقه في الأرض) .(١)

متمكن فيها آمن مما يعترى الأصول من الاقتلاع والانقطاع وفي مجيء الصفة على صيغة اسم الفاعل ما يؤكد ثبات هذه الصفة ودوامها وهذا لب ما يرمى إليه التشبيه كما أن فيه إيحاء بما يداخل النفس من البشاشة والأنس حين تعلم أن هذا الشيء الطيب باق دائم لا يزول ولا ينقضي فيكمل فرحها ويتم سرورها .

(وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) :

أى أعلاها في جهة العلو والصعود .

وفي هذا تأكيد لصفة ثباتها وكمال طيبها ، " إذ أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق كما يدل ارتفاعها على نقاء ثمرتها وطيبها وطهارتها عما يشوبها من شوائب الأرض فيما لو كانت قريبة دانية ". (٢)

---

(١) روح المعاني ١٣/٢١٣.

(٢) المصدر السابق بتصرف ١٣/٢١٣.

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا :

أى تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها .(١)

فثمرتها حاضرة في كل الأوقات والانتفاع بها غير منقطع ثم يزيد هذه الثمرة تشريفا وتكريما وفضل عناية قوله عز وجل : (بإذن ربها) وما دامت الشجرة تؤتي أكلها بإذن ربها فيا طيب ثمرها وبركته ويا دوام عطائها والأمن من زواله أو انقطاعه ، لأنه المربي الذى تربو الأشيـــاء بين يديه وتنمو إلى ما لا حد .

ثم في هذا إشارة إلى أن ثمرة الكلمة الطيبة أعني ثمرة الإيمان هي أيضا مرهونة بإذن الله فالطاعة والذكر والاستمساك بشرع الله كل ذلك بفضل هدايته وتوفيقه وتثبيته لعبده لأنه المربي الذى يربي خلقه ويتعهد نفوسهم بالتزكية والتنقية .

ثم في هذا العطاء المضمون كل حين دليل من أعظم الأدلـــة وأوكدها على أن جذور هذه الشجرة وأصولها ضاربة في أعماق الأرض متمكنة منها تمدها بالحياة والرواء والعطاء وفيه إشارة إلى أن ثمـــرة الإيمان إنما تكون أيضا حين يتغلغل في أعماق النفس وتخالط بشاشته القلوب .

---

(١) الكشاف ٢/٣٧٦ .

وجه تطبيق المثل :

وقد ذهب المفسرون إلى أن وجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوته بما ذكر هو أن أصل تلك الكلمة ومنشأها هو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين فمتى اعتقد المؤمن هذه الكلمة واطمأنت إليها نفسه منحته ثباتها وطيبها وتفرعت عنها و وبنيت عليها الأعمال الصالحة والأفعال الزكية التي تصعد إلى السماء فينال بركتها ثوابها فهو الثمرة التي تؤتيها كل حين .(١)

وللفخر الرازى لطائف ودقائق في تفسير هذه الآية نقف على بعض منها فمن ذلك قوله :

" إن المراد بالكلمة: معرفة الله والاستغراق في محبته وطاعته لأنه لا لذيذ ولا طيب في الحقيقة إلا هذه المعرفة وثبوت الأصل في شجرة المعرفة الإلهية أقوى وأكمل لأنها ثابتة في جوهر النفس يهدها الذى لا يجرى عليه تغير ولا تبدل ولا فناء وأن هذه الثمرات التي تؤتى كل حين أثر لرسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب فيكون نظره بالعبرة

---

(١) روح المعاني ٢١٢/١٣ بتصرف .

وسماعه بالحكمة ونطقه بالصدق والصواب وكلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ثم لا يزال يصعد منها كل حين ولحظه ولمحه كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل كثمر هذه الشجرة". (١)

وتفسير الثمرات بأنها الصالحات عينها لا يخالف ما ذهب إليه من قال بأنها الثواب المترتب على العمل الصالح لأنّ هذا يكون في حالة رقي المؤمن الذي يصبح العمل الصالح نفسه قرة عينه وثمرة إيمانه ويدعم ذلك قوله عليه السلام :

(وجعلت قرة عيني في الصلاة) (٢) .

وبذلك يترجح لدينا ما سبق أن أشرنا إليه من أن المراد إثبات وتأكيد صفة الثبات والرسوخ لهذه الشجرة الإيمانية وأن تصاعد فروعها ووفرة قطوفها وعدم انقطاعها أعظم دليل على امتداد جذورها في تربة القلب وتمكنها تمكنا لا ينقطع ولا ينقلع .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٩/١٢٠.

(٢) رواه النسائي وأحمد في الزهد وابن أبي شيبة والحاكم في المستدرك وابن سعد والبزار وأبو يعلى وابن عدى قال الحافظ ابن حجر في (تلخيص التحبير) إن اسناده حسن .
نيل الأوطار للشوكاني ١/١٥٧.

وصفة الثبات هذه ذكرت في مواطن عديدة من القرآن الكريم

منها تثبيت قلبه(عليه السلام) بنزول القرآن منجما وتثبيته للمؤمنين:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (١)

ومنها تثبيت المؤمنين لأنفسهم باتباع ما يوعظون به والإنفاق

في سبيله :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٢)

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (٣)

ومن مجموعها نخلص إلى أن القرآن والقول الثابت والعمل الصالح والجهاد والإنفاق في سبيل الله أي فعل الطاعات من أعظم العوامل التي تثبت المؤمنين في الدنيا والآخرة وكلها تتفرع عن الكلمة الطيبة .

---

(١) النحل / ١٠٢.

(٢) النساء / ٦٦.

(٣) البقرة / ٢٦٥.

ويقول صاحب عمدة القاري : (لما الحكمة بالتمثيل بالشجرة ؟

قلت : لأن الشجرة لا تكون إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال ، فكذلك الإيمان لا يقوم ولا يثمر إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان ". (١)

ثم يأتي في مقابل تلك الصورة الخصبة الموغلة في الثبات والبقاء المغدقة بالحياة والعطاء صورة على النقيض تماما من ذلك لم يضرب الله لها مثلا تنبيها إلى وجوب رؤيتها لأن تناهي خبثها وعدم نفعها بلغ مبلغاً لا يخفى على أحد . وإنما وضعها في هذه الصورة المحسوسة :

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾

ليكون أدعى لنفرة النفوس منها والوقوف على ضلالها وبطلانها واضمحلالها .

وفي تغيير الأسلوب فلم يقل : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة خبيثة) وإنما قال (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ) إيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان لأنه أمر ظاهر يعرفه كل أحد وربما كان ذلك لكثرته وشيوعه وغلبته على أكثر أهل الأرض :

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (٢)

---

(١) عمدة القاري ١٩/٥٠ .

(٢) المائدة / ١٠٠ .

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ . الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر أو الدعاء إليه أو الكذب * أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى .(١)

وفي تنكيرها ما يوحي بأنها كلمة تناهى خبثها وعظم قبحها .

(كشجرة خبيثة) : أى كشجرة منكرة خبيثة تتميز عن الشجر في أنها لا نفع فيها ولا خير يرجى منها فهي بالغة الخبث، وأداة التشبيه توحي بأن الكلمة الخبيثة أكثر خسة وأعظم خبثا من هذه الشجرة فبينهما فضل بين وفي ذلك من الازراء بها والإهانة والتحقير لشأنها ما فيه .

يقول ابن فارس (خَبُثَ يدلُّ على خلاف الطَّيّب يقال خبيثٌ أى ليس بطيِّب والخبيث في نفسه) .(٢)

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾

اى اقتلعت من أصلها و حقيقة الاجتثاث أخذ الجثة وهي شخص الشيء كلها .(٣)

---

(١) روح المعاني ١٣/ ٢١٤ وأبو السعود ٥/ ٤٤ ١.

(٢) المقاييس (خبث) .

(٣) روح المعاني ١٣/ ٢١٤.

يقول ابن فارس " ولا يكون مجثوثاً إلاّ وقد قُلِع بجميع أصوله وعُروقه حتّى لا يُترَك منه شيءٌ ". (١)

ثم تأمل كيف عبرت هذه الكلمة بصورتها وجرسها وخصائصها الصوتية عن معنى الاجتثاث أبلغ تصوير وأعظمه .

إذ أن كلمة (اجتثت)، يشير بنائها الصوتي إلى معنى الاقتلاع والقطع وذلك أن الحرف الأول فيها وهو همزة الوصل : ومخرجه من أقصى الحلق وكأنه يشير إلى امتداد الجذور ثم أنه امتداد واه ضعيف لأن (همزة الوصل) همزة ساقطة في أكثر أحوال نطق الكلمة ثم هي ليست أصيلة في بنية الكلمة وإنما اجتلبت تسهيلا للنطق بها ، وربما كان في هذا (والله أعلم) أن امتداد هذه الجذور امتداد ضعيف وكأنه ممتد بمقدار ما تكون به الشجرة شجرة يعني يلامس التربة ملامسة، ثم في حرف الجيم الخارج من وسط اللسان انتقال إلى ما يقارب السطح، ثم في هذه القلقلة حركة النزع، ثم في هذه الثاء إشارة إلى نهاية هذا النزع والثاء مخرجها من طرف اللسان ، ثم في هذا النفس والانتشار من صوت الثاء إشـــارة

---

(١) المقاييس مادة (جث) .

إلى ما يكون في التربة من بعثرة وانتشار من أثر هذا النزع .

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ : أى استقرار.

(يقال : قر الشيء قرارا كقولك ثبت ثباتا) (١)

وهذه الجملة كالمتممة للصفة الثانية فقوله :

﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾

فيه إيحاء بأنها قد تستقر في موضع آخر فأكد عدم استقرارها (مالها من قرار) .

وفي حرف (من) ما يؤكد نفي القرار مطلقا فليس لها ولا أقله .

---

(١) الكشاف ٢/٣٧٧.

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحق والباطل :

وهكذا نجد أن المثلين وإن كانا يبدوان أنهما صنوان متشابهان في الشكل والنتيجة إلا أن هناك أسراراً لتنوعهما لا يظهرها إلا التحليل الواعي المتأني الدقيق ومدارسة الآيات كلمة كلمة ، وحسن الإصغاء إلى خفي وحيها ودقيق نبضها .(١)

ولم أقف في أقوال المفسرين على أسرار هذا التنوع إلا ما ذكره ابن عاشور حيث يقول :

" وهذا تمثيل آخر ورد استطرادا عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة وهم المقصودون ، فقد كان لهم في مكة صواغون فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بمثل ما يصهر من الذهب والفضة ".

١ - والذى يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الأمة في أول أمرها هم أهل البادية في قوة بيانهم وقوة أبدانهم وصحة طباعهم وسلامة أذواقهم وهم الذين شهدوا نزول الوحي من السماء ، تسيل به هذه القلوب المؤمنة،

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ١٠٢.

فلا غرابة أن يفجر لهم ينبوع الحق ماثلا في هذه الصورة التي ألفوها وخالطت نفوسهم وملأت قلوبهم إعجابا وافتتانا وهكذا تجد التمثيل في القرآن الكريم ، يخاطبهم بعناصر مستوحاة من بيئتهم و محيطهم حتى تأنس نفوسهم بما يرون ويقر في قلوبهم ويثبت ثبات هذا الحق وبقاءه .

وحتى تستكمل الصورة البيانية جمالها وقوتها ، جاء التعبير عن هذه المعاني بهذه الألفاظ الصاخبة الجرس القوية الأداء ، والتي تلائم هذه الجبلة البدوية الدمثة الخلق المتينة الطباع فكأن قوة التعبير هنا تتبع قوة المعنى .(١)

بينما تجد التمثيل في المثال الثاني الذى يعبر عن صورة مستوحاة من بيئة حضرية ، جاء بألفاظ لينة رقيقة تناسب طبيعة الحضر وما هم فيه من حلية و متاع ، فقال تعالى :

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ (٢)

وتدور المادة اللغوية التي كونت أساليب التشبيه وعناصره حول الماء النازل من السماء - الأودية المختلفة المقدار التي سالت به والزبد الرابي الذى احتمله السيل عند جريانه وجيشانه .

---

(١) انظر النظم القرآني ، محمد الدبل ص ١٣٣ .
(٢) انظر المصدر السابق .

وتدور مادة التشبيه الثاني عن نشوء زبد يماثل الزبد الأول

المعادن التي يوقد عليها في النار ابتغاء الانتفاع بها لحليــــة أو

متاع .

وهذا التشبيه للحق والباطل وان كان يشترك في معنى عام هو بقاء الحق وثباته وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل صورة منــه تتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله الآخر :

١ - التشبيه الأول : يمثل الحق الذى نزل من السماء فتلقتــه هذه الطائفة المؤمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل بالتكذيب والإنكار وقد جاء التعبير عنه بالفعل الماضي في - (أنزل) و(سالت) و (احتمل) والذى يفيد تحقق ذلك ووقوعه فهو تمثيل لصورة قامت وكملت وتمت.

بينما نجد التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع (يوقدون) الذى يصف الحق أو أهله وهم في هذه الحالـة التي يوقد فيها عليهم في صورة متجددة مستمرة كلما خبت نارهم زادوها استعارا . وما وراء ذلك من الجهد والمعاناة والمكابدة والصراع المتجدد المستمر فهو يصف صوره متكرره في كل زمان ومكان .

٢ - من أسرار التنوع أن الزبد الأول أظهرته حركة السيل في اندفاعه وقوة جيشانه .

والثاني أظهرته حركة الإيقاد على هذه المعادن في النار والغليان والانصهار فكأن قوة الماء في اندفاعها تماثل قوة النار في إظهار الزبد وطرده .

٣ - من أسرار التنوع أن المثلين وان كانا يشتركان في العاقبة والنتيجة وهي ذهاب الباطل وبقاء الحق

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ

لكنهما يختلفان فذلك الماء يستقر في منابعه وعيونه لينتفع الناس به حياة لكل شيء وهذا المعدن تتخذ منه الحلية أو المتاع فكأن نفع ذلك للروح إذ به حياة كل شيء ونفع هذا للمعاش وما به قوام الحياة من حلية ومتاع .

٤ - من أسرار التنوع/ هذا التقابل في المعاني : ففي المثال الأول أجواء ماطرة ندية تتناسب مع ظمأ القوم وخلو تلك الأودية التي تمثل القلوب من الماء والحياة ليبسها وجفافها .

وفي المثل الثاني : أجواء حارة شديدة الحرارة تتناسب مع صلابة هذه المعادن وقسوتها و مع شدة رغبة الناس في الانتفاع بها مما به قوام معاشهم وحياتهم الدنيا ، فناسب أن يكون هذا الجو الشديد الحرارة لتنصهر فيه هذه المعادن وتتخلص مما شابها وينتفع بها .

٥ - من أسرار التنوع أن :
المثل الأول يصف حالة قوم استجابوا لله وقوم لم يستجيبوا ، لذلك أعقب التمثيل بقوله عز وجل :

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (1)

بينما المثل الثاني يصف الحق وهو يوقد عليه وما وراء ذلك من المعاناة والجهد والمكابدة والصبر على هذا الإيقاد ثم خلوصه منه نافعا أعظم ما يكون النفع وأكمله وأتمه .

---

(١) الرعد / ١٨ .

ولذلك ناسب ولاءم أن تأتي الآيات بعد ذلك تصف حالة هؤلاء الذين صبروا ابتغاء مرضاة ربهم ولم ينقضوا الميثاق وما أعد لهم يقول سبحانه :

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (١)

إلى قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢)

تأمل قوله (يدخلون عليهم من كل باب) وكيف أحاط بهم النعيم وأصبحت وفوده تفد عليهم من كل باب ،مقابل ما كان يحاط بهم

---

(١) الرعد / ٢٠ .

(٢) الرعد / ٢٢-٢٣ .

ويدخل عليهم من كل باب من كيد وفتن ومحن .

ثم تأمل قول الملائكة لهم والذى يتلاءم مع ما كانوا يعانونه وصبروا عليه :

سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (١)

والذين جانبوا الحق في التمثيل الثاني ومن عناهم القرآن الكريم بقوله :

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ

والذين تصفهم الآيات بشدة فرحهم بالحياة الدنيا واقبالهم على متعها .

يصرح السياق القرآني بصفاتهم وما أعد لهم مقابل ماأعد للمتقين

يقول تعالى : وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ
مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ (٢)
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ

---

(١) الرعد / ٢٤ .
(٢) الرعد / ٢٥ .

تأمل اللعنة والطرد التي تتلاءم مع قوله تعالى :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾

وأما المثلان الآخران اللذان يصوران كلمة التوحيد وكلمة الكفر فتدور مادتهما وعناصرهما اللغوية المكونة لأسلوبهما حول الشجرة الطيبة الموصوفة بالأصل الثابت والفرع العالي والإثمار الدائم.

والشجرة الخبيثة وما يتعلق بها من أحوال ومواصفات كاجتثاثها من فوق الأرض وعدم قرارها .

وهذان المثلان يشتركان مع المثلان السابقان في معنى عام هو بقاء الحق وثباته وذهاب الباطل واضمحلاله إلا أنهما يأتيان كنتيجة مترتبة على ما سبق .

١ - فمن أسرار التنوع أن يأتي تمثيل الإيمان والتوحيد بالشجرة الطيبة متناسقا ومتناسبا مع تمثيل الحق بالماء الذى أنزل من السماء لأن الشجرة الطيبة هي ثمرة ذلك الماء السامي الطاهر النقي الذى استقر في الأرض فأثمر وأينع فكانت ثمرته هذه الشجرة الطيبة في قلب المؤمن ، والتعبير بشجرة واحدة طيبة يمثل وحدة الرسالة ووحدة الغاية التي دعا إليها الرسل جميعا وهي المقصد الرئيسي الذى تدور عليه هذه السورة سورة إبراهيم .

فذلك الماء المبارك إنما عم الوجود ليرسخ جذور هذه الشجرة الطيبة ويثبت أصولها فتورق فروعها وتؤتي أكلها بإذن ربها كل حين كما أن هذه الشجرة تعبير حي رائع للتمكين الذي وعد الله به عباده المؤمنين :

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ (١)

وإذا كان الحق نزل ليثبت دعائم هذه الشجرة الإيمانية الطيبة فإنه ولا شك يقتلع جذور الشجرة الخبيثة شجرة الكفر والشرك كما ذهب بذلك الزبد الطافي الرابي .

وبعد أن ذهب بزبد الباطل من الشبه والشكوك التي طافت فوقه في بداية دعوته أو خالطت معدنه ، ولكنه بعد رسوخه وثباته وتمكنه في الأرض فانه يجتث الباطل بجميع أصوله وعروقه ، وهكذا :

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

فلا ثبات لهم ولا استقرار .

---

(١) إبراهيم /٢٧ .

الفصل الرابع :

التشبيهات التى تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها .

المدخل :

تناول القرآن الكريم أعمال الكافرين في مواضع كثيرة منه بين فيها أنها باطلة لاغية لا منفعة ترجى منها ولا خير فيها فهي حابطة مهما عظمت وكثرت.

وقد جاء هذا البيان على طريق الحقيقة دون تشبيه كما جاء عن طريق التشبيه .

ومما جاء عن غير طريق التشبيه قوله تعالى :

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١)

وبين سبحانه سبب احباطها وبطلانها - وهو أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر :

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾(٢)

سواء أكانوا مجاهرين بالكفر أومبطنين ذلك كالمنافقين .

ومع ذلك فقد زينت لهم أعمالهم وحسنت في أعينهم حتى تمادوا في ضلالهم وترددوا في غيهم يعمهون .

---

(١) هود / ١٦.

(٢) المائدة / ٥.

قال تعالى :

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا (١)

وقال : هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (٢)

كما بين القرآن الكريم أثر أعمالهم تلك على قلوبهم وكيف حجبت عنهم نور الهدى والحق والإيمان.

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣)

كما جاء الحديث النبوى الشريف، يؤكد ذلك ويقرره وكيف تنطبع الأعمال على القلوب فتحول بينها وبين التمييز بين الخيروالشر وتطمس فيها نور الفطرة .

---

(١) فاطر/ ٨ .
(٢) الكهف / ١٠٤
(٣) البقرة / ٠٧

قال عليه الصلاة والسلام :

(تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر منكر إلا ما أشرب هواه) (١).

وأما ما جاء في القرآن الكريم عن طريق التشبيه فقد ورد في مواضع عديدة وسور مختلفة .

جاء في سورة إبراهيم :

مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (٢)

كما جاء في سورة النور :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ

---

(١) مختصر صحيح مسلم تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٢٨.

(٢) إبراهيم / ١٨.

حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ
مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ
يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (١)

كما جاء وصف ذلك في سورة الفرقان :

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢)

ويلاحظ أن عناصر التشبيه التي كونت أساليبه هي :

الرماد - الريح - اليوم العاصف -/ سراب بقيعة - الظلمات -

البحر اللجي - وأحواله من ترادف أمواجه وكثافتها - السحاب

الهباء المنثور .

وكلها يجمعها معنى عام هو فناء هذه الأعمال وبطلانها وأنها لا حقيقة لها ولا منفعة فيها فهي لاغية مضمحلة متلاشية ومع ذلك فإن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق الذى وردت فيه لأن لكل تشبيه في القرآن سياقا جاء مطابقا له وهذا لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلا عن إعجازه .

---

(١) النور / ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الفرقان / ٢٣ .

وسنبدأ بسورة إبراهيم نقف على بعض أغراضها ومقاصدها لأن مقصود كل سورة هاد إلى تناسبها كما ذكر الإمام البقاعي وهو المنهج الذى ارتضيناه في دراساتنا هذه وسرنا عليه من بداية البحث .

قال تعالى :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

سورة إبراهيم / الآية ١٨ .

من أسرار المناسبة :

من مقاصد سورة إبراهيم - عليه السلام - تثبيت العقيدة في أصولها الكبيرة الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء ويكاد يكون هدفها وغرضها الأساسي " الرسالة والرسول " ، فقد تناولت دعوة الرسل وبينت وظيفتهم ووحدة رسالتهم .

وهاتان الحقيقتان اللتان تدور حولهما السورة الكريمة ، وهما وحدة الرسالة والرسل تتناسقان مع اسم السورة وعنوانها الدال على مقصودها ، فابراهيم عليه السلام أب الأنبياء وإمام الحنفاء الذى حطم الأصنام وحمل راية التوحيد وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذى بعث به خاتم الأنبياء .(١)

وتتميز سورة ابراهيم عن غيرها من السور التي ذكر فيها الأنبياء أن هاهنا معركة قائمة بين الرسل جميعا وبين الكفار ، فهؤلاء تجمعهم رسالتهم ووحدة دعوتهم ، وهؤلاء يجمعهم باطلهم وجاهليتهم ، فكلاهما على صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان .(٢)

---

(١) انظر الظلال ٤/ ٢٠٧٩ وصفوة التفاسير ٢/ ٨٩ .

(٢) انظر في ظلال القرآن . ص ٢٠٧٩ هـ ٤

وإذا ما اقتربت من سياق الآيات الكريمات ، وأصغيت إلى مايدور بينهما من حوار ، راعتك حالتهم التي انتهوا إليها من الطغيان والعناد والفساد وجرأتهم على رسل الله واعتدادهم بقوتهم المادية .

يقول سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝﴾ (١)

قال أبو حيان في البحر :

" ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم ، أقسم تعالى على إهلاكهم ، وأى اخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبدا) . (٢)

تأمل كيف يأتي الوحي من السماء حين تطغى الأمم على رسلها ليدمر طواغيت الكفر ، ويقتلعها من جذورها ، ويثبت الذين آمنوا ويمكن لهم في الأرض .

---

(١) الآية ١٣ - ١٤ من سورة إبراهيم .
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١١ .

قال تعالى :

وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١)

ثم تأمل كيف يتناسب هذا العذاب الشديد الذى يسقى فيه الكافر من ماء صديد ، يبتلعه مرة بعد مرة ، فلا يكاد يستسيغه لقبحه ومرارته ، مع غلظتهم وشدتهم على رسل الله الأكرمين ، وما يلاقونه من أنواع الأذى والأقوال والأفعال ، ومحاولتهم إرجاع رسل الله في ملتهم ، فأذاقهم الله طعم الكفر ، الذى استساغوه في الدنيا وحاولوا إكراه رسل الله على العودة فيه ، فليستسيغوه اليوم ، إن كانوا قادرين أو طعم أقوالهم وأفعالهم التي آذت رسل الله فما أشبهها بماء صديد .

----

(١) الايات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة إبراهيم .

ولكن العذاب ليس قاصرا على هذا فحسب ، بل إنه يتسع ليشمل المكان والزمان ، فهذا الموت يأتيه من كل مكان ،ليستكمل عذابه وما هو بميت مستريح ،ثم من بين يديه على امتداد الزمان عذاب أشد مما قبله ،وأغلظ يستقبله كل وقت .(١)

وهكذا ينهض التمثيل القرآني البديع في هذا الوقت العصيب ليؤكد شدة هذا العذاب الغليظ ،بأن لا يدع لمؤمل أملا لأنه قد يخطر ببال من يسمع عن شدة عذاب الكافرين أن لهم أعمالا تنفع وقربات تشفع في تخفيف هذه الشدة عنهم.(٢) ولكن هيهات هيهات فأعمالهم التي كانوا يأملون نفعها وشفاعتها أصبحت :

﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

يقول الزمخشري " شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجه برماد طيرته الريح العاصف ".(٣)

---

(١) أبو السعود ٥/٠٤٠ بتصرف

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢١٢.

(٣) الكشاف ٢/٣٧٢.

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ (١)

ركزت صورة التمثيل هنا على بيان عدم النفع لأعمال الكافرين وأنها تذهب يوم القيامة بدداً بحيث لا يمكن استدراكها وأنى يستدرك الرماد الذى يمثل الفناء والعدم، وإعادته من جديد إلى ما كان عليه بعث للحياة بعد موت وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى لذلك تكون حسرتهم أشد وبلاؤهم أنكى والمثل يستعار للصفة التي فيها غرابة. (٢)

---

(١) إبراهيم / ١٨.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٧٢.

أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن أن اعمالهم كرماد اشتدت به الريح .(١)

ثم تأمل كيف جمع بين الذين كفروا وأعمالهم حيث شملهم هذا الوصف :

كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ

ولعل السر البلاغي وراء ذلك أن الانسان وعمله متحدان لا ينفصلان فإن كان عمله رمادا فهو أيضا كالرماد لا وزن له وإن كان عمله سرابا فكذلك هو لا ذكر له يخلد به :

* ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * .

ولو قيل مثل أعمال الذين كفروا كرماد اشتدت به الريح لانطفأ هذا المعنى .

كما أن وراء هذا الجمع :

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ

إشارة إلى أن كفرهم بربهم هو الذى تسبب في محق أعمالهم والعصف بها .

---

(١) انظر أبو السعود ٥/٠٤٠.

ثم وازن بين قوله تعالى في سورة النور ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ وقوله في سورة إبراهيم ﴿ ومثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ﴾ وكيف قيد في سورة إبراهيم كفرهم (بربهم) والذى تتجلى ربوبيته في سياق السورة الكريمة ، وتتألق شمسها ساطعة مشرقة ، يقول تعالى :

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١)

ويقول : فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢)

ثم يَعْظُم تجليها في دعوة إبراهيم عليه السلام التي ترتفع لتقر الربوبية وتحطم الأصنام .

رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ (٣)

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ (٤)

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ (٥)

---

(١) إبراهيم / ٠١.

(٢) إبراهيم / ١٣.

(٣) إبراهيم / ٣٥.

(٤) إبراهيم / ٣٦.

(٥) إبراهيم / ٣٧.

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ (١)

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ (٢)

وكأنها إيقاعات متواليات تقررهم بتحقيق الربوبية التي جحدوا بها وكفروها . قال تعالى :

أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ (٣)

كرماد - تأمل كيف أومأ بالرماد إلى عطية الاحتراق لأن الرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء ". (٤)

ثم تأمل ما وراء ذلك من السحق والإهانة والذلة لهـــؤلاء الكافرين .

وفي تنكيره ما يوحي بكثرته وأنه رماد عظيم مكـــدس معايدل على كثرة ما حرق ووراء ذلك كثرة أعمالهم الخبيثة الفاسدة المبنية على غير أساس من إيمان بالله وابتغاء وجهه .

ثم تأمل تلك الحسرة البالغـة حين يصبح ما كان يعجب به الكافر ويباهي في أحلك ساعاته وأعسرها رماداً.و" (شد)الشين والدال

----

(١) إبراهيم / ٣٧ .

(٢) إبراهيم / ٣٨ .

(٣) إبراهيم /١٨

(٤) القرطبي ٩ / ٣٥٣ .

أصل واحد يدل على قوة في الشيء وفروعه ترجع اليه من ذلك شددت العقد شداً اشدُّه ". (١)

"وشَدَّ فُلانٌ واشْتَدَّ إذا أسْرَ عَ ". (٢)

لذلك جوز العلماء هذين المعنيين فقالوا أن الباء هناللتعدية أوللملابسة فهي إما بمعنى حملته وأسرعت به أوبمعنى قويت بملابسه حمله. (٣)

تأمل هذا وكيف تقوى الريح بحمل هذا الواهي المهين الذى لا وزن له وما وراء ذلك من شدة العصف وما وراء شدة العصف من غضب وشدة عذاب .

ثم تأمل الفرق بين قولنا اشتدت به واشتدت عليه فقد تشتد عليه وهو ثابت لا يتبدد .

---

(١) المقاييس من (شد) .

(٢) الراغب من (شد) .

(٣) انظر أبو السعود ٥/ ٤٦ ، وروح المعاني ١٣/ ٢٠٤ .

ثم تأمل كيف تتسع دائرة هذا العصف لتشمل اليوم كله وذلك حينما أوقع التعبير القرآني الجليل العصف صفة لليوم فقال ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ والعصف وصف للريح ولكن انتقال هذه الصفة إلى اليوم في تراق بديع وإسناد مجازى يجعل الزمن كله وكأنه عاصف.(١)

ثم تأمل كيف بين عزوجل الغرض من التشبيه وهو أنهم لايقدرون على شيء مما كسبوا، وكيف يؤكد عدم قدرتهم على الانتفاع بما كسبوا كما لا يقدر أحد على الإمساك بهذا الرماد والذى اشتدت به الريح في يوم عاصف.

فضلا عن إعادته إلى ماهيته قبل الاحتراق أى خلقه من جديد فأى ضلال أبعد من ذلك .

وهكذا تأتي جملة :

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

تذييلا جامعا لخلاصة حالهم.(٢)

---

(١) انظر الكشاف ٢/٣٧٢ البحر المحيط ٥/٤١٥ الفخر الرازى ١٩/١٠٧.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/٢١٧.

" والمراد بالبعد ضد القرب (ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ) أى الضلالِ الذى يَصْعُبُ الرُّجُوعُ منه إلى الهدى تشبيهاً بِمَنْ ضَلَّ عَـــنْ مَحَجَّـةِ الطريقِ بُعْدًا مُتَناهِيًا فلا يكادُ يُرْجى لهُ العودُ إليها ". (١)

ثـــم تأمل التناسب البديع بين الضلال البعيد والرماد الذى طيرته الريح العاصف بعيـــــــــــــدا ، والمراد : هو تشبيه أعمال الكافريـــن/ في حبوطها وذهابها هباء منثورا لأنها غير مبنية على أساس صحيح من الإيمـــــان بالله والعمل مخلصا لوجهه الكريم برماد طيرته الريح العاصف فذهب بددا ولم يبق له أثر. (٢)

ثم تأمل العناصر التي كونت أسلوب التشبيه من الرماد والريح الشديدة واليوم العاصف وكيف تنافرت تنافرا شديدا وتضادت لتعبـــر بتنافرها وتضادها عن تبدد تلك الأعمال هباء منثورا وكيف بنيـــت عناصر التشبيه ومواده على المبالغة والجزالة والقوة التي تتناسب مع شدة الموقف وهوله .

فقوله (اشتدت) فيها من الجزالة والقوة ما يتلاءم مع قسـوة العصف وقوة الريح .

---

(١) الراغب مادة (بعد) .
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٣٧٢ .

وفي تنكير(رماد) ما يوحي بالكثرة الكاثرة من الرماد التي تناهت وعظمت مما يزيد الموقف والمشهد إثارة وحدة ويوحي بالهلاك والفناء والضياع . وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .

ثم تأمل هذا التناسق والتناسب العجيب بين هذا المشهـــد المكفهر الذى يكاد يغص فيه الإنسان فلا يبتلع هواء ممزوجا برماد ولا يطيق فتح عينيه أو التنفس في هذا المحيط الهائج حوله وكيف يتلاءم هذا مع العذاب الشديد الذى يحاط بالكافر في جهنم يتجرعه ولا يكاد يستسيغه و تغص به حلوقهم والموت محاط بهم من كل جانب .

قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ
كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ
مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ
لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

سورة النور الآية ٤٠ .

من أسرار المناسبة :

على هذا النور الرباني المتجلي في الأحكام والآداب والفضائل الإنسانية التي تزخر بها سورة النور يقوم المجتمع المؤمن الطاهر الغضيض البصر الحافظ الفرج الصادق اللسان الحسن الظن المحصنات نساؤه العفيفات الطاهرات أزواجه المستضيئون أفراده بنور التشريع الإلهي في كل جانب من جوانب حياتهم الفردية والجماعية فهو نور على نور نور فطرته ونور منهجه وما بقاء ذلك النور واستمراره وتضاعفه إلا لصلتهم بمصدر النور وترددهم عليه بالغدو والآصال :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾

فعلى أي شيء تقوم أعمال الكافرين الذين كفروا هذا النور وحالوا بينه وبين قلوبهم ، على أي شيء تقوم أعمالهم وإن حسنت ظاهرا وهم لا نور لهم من منهج يحتكمون إليه أو تشريع يضبطهم أو فضائل تقومهم وتزكيهم ؟

إن القلب الذي لا ينفذ إليه النور الذي ملأ السموات والأرض قلب قد ران عليه الكفر ومن ثم فأي عمل يصدر عنه فهي أعمال ضالة حابطة لا نفع لها مهما عظمت وحسنت في أعينهم لأنها لا أساس لها من إيمان بالله واليوم الآخر.

---

(١) سورة النور / ٣٦.

ثم تأمل كيف وازنت الآيات بين دلائل الوحدانية والإيمان التي بلغت الغاية في الظهور ، والبيان مع أديان الكفرة وأعمالهم ، والتي هي في نهاية الظلمة والخفاء وبالمقارنة بين المثلين يتضح الحق لذى عينين . ولهذا سأقف أمام هذا المثل بشيء من التحليل والتفصيل حتى يتبين لنا التناسب/والتقابل البديع بين تركيب هذا المثل ومثل الذين كفروا وتتضح المعاني .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

---

(١) سورة النور / آية ٣٥

ففي هذا المثل البديع يمثل سبحانه لنوره في قلب عبده المؤمن بكوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وقد وضع فيها سراج ثابت ساطع وأتى التمثيل على هذه الصورة لقربها وشمولها في الحس والتصور ولكونها أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة وإلا فان نور الله أعظم.

ثم انه سبحانه لما ضرب مثلا لقلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله في الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد. (١)

فيزيد ذلك من تلألئها وبهائها وشدة إنارتها. فلله ما أضوأ هذه القلوب المنيبة في بيوت الله المضيئة لأهل السماء إضاءة النجوم لأهل الأرض..

---

(١) انظر إبن كثير ٣/ ٢٩٥.

ثم تأمل وتابع هذا المدد الرباني والزاد الإيماني بالغدو والآصال لهذه القلوب التي لا تفتر عن تسبيح الله وعن تنزيه الله فأنى لقلوب كهذه أن تلهيها تجارة مهما عظمت أو بيع عن ذكر الله.

إنه التثبيت الذى يحرص عليه :

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (١)

فيكون خوفهم هذا سببا للجزاء على أعمالهم بأحسن الجزاء وللزيادة فوق ذلك من واسع فضله بدون حد ولا عد.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وفي مقابل ذلك النور الذى أشرقت له الظلمات وملأ الأرض والسموات، وغمر قلوب العابدين فأضيئت به بيوت الله تجد سرابا واهما وظمئا حارقا وظلاما دامسا، وخوفا مرعبا وضلالا وغيا وظلمات بعضها فوق بعض تحول دون أن ينفذ هذا النور إلى قلوب الذين كفروا.

---

(١) النور/آية ٣٧.

وهذه طريقة القرآن البديعة في المقابلة بين المعاني الغريبة حتى تأنس بها النفوس وتقر في القلوب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (١)

وقد ذكر أهل العلم رضي الله عنهم في أسرار المناسبة وجوها نستضيء بها في فهم آيات التمثيل ولطائفه .

قال صاحب الكشاف : " شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء، وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها

---

(١) النور/ آية ٣٩ .

باطله وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لجّ البحر والأمواج والسحاب ". (١)

وقال الرازي : " لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم من أنه في الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا ". (٢)

فقال الطبري : " ظنوا أن أعمالهم صالحة وأنهم سيرجعون منها إلى خير فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب فهذا مثل ضربه الله .. ومثل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عملت على خطأ وفساد وضلاله وحيرة من عمالها فيها وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر لجي ". (٣)

---

(١) الكشاف ٣/ ٧٠ .

(٢) الفخر الرازي ٢٤/ ٧ .

(٣) الطبري جـ ١٨/ ١١٥ - ١١٦ .

وقال صاحب التحرير والتنوير : " لما جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ﴾

إلى قوله :

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة من القصة ". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٥٠.

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ (١)

يقول الرماني في تعليقه على هذا التمثيل : " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ". (٢)

تأمل دقة إحاطته بوجه الشبه ، وهي عبارة لو جازتها ودقتها وسدادها ، غلبت عقول القوم فكرروها في كتبهم. (٣)

ثم تأمل كيف نظر الرماني إلى المعنى وميز جزئيه وبين أن أحد الجزئين يدرك بالعقل والآخر يدرك بالحس وأن هذا الارتقاء من المعقول إلى المحسوس فيه توضيح أشد وإظهار أظهر وأمكن ثم استخلص الرماني من التشبيه قصة ذى وهم دفعته شدة الحاجة وعظم الفاقة إلى أن يوغل في وهمه حتى تجسم له الباطل وكل ما ترآى له من وهم في صورة سراب بقيعة يراه حقيقة ويظنه أملا نافعا متحققا ثم لا يلبث أن يكدح ويلهث/ وراء هذا الوهم حتى يسقط في يديه.

---

(١) النور / آية ٣٩.

(٢) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٢.

(٣) انظر الإعجاز البلاغي ، د/ محمد محمد أبو موسى ص ٨٦.

ثم تأمل كيف بدأ التمثيل بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فجعله مسندا إليه أولا ثم بنى عليه مسندا آخر وهو ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وكلاهما عنصر مقصود في التمثيل .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ، ليتقرر في النفس كمال التقرر ، وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة ".(١)

تأمل إلى هذه اللمحة الرائعة التي نبه إليها ابن عاشور حين أشار إلى أن للذين كفروا حظا في التمثيل .

ووراء ذلك أن الآية الكريمة لم تفصل بين العمل وصاحبه بل صاغتها صياغة واحدة لأن الإنسان هو عمله فيه ينفث طبعه وروحه وكل ما يختلج في نفسه ويعتصر في قلبه فإن كانت أعمالهم سرابا فلأنهم هم أنفسهم أفئدتهم هواء خالية من كل حق وإن كانت أعمالهم ظلمات فلأنهم هم أنفسهم كهف من كهوف هذه الظلمات لا ينفذ إليها نور الحق .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٥١.

وإن كانت أعمالهم رمادا فلأنهم هم حياتهم رماد إذ تتقطع عيونهم وتزهق أرواحهم ولا يبقى لهم ذكر طيب طاهر . كل هذه المعاني وغيرها يمكن أن نستوحيها من قول ابن عاشور (إن للذين كفروا حظا في التمثيل) .

وفي التعبير بالموصولية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إيماء إلى هذه الحالة التي حجبت عن قلوبهم ذلك النور الذى ملأ السموات والأرض والتي كانت سببا في نيلهم هذا الجزاء .

أعمالهم : (اَلعَمَلُ يستَعمَلُ في الأعمالِ الصالحة والسَّيِّئة) (١)

كسراب : (وَالسَّرابُ اِللامعُ في اَلمَفازَة كالماء وذلك لانْسِرابه في مَرْأى العَيْنِ وكأنَّ السَّرابَ فيما لا حَقيقَةَ لهُ) . (٢)

بقيعة : " اِلقيعُ والقاعُ اَلمُستَوى مِنَ الأرضِ جَمْعُهُ قِيعانٌ وَتَصغيرهُ قُوَيْعٌ " . (٣)

تأمل هذا وكيف مثلت أعمالهم بسراب عظيم شديد اللمعان سحر أبصارهم وخيل إليهم أنه ماء يجرى وينساب .

---

(١) الراغب مادة (عمل) .
(٢) الراغب مادة (سرب) .
(٣) الراغب مادة (قيع) وانظر الكشاف ٦٩/٣ .

ثم تأمل شدة هذا الوهم الذى غلب عليهم وسحر أبصارهم ،

ومما يؤكد أنه وهم لا حقيقة له قوله تعالى : ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ ،

والقيعة: الأرض المنبسطة المستوية التي لا يتوهم فيها أن تمسك الماء أو تنبت الكلأ .

لقوله عليه الصلاة والسلام : (إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً)(١) الحديث

وفيه إشارة إلى قلوب المبطلين ،وهو مثل ضربه عليه الصلاة والسلام لمن لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسل به .

ومما يدل على مبلغ وهمهم أنه سراب في وضح النهار وعند اشتداد الضوء أى حين لا تخفى حقيقته ولا يلتبس أمره ولا مجال للوهم

ثم تأمل كيف يتصاعد هذا الوهم ويتضاعف ويقوى بترادف هذه الصفات والقيود التي تزيد من حدته وقوته .

فهو سراب بقيعة (يحسبه الظمآن ماء).

ومن معاني حسب : (العد ، تقول حسبت الشيء أحسبه حسبا وحسبانا قال الله تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (٢) ،

---

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين أحمد الزبيدى الحديث رقم ٧٠ ص ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن /آية ٥ .

ومن قياس الباب الحِسْبانُ الظنّ ، والمعنى واحد لأنّه إذا قال حسبته كذا فكأنّه قال هو في الذي أعدُّه من الأمور الكائنة .. ومن الباب الحَسَبُ الذى يُعَدُّ من الإنسان).(١)

(وفلان لا حَسَبَ له ولا نَسَب وهو ما يَحْسُبه ويَعُدُّه من مفاخر آبائه وفلان لا يُحْتَسَبُ به أى لا يُعْتَدُّ به).(٢)

والمتأمل لهذه المادة وما تدور حوله ، يدرك قول علمائنا (رضي الله عنهم) حين قالوا : إن المراد بأعمالهم (التي هي من أبواب البر كصلة الرحم وفك العناة ، وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ، ونحو ذلك مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب).(٣)

فهي أعمالهم (التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ، ويفتخرون بها في كل واد وناد).(٤)

لذلك أبطل سبحانه حسبانهم حين قال :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ (٥)

---

(١) المقاييس مادة (حسب).

(٢) الأساس للزمخشرى مادة (حسب).

(٣) أبو السعود ٦/٨١ وانظر روح المعاني ١٠/٨١ وانظر الزمخشرى ٢/٢٧٢.

(٤) روح المعاني ٢٨/١٨٢.

(٥) سورة التوبة / آية ١٩.

وربما يؤكد هذا الوجه اللامع الحسن الذى يشبه الماء وهو لا حقيقة له منظر هذه الأعمال الحسنة النافعة للناس، وهي لا أساس لها من إيمان بالله واليوم الاخر.

ثم تأمل كيف يبلغ الوهم الغاية في الظهور، ويقوى الحسبان ويتأكد في عيني ظمآن، بلغ به العطش أشده ومنتهاه.

وهذا ما أحس به الرماني واتقد في قلبه، فأدركه واستطعمه حين قال: (ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصا عليه وتعلق قلب به).(١)

تأمل شدة ظمئه، وحرارة جوفه المتقدة، وحرقة نفسه الملتاعة إلى ما يبرد غليلها، ويطفيء لهيبها، وهو في هذه الصحراء الجرداء القاحلة، وكيف تنعكس هذه الرغبة الجامحة، والتوق الحارق، على هذا السراب والوهم فيراه (ماء) عظيما وفيرا سائغا للشاربين، وفي ذلك إشارة إلى خداع النفس بعد خداع البصر.

والنفس لا تخدع إلا عند غياب العقل، والعقل لا يغيب إلا عند غلبة الشهوة وطغيانها واستبدادها.

----

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٢.

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ (١)

ثم تأمل كيف طوت (حتى) هذه الرحلة الشاقة، والمعاناة الطويلة التي أجهده فيها الظمأ، وحفزه اليها الأمل - فأشار إلى نهاية هذه الرحلة وبلوغ الغاية وأى غاية .. " تلك الغاية التي أحالتها " إذا " من الخبر إلى تحقق الوقوع ، حين ربطت العدم بالسعي، وجعلته جوابا ونهاية له ، فأحكمت من أسر الكلام، وشدة تلاحمه، ودقة سبكه وعقدت آخره على أوله ، وجعلت بعضه أخذا بحجز بعض .

ولو قيل ﴿ حَتَّىٰٓ جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ ، لانحلت عقدة الكلام، وانطفأ وهجه ، وفي ذلك إيماء إلى بلوغه غاية الضعف والعجز، والتهالك ، وشدة التخاذل، والإعياء ، حتى لم يبق فيه بقية من قوى ، ثم في تلك اللحظات الحالكة لم يجده شيئا . (٢)

ثم تأمل كلمة (شيئا) والتي جعلته عدما مطلقاً ليزيد من تحرقه ولوعته وهذه الهاء في (يجده) والتي نصت على الأمل المنشود، وصيرته عدما لتهيء الكلام بعد ذلك لظهور الحق الذى لا مرية فيه ، ولا وهم يعتريه وهو قوله ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ . (٣)

---

(١) النور / آية ٣٩ .

(٢) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .

(٣) المصدر السابق .

والأصل وجد عذاب الله وجزاءه ، ولكن التعبير أفاد أنه وجد ذا الجلال سبحانه ، وفي ذلك من الرهبة ما فيه ، وخاصة أن هذا الكافر ينكر وجود الله ، ثم انظر إلى هذه الفاء (فوفاه حسابه) وما تشير إليه من سرعة الكفح ونزول العذاب ، ثم انظر إلى إسناد التوفية إلى ضمير ذى الجلال (الله) وهو الذى يتولى تعذيبه بنفسه ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب ما فيه ، ثم تأمل كلمة (حسابه) وفيها من الإنصاف ما فيها ، وكل ما أشار إليه الكلام من الرهبة وسرعة المكافحة بالعذاب وشدة الغضب ليس فيه مجاوزة ، وإنما هو بحساب دقيق .(١)

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢)

وهكذا الكفر يمحق كل عمل وإن كان من باب الخير والإحسان لأن كل عمل لا يزكيه الإيمان فهو أشبه بالسراب .

---

(١) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .
(٢) النور / آية ٣٩ .

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

وقد ذكر أهل العلم لـ " أو " وجوها فقالوا :

إنها إذا جاءت في عطف التشبيهات تدل على تخيير السامع أن يشبه بما قبلها وما بعدها .(٢)

فهي كسراب بقيعة في كونها لاغية مضمحلة لا منفعة لها ولا ثمرة ترجى منها .

أو كظلمات في خلوها من نور الحق وحيلولتها بين القلب وبين ما يهتدى اليه .(٣)

أو للتنويع ، وذلك بالنظر إلى أعمالهم الحسنة التي يعتمدون عليها ويعتدون بها ويفتخرون وما هو إلا حسن ظاهر كسراب أو أعمالهم القبيحة من الاعتقادات الباطلة والأعمال الفاسدة التي ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون فهي كالظلمات .(٤) أو للتقسيم فهي كالسراب في الآخرة لقوله تعالى وَوَجَدَ اللَّهَ .

---

(١) النور/ آية ٤٠.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٨/ ٢٥٤.

وانظر الفخر الرازى ٢٤/ ٨ وحاشية الشهاب ٦/ ٣٨٩.

(٣) انظر الكشاف ٣/ ٧٠.

(٤) انظر (أبو السعود) ٦/ ١٨١.

وكالظلمات في الدنيا لقوله تعالى :

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (١)

والمتأمل لهذه الوجوه لا يجد بينها تضارب بل في ذلك إثراء للمعنى وتكثير للفائدة ، ويمكن أن نقول أنه سبحانه لما ذكر حال المؤمن ومآله ، ذكر حال الكافر وخسارته وضرب لذلك مثلين :

الأول : لعمله الظاهر الحسن، الذى يظن فيه النفع بالسراب الخادع الذى يظن فيه الحياة والبقاء، ثم ما آل إليه حاله من الخيبة ، واضمحلال العمل عند شدة حاجته، وعظم فاقته، فهو مطلع مطمع يعقبه مقطع مؤيس .

والمثل الثاني - لاعماله الباطلة الفاسدة الخالية من نور الحق، وكيف تنطبع آثارها على قلبه وتتلبس به .

فهي أعماله التي حجبته في الدنيا عن رؤية طريق الحق ، وذلك لشدة ظلمتها وتغشيها للقلوب .

ثم تأمل وتابع معاني التمثيل فجلال نظمه، وبديع معناه في أن ينقلك من هذه الصحراء القاحلة، والسراب الواهم، والظمأ الحارق، والكد والمعاناة ، والهول الرهيب ، وكل ما تمثل وترآى من وهم في وضح النهار وشدة الضوء إلى محيط ينطفيء فيه ذلك الوهج المتألق، ويتلاشى معه ذلك السراب الخادع ، فيبتلع خيالك ظلامه ووحشته، ويكاد يحاط بأنفاسك ، وأنت تدافع ظلمات عجيبة الصفة، شديدة الظلمة ، تخرج عن المعتاد والمألوف من ظلمة الناس ، فجمع الكثرة فيها يوحي بشدة ظلمتها وتراكمها وتراكبها ، فهي ظلمات كثيرة أو عظيمة بعضها فوق بعض ! (٢)

---

(١) انظر الفخر الرازى ٢٤/٨ .
(٢) انظر البحر المحيط ٦/٤٦٢ .

وما يزيد في غرابتها وبعدها في الصفة أنها ظلمات في بحر لجي بعيد الغور ، شديد العمق ،أرأيت إلى بعده في الغور ،وما وراءه من تزايد كثافة هذه الظلمة وتراكمها . كما أن هذا القيد يفيد بيان أثر أعمال الكافرين على قلوبهم لأن الظلمة لا تظهر إلا بأن تنطبع في شيء ، لذلك قال (فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ)(١) .

تأمل هذا وقارنه بقوله عليه الصلاة والسلام:

(تعرض الفتن على القلوب عودا عودا فأيما قلب أشربها ، نكتت فيه نكتة سوداء ..)

(" ويلج " : من اللجاج التمادى في العناد ،في تعاطي الفعل المزجور عنه وقد لج في الأمر يلج لجاجا قال تعالى :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .(٢)

وقوله :

بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٣)

(ومن الباب لجج البحر وهو قاموسه ،وكذلك لجته لأنه يتردد بعضه على بعض .. ويقولون في فؤاد فلان لجاجة ،وهو أن يخفق لا يسكن من الجوع وهو من اللجاج والتجاج الظلام اختلاطه وهو مشبه بالتجاج البحر وكل هذا يدل على أن ترددهم في طغيانهم وإيغالهم فيه حال بين قلوبهم وبين نور الحق وهدايتها .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٨/٢٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون / ٧٥ .

(٣) سورة الملك / ٢١ .

ثم تأمل شدة هذه الظلمات في قلب لا يدرك له قرار، تمور وتتردد في حركة دائبة، لا تعرف السكينة .

ثم تأمل كيف يتضاعف المعنى، ويتكاثف، بترادف هذه الصفات والقيود ، والأحوال التي تزيد المعنى وفرة، وغزارة وثراء .

فهي ظلمات في بحر لجي ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وقوله ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أى يغطي ذلك البحر ويستره بالكلية موج عظيم، هائل في حركة دائبة متجددة لا تنقطع .

تأمل هذا الموج المضطرب ، وكلما عظم عظمت حركته، واضطرابه وكيف أسدل على هذه الظلمات أغشية ، ضاعفت من شدة ظلمتها .

وكيف تتعاقب هذه الأمواج ، وتتلاطم، وتتعالى، ويركب بعضها بعضا ، فتتضاعف شدة الظلمات، وتقوى، وتتحقق في النفس أنها ظلمات لا يصيص فيها من نور ، إذ يبعد كل البعد أن ينفذ فيها بصر .(١)

(والبحر اللجي يكون قعره مظلما جدا ، بسبب غمورة الماء ، فإذا ترادفت عليه الأمواج ، ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب، بلغت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع فيه يكون في نهاية شدة الظلمة) .(٢)

فقوله تعالى (من فوقه سحاب) فيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب .(٣)

---

(١) انظر نظم الدرر ١٣/ ٢٨٠ .
(٢) الفخر الرازى ٢٤/ ٨ .
(٣) انظر روح المعاني ١٨/ ١٨٣ .

تأمل هذه الحركة التخيلية الرائعة،التي يتابع فيها الخيال والفكر تلك الأغشية ،يتجدد حدوثها ،ويتوالى أسدالها،في تتابع بديع،وتناسق عجيب ،حتى كأنها تبلغ في تراكمها عنان السماء.

ثم تذوق هذا التلاحم،والتراحم،والتمازج بين عناصر التمثيل وكيف تتشارب معانيه.

فقوله(سحاب) ليس المراد به سحاب مطر ورحمة ،بل هو سحاب مظلم حجب مصدر الضوء الخارجي ،فبلغت الظلمات غايتها في كمال شدة الظلمة.(١)

قال تعالى :

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾

ولحذف حرف الجر هنا - فلم يقل (ظلمات بعضها من فوق بعض) موقع دقيق أفاد شدة تراكم الأمواج حتى استغرقت الجهة التي ينفذ منها الضوء ،فحالت كثافتها وشدة ظلمتها دون ذلك.

والمراد (بظلمات) هنا غير المراد بها في قوله "أو كظلمات" ها هنا جمع أنواع ،وهنالك جمع أفراد من نوع واحد .(٢)

فهي ظلمات من البحر والأمواج والسحاب.

ووراء ذلك توزع قلبه وبلوغه غاية الضعف والحيرة والتخبط والتردد والتمزق والاضطراب.

وهو يصارع هذه الظلمات المتراكمة المتنوعة التي تناوشه من كل جانب.

---

(١) انظر(أبو السعود) ٦/ ١٨١.
(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٥٦.

ثم تأمل كيف يؤكد شدة هذه الظلمة يقول تعالى :
﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾
وكيف خَصَّ الإِخْرَاجَ بَاليَدِ لأَنَّ اليَدَ هي أَصْلُ الجَوَارِحِ التي يُتَولَّى بَهَا الفِعْلُ)(١).
(وهي أقرب ما يرى إليه)(٢).
(وذلك لمن ابتلى بهذه الظلمات)(٣)

وقوله تعالى * لم يكد يراها *

لم يكد (يقتضي بحسب الوضع نفي مدلول كاد ، فإن مدلولها المقاربة ، ونفي مقاربة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى)(٤).

أى (فانه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التي كانت نصب عينه)(٥).

ووراء ذلك أن ، عمله عدم لا وجود له ، لأن العدم كله ظلمه وهو لا يرى إلا ظلاما دامسا ، فالعمل الذى يبنى على هذه الظلمات ، ويخرج فيها لا يقرب أن يكون له وجود أو أهلية فضلا عن أن يكون له .(٦)

وفي هذه إشارة إلى أن الحامل لهم على رؤية السراب ماء أو على تخيل ذلك الوهم وظنهم النفع فيه هو عدم رؤيتهم الداخلية بسبب هذه الظلمات .(٧)

---

(١) انظر الراغب مادة (يد) .
(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٦/ ٣٩٠ .
(٣) انظر(أبو السعود) ٦/ ١٨٢ .
(٤) انظر التحرير والتنوير ١/ ٥٥٧ .
(٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٦/ ٣٩٠ .
(٦) نظم الدرر ١٣/ ٢٨٧ .
(٧) انظر المصدر السابق .

لأنّ (قيام الأمور وظهورها كل ظهور إنما هو بالنور) .(١)

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٢)

تذييل بديع للتمثيل جيء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود ، وإنما هي سراب أو ظلمات .(٣)

ويقول الفراء : هذا مثل لقلب الكافر أى إنه لا يعقل ولا يبصر (٤) .

ثم تأمل العناصر التي كونت أسلوب التشبيه هنا .

وهي السراب والقيعة والظمآن وما بينها من التجاذب والتقارب الشديد الذى يؤكد الوهم ويضاعفه و يزيد الحاجة و يلهبها أى يقوى المعنى المراد تقويته وتأكيده وهي شدة الحاجة لتعظم الفاقة .

تأمل كيف تعلق الظامئ بذلك السراب وجذبه إليه وسعى إليه سعيا حثيثا لاهثا مجهدا - وما وراء ذلك من قوة الشد والجذب والإغراء والوهم .

كما نلمح هذا التجاذب الشديد والتقارب العجيب والتناسق بين عناصر التمثيل الآخر للظلمات والبحر اللجي والموج الذى يغشاه موج والسحاب المظلم واليد التي لا ترى في تلك الظلمة .

وكيف تؤكد هذه العناصر كثافة الظلمة و عمقها وغورها وتضاعفها وتراكبها . . وهكذا .

وفي هذا المثل الكريم جانب آخر من جوانب الإعجاز في القرآن العظيم ألا وهو الإعجاز العلمي الذى شُغل به علماء عصرنا لأنه الوجه

---

(١) المصدر السابق . (٢) سورة النور /آية ٤٠ .

(٣) روح المعاني ١٨/ ١٨١ .

(٤) معاني القرآن : للفراء ٢/٢٥٥

الذى فتن به علماء الغرب فلا عجب أن نبين لهم إعجاز القرآن من هذا الجانب الذى فتنوا به والذى يعتقدون أنهم لم يُسبقوا إليه وسنذكره هنا لأنه يوقفنا على فقه المثل فلا تعارض بين حقائق العلم و حقائق اللغة والبيان.

فالحقائق التي توصل إليها العلم والتي هي في القرآن على الوجه الذى يعلو ولا يعلى أن ثمة أمواج سحيقة تمور في الأعماق المظلمة وتضطرب وهي غير الأمواج السطحية التي نعرفها وأن هذا النوع من الأمواج كبير جدا ولا يسود إلا في البحار المظلمة مثل المحيطات و هذه المناطق المظلمة هي التي يستحيل وصول ضوء الشمس إليها لعمقها الشديد وتراكم طبقات المياه الكثيفة وقيام الطبقة السطحية من المحيط بإعكاس ضوء الشمس فكيف إن كانت فوق هذه الأمواج سماء ملبدة بالغيوم والسحب التي تحجب الضوء فإن الظلمة تبلغ حدا لا يطاق .

يقول العلم لذلك خلق الخالق عز وجل أنواع الأسماك هناك بلا عيون لأنها لا تستخدمها في الرؤية وإنما يسر لها الله سبحانه و تعالى سبل حياتها في هذه الظلمات ، فهذه الظلمات العجيبة الصفة لا توجد في بحار الدنيا كلها و إنما تختص بهذا البحر اللجي العميق .(١)

---

(١) انظر الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن د / عبد العليم عبد الرحمن خضر ،الدار السعودية للنشر والتوزيع ،ص ٣٢ ،٣٣ .

قال تعالى :

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا
كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

سورة الفرقان / آية ٢١ - ٢٣ .

من أسرار المناسبة :

يتحدث سبحانه وتعالى في الآيات السابقة للمثل عن الذين لا يرجون لقاء الله والذين تجاوزوا الحد في الظلم والكفر :

(لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا)

" والعتو النبو عن الطاعة يقال عتا يعتو عتوا وعتيا وهي حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها ".(١)

ثم يقول الله تعالى :

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)

معنى الحجر المحجور " أن الرجل كان إذا لقى من يخاف يقول حجرا محجورا فذكر الله تعالى أن الكفار اذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظنا أن ذلك ينفعهم .

قال تعالى :

(وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا)

أى منعا لا سبيل إلى رفعه/ ودفعه وفلان في حجر فلان أى في منع منه عن التصرف في ماله وكثير من أحواله ".(٢)

---

(١) الراغب مادة (عتا) .

(٢) الراغب مادة (حجر) .

ثم يأتي المثل بعد ذلك :

(وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)

فتأمل كيف شبه أعمالهم في الحقارة وعدم النفع والجدوى بالهباء المنثور الذى لا يعبأ به ولا يمكن نظمه أو الاحاطة به وكيف يتلاءم هذا مع جو السياق الذى ورد فيه والذى تجاوز فيه الكافرون الحد في الطغيان حين طلبوا رؤية الله أو نزول الملائكة عليهم فلما نزلت عليهم وحلت بهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ثم عمد سبحانه إلى أعمالهم فجعلها هباء منثورا.(١)

من أسرار اللغة والنظم :

الهباء " من هَبا الغُبارُ يهبو ثار وسطع والهبوة كالغبرة والهباءُ دُقاقُ التراب وما نبت في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة.(٢)

والنشر " نثر الشيء نشره وتفريقه ".(٣)

---

(١) انظر (أبو السعود) ٦/٢١٢.

(٢) الراغب مادة (هبا).

(٣) الراغب مادة (نثر).

والتعبير بصيغة القدوم / في قوله (وقدمنا) يتناسب مع كونهم طلبوا روءية الله فأراهم ما يكرهون، ووراءه أنهم كانوا في غفلة شديدة وذلك حين غفلوا عن رقابة الله لهم، الذى احتجب عنهم في الدنيا ليبتليهم ثم عاد ليجازيهم.

وتأمل قدوم الملائكة عليهم وهم نور من نور وكيف تظهر أعمال الكافرين في هذا المشهد الذى شع فيه نور الملائكة وقدم فيه أمر الله وما وراء " قدمنا " من التعظيم والإجلال والإكبار الذى يزيد الموقف تشريفا وهيبة وجلالا وكيف تبدد أعمال الكافرين في ضوء هذا الحق الذى تجلى لهم عند الاحتضار أو يوم القيامة هباء منثورا فلا ينفعهم قولهم حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا .

وإذا ما عدنا الى عناصر التشبيه وجدنا هذا التنافر بين مواده فالهباء والنشر توءكد تمزق هذه الأعمال وتبددها بحيث لا يترك لها أثرا وهذا يتلاءم مع قوله :

كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ

من حيث تنافر وتضاد عناصره ومواده ولكنها تختلف عنها من ناحية رقتها ودقتها وكيف تتناسب مع السياق الذى شع فيه ذلك النور الجليل .

ومع هيبة الموقف وجلاله التي تمثله كلمة (قدمنا) ، وكيف ناسب أن تكون الأعمال بهذه الضآلة والدقة والحقارة * أمـــــام بجلال المـــــشهد والموقف .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين :

تدور المادة اللغوية أو العناصر التي بنيت منها التشبيهات لأعمال الكافرين : حول :

الرماد - الريح التي اشتدت به - اليوم العاصف -

سراب بقيعة - الظمآن المتوهم - الظلمات - البحر اللجي -

الأمواج التي تغشى البحر - السحاب المعتم - الهباء المنثور .

وهذه العناصر وإن كانت يجمعها معنى عام وهو فناء أعمال الكافرين وبطلانها وأنها لا حقيقة لها ولا منفعة فيها فهي لاغية مضمحلة ، عند شدة الحاجة إليها إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز به يتناسب مع السياق القرآني الذى وردت فيه .

فالتمثيل الأول : وهو قوله تعالى :

﴿ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

يهتم ببيان جملة أحوال ومشاعر منها :

١ - بيان معنى الهلاك والاحتراق لهذه الأعمال وعدم الانتفاع بها يدل على ذلك كلمة رماد .

٢ - بيان أنها أعمال تناهت في الكثرة مما يزيد من شدة الحسرة ينبىء عن ذلك تنكير كلمة (رماد).

٣ - بيان تبدد أعمالهم وذهابها كل مذهب بحيث لم يبق لهـا أثر يبين عن ذلك قوله تعالى :

﴿ اشتدت به الريح ﴾

وفيها تجسيد لشدة العذاب وراء شدة العصف .

٤ - بيان عجزهم عن استدراك ما فات ينبيء عن ذلك كلمة (رماد) وقوله تعالى :

لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ

وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البالغه .

٥ - أن ذهاب الريح برماد أعمالهم وتبددها دلالة على بعدهم في الضلاله يبين عن ذلك قوله تعالى :

ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

بينما يهتم التحليل الثاني في سور النور ببيان جملة أخرى من الأحوال والمشاعر منها :

١ - بيان وهم الأمل المقصود الذى تعلق به الذين كفروا ورجوه من هذه الأعمال يدل على ذلك كلمة (سراب) وفيها تجسيد للخداع والوهم والضياع .

٢ - بيان أن ظهور حقيقة هذا الأمل وأنه وهم انما يكون عند شدة حاجتهم إليه دل على ذلك كلمة (بقيعة وظمـــآن).

٣ - بيان أن الذين كفروا سعوا سعيا حثيثا وراء هذا الأمل السراب الخادع دل على ذلك قوله تعالى :

* حتى إذا جاءه *

٤ - بيان أن الواقع كان على النقيض من المتوقع . دل على ذلك قوله تعالى :

وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ

فأما التمثيل الثالث فانه يركز على بيان :

١ - خلو أعمالهم من نور الحق لكنها أعمال فاسدة باطلة لأنها غير مبنية على إيمان بالله والعمل لوجهه الكريم يدل على ذلك كله كلمة (ظلمات).

٢ - بيان أن تلك الظلمة انطبعت على قلوبهم فحالت بينهما وبين رؤية الحق . يدل على ذلك :

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ

٣ - بيان أن ظلمة الأعمال في تضاعف وتزايد وانها ظلمات متراكبة متراكمة تتردد في صدورهم . يدل على ذلك قوله تعالى :

يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ

٤ - بيان أنها أنواع من الأعمال الفاسدة كالاعتقادات الباطلة والفتن ورذائل النفس وغير ذلك مما تموج به قلوب أهل الباطل.

يدل على ذلك ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ

٥ - بيان أن ظلمات أعمالهم بلغت السحاب فلا سماء تبصر ولا أرض وأن ذلك مثال للرين والطبع على القلوب يدل على ذلك قوله تعالى : مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ

٦ - بيان أن قلب الكافر يصبح من كثرة تلبسه بظلمات أعماله لا يعقل ولا يبصر يدل على ذلك قوله تعالى :
إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا

٧ - بيان أن أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود وإنما هي ظلمات يدل على ذلك قوله تعالى :
وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ

ويهتم التشبيه الرابع ببيان :

١ - بيان ضآلة أعمال الكافرين وحقارتها وأنها شيء لا يعبأ به ولا يلتفت إليه تمثله كلمة هباء .

٢ - بيان تنافر أعمالهم وتمزقها كل ممزق بحيث لم يترك لها أثرا تدل عليه كلمة (منثورا) .

وهكذا يتضح لنا أن كل تشبيه يهتم بإبراز معاني وأحوال ومشاعر تتفق مع السياق الذى ورد فيه .

١ - ففي سورة إبراهيم تجد أن (الرماد) وهو ما يبقى بعد احتراق الشيء يتلاءم مع جهنم .

وهذا المشهد المكفهر الذى اشتدت به الريح في يوم عاصف فلا يكاد المرء يستسيغ بلع هواءه الممزوج برماد وفتح عينيه أو أذنيه/ وكيف يتناسب مع العذاب الذى لا يستسيغه الكافر ولا يكاد ينحدر من حلقه.

فبين هذه العناصر من التلاؤم والتناسق ما ترى وكلها معاني تدل على المحق والسحق و عدم الانتفاع والعجزعن الاستدراك .

كما تتلاءم هذه العناصر من ناحية الجزالة والقوة والشـــدة وتنافر موادها مع السياق الذى وردت فيه والذى يحوطه عذاب غليظ .

٢ - تأمل كيف اختتمت الآيات هنا بقوله تعالى :

لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ لأن المراد تأكيد محـــق هذه الأعمال وضياعها وتبددها .

بينما جاء النظم في سورة البقرة لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا

لأن المراد تأكيد عدم قدرتهم على شيء وعجزهم عن إدراك ثواب ما عملوا .

٣ - وهذا التشبيه وان كان يشترك مع قوله تعالى :

* وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا * من ناحية بيـــان تبدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثرا إلا أن هذا التشبيه الثاني يتميزعن الأول بدقة بعناصره ورقتها وليونتها لتمثل معنى الضآلة والحقارة ثم التناثر والذهاب بها كل مذهب وأن هذا يتناسب مع السياق الذى تنزلت فيه الملائكة وأتـــى أمر الله يغشاه هذا الجلال والرهبة والكبرياء تناسب أن تكون أعمالهم مقابل ذلك في منتهى الضعف وغاية الوهن.

كما أن وصف الأعمال بهذه الضآلة والوهن والحقارة يتلاءم مع قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ وفي الحديث (يُحْشَر المتكبرين يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان) .(١)

فناسب أن تكون أعمالهم التي هي صورة لذواتهم كذلك .
لأن الجزاء من جنس العمل .

٤ - وقد يكون من أسرار التنوع في تمثيل أعمال الكافرين بالرماد - والله أعلم - أن الكفار الذين تمثلهم هذه السورة الكريمة على صعيد واحد حيث يجمعهم باطلهم وجاهليتهم لما أرادوا بالملة الحنيفية الممثلة في أبي الأنبياء إبراهيم(عليه السلام)شرا وذلك حين ألقوه في النار فجعلها الله بردا وسلاما ناسب أن يلقوا جزاء يجانس أعمالهم ويتناسب مع اسم هذه السورة الكريمة التي يدل اسمها على مقصودها .

٥ - كما جاء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب والظلمات متناسبا ومتناسقا مع السياق الذى وردت فيه .

لأنه سبحانه لما ذكر حال المؤمنين وما هم عليه من نور ويقين والحامل لهم على ذلك الفوز العظيم والنعيم المقيم الذى يصيرون إليه ذكر مقابل ذلك مآل الكافرين والحامل لهم على هذا الخسران المبين فناسب أن يعطف هذا المعنى على ذلك عطف القصة على القصة ليكون بينهما هذا التناظر البديع .

---

(١) الأدب المفرد للبخارى ، باب الكِبر ص ١١٣ .

التقابل

٦ - ثم تأمل/ البديع بين هذا الذى أقام حياته على وهم وسراب وبين أولئك الذين أقاموها على نور من ربهم فزادهم نورا.

٧ - قارن بين هذا الظمآن المتوهم الذى ألهاه سراب بقيعة فقضى عمر ساعيا لاهثا وراءه حتى أهلكه الظمأ عندما جاءه ولم يجده شيئا.

وبين أولئك الرطبة قلوبهم المخبتة المنيبه إلى ربها بالغدو والآصال تثبيتا لأنفسهم وابتغاء مرضاته فأنى تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله؟.

٨ - ثم قارن بين العاقبتين فهناك عطاء واسع بغير حساب

وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وها هنا غضب جم وتوفية حساب :

وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ

٩ - كما تجد هذا التناسب والتقابل يمتد من ناحيـــة أخرى من السياق المقابل للمثل فترى هذا الظامئ وحده في شدة الرمضاء وهو يتحرق ظمأ ويتلوى كمدا بينما الوجود حوله رى خصب يمطر وابلـــه ويصيب برده من يشاء. (١)

---

(١) انظر الآية ٤٣ / سورة النور.

١٠ - ثم تأمل كيف يمتد هذا التناسق والتقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف تتضاعف وتتكاثف بحيث إذا أخرج يده لم يكد يراها.

وبين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يتراكب فيتزايد فهو نور قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يقوي النور ويزيده إشراقا ويمده باضاءة بقية ". (١)

١١ - وازن بين هذه القلوب المعرضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تتكاثف فيها الظلمات. (٢)

وبين تلك المقبلة على بيوت الله كيف يتضاعف فيها النور والإيمان.

١٢ - ثم تأمل هذا التقابل العجيب بين هذه الظلمات في ذلك العمق الغائر والتي ختم عليها فلا تقوم فيها حياة لأعمال وبين

----

(١) الكشاف ٣/ ٦٨.
(٢) انظر آية ٤٨/ سورة النور.

قدرة الله في ذلك العلو الشاهق على بعث الحياة من بين ركام السحاب وإخراج النور من بين ظلمات الدجى الفاسق[(١)] .

١٣ - وبعد فإن ما نقف عليه من هذا السبك البارع والنظم الجليل والتناسق البديع الذى لا يتناهى حسنه ومجاله وفضله وجلاله إنما هو ما يتقاطر إلينا من هذا الفيض السخي والخير الخصيب من مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء ولك أن توازن بين هذين التمثيلين وكيف جمع الله فيهما بين أمور متضادة لتعبر عن ضياع أعمال الكافرين وعدم نفعها وهذا من بديع أسلوب القرآن الكريم الذى يمثل لك الشيء بالشيء وضده .

وازن بين (سراب بقيعة) يقابله (بحر لجي) .

وبين هذه القيعة المجدبة ليس فيها قطرة ماء .

وبين بحر لجي يفيض ماؤه .

بين شدة الضوء هناك وشدة الظلمة هنا .

ومع ذلك فالعاقبة واحدة فهناك ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ وهنا : ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فالرؤية والبصيرة قد طمست والأعمال قد ضاعت وفنيت والهلاك محدق به من كل جانب .

---

(١) انظر آية ٤٧ / سورة النور .

١٤ - كما تعود أسرار التنوع في تشبيهات أعمال الكافرين بالسراب والظلمات إلى المواد اللغوية التي بنيت منها التشبيهات فنلاحظ مثلا : أن عناصر التشبيه الأول وهي (السراب القيعة الظمآن) بينها هذا التجاذب الشديد والتقارب البديع الذى يؤكد الوهم ويضاعفه ، تأمل كيف يغرى هذا السراب ذلك الظامئ فيعطفه نحوه ويجذبه إليه .

كما نجد هذا التقارب والتلاؤم بين عناصر التمثيل الآخر من (ظلمات وبحر لجي يغشاه موج) ليؤكد شدة الظلمة و تضاعفها .

الفصل الخامس :

التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين وأسرار تنوعه .

المدخـــل :

ورد ذكر النفاق والمنافقين في القرآن الكريم في عدة مواضـــع وبأساليب بلاغية مختلفة بيـــن فيها سبحانه أن النفاق مرض في القلب يحول بين صاحبه وبين نور الحق وصحة اليقين قال تعالى :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (١)

وأن ما يظهره المنافقون من نور الإسلام في الدنيا لا يمحو ولا يزيل ظلمة قلوبهم ، وتعظم حاجتهم إلى هذا النور في كرب يوم القيامة :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ (٢)

ولما كان أمر هذه الطائفة خطيراً وبلاؤها عظيماً جلى سبحانه حقيقـــة أمرها وما تنطوي عليه دخائل نفوسهم وما هم فيه من حيرة وشك في مثلين بديعين يُرى من خلالهما المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في مَعْرِض المتقين والغائب كالمشاهد (٣) ليكون في ذلك أبلغ تأكيدٍ وأعظم تقريرٍ

---

(١) البقرة /١٠٠.

(٢) الحديد /١٣.

(٣) انظر الكشاف ١/ ١٩٥.

على سوء حالهم وفساد سريرتهم وخسران عاقبتهم .

وسأقف بإذن الله وتوفيقه في هذا الفصل على أسرار التنوع وراء تشبيه المنافقين بالذى استوقد نارا وبأصحاب الصيب.

قال تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى
ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ
﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ
أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

سورة البقرة : ١٧ - ٢٠.

من أسرار المناسبة :

تمتد المناسبة بين سورة البقرة وآخر سورة الفاتحة فما أجمل هناك فصل هنا ، وهذا من بديع أسلوب القرآن الكريم.

فقد تناولت سورة الفاتحة الحديث عن ثلاثة أصناف من الناس على وجه الإجمال بينما تناولت البقرة هذه الأصناف بشيء من التفصيل .(١)

فبدأت ذلك بنفي الريب عن كتاب الله المبين، ثم بينت حال ومآل الذين آمنوا به واهتدوا بهداه وهم المتقون ، ثم بينت صفة وعاقبة الكافرين الذين طبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون ، ثم أتبعت ذلك بذكر المنافقين الذين خالط قلوبهم الريب والتبست أقوالهم وأفعالهم فخفي أمرهم وعظم بلاؤهم فأبان الحق سبحانه عن أحوالهم بما هتك من سرائرهم وكشف من ضمائرهم ليكون النّاس على بينة من أمرهم وليكون في ذلك ردعاً لهم وزجرا .

---

(١) انظر نظم الدرر ١/ ١٠.

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا . وقعت هذه الجملة موقع البيان والتقرير من الجمل الماضية لذلك لم تعطف عليها وكان بينهـا وبين ما قبلها كمال اتصال .[1]

ثم تأمل كيف جاء المشبه به صورة فردية وهي قوله تعالى :

" كمثل ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا " .

مع أن المشبه هي حالة جماعة المنافقين و يكاد يغلب هذا على أسلوب القرآن الكريم في أمثاله التي يعبر بها عن المخالفين وأحوالهم وأعمالهم .

فذلك الظمآن اللاهث وراء السراب في حرقة الصحراء ، وذلك السابح في ظلمات بحر لجي (إذا أخرج يده لم يكد يراها)[2] ، و هـذا الصفوان الأجرد وسط طبيعة ثرة خصبة تتفجر ينابيعها[3] بالحياة ،

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٢ .

(٢) سورة النور / ٣٨ ـ ٤٠ .

(٣) سورة البقرة / ٢٦٤ .

كلها صور فردية تعبر عن جماعة المخالفين وأعمالهم وأحوالهم ، ولعل حكمة مجيئها على هذه الهيئة هو أن في هذه الصورة مزيد إيحاش و تنفير وكأن صاحبها وحده وسط هذه الأهوال والحيرة والشك يتخبط ويعاني وذلك أشد وقعا عليه وأنكى له .

و تلك هي حقيقة هذه الفئة الذين لا جماعة لهم في الواقع

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (١).

ثم تأمل ما وراء (استوقد) من الكد والكدح والطلب والإلحاح في حصول ذلك والتأكيد والحرص عليه والحث والاستدعاء له ووراء ذلك الحاجة الملحة لهذا الطلب والاستيقاد .

ثم تأمل كيف يكون انطفاؤها - مع حاجته هذه إليها - أنكى له. (٢)

" ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها ". (٣)

في تنكير (نار) ما يوحي بأنها نار عظيمة ارتفع لهبها وسطع ضوؤها

---

(١) الحشر / ١٤

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٣٠.

(٣) الكشاف ١/ ١٩٧ ، البحر المحيط ١/ ٧٥.

حتى أضاءت ما حولها . (١)

فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ

جملة مفرعة على جملة استوقد. (٢) وأضاء يأتي متعدياً وهو الأصل كما في قول الشاعر :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دُجَى اللَّيلِ حَتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثَاقِبُه

ويأتي قاصراً (لازما) بمعنى صار ذا ضوءٍ كقول الشاعر :

يضيء سَناهُ أو مصابيحُ راهبٍ

أمالَ السليطَ بالذبالِ المُفتَّل

والآية لا تضيق عن هذين المعنيين أي فلما أضاءت النار الجهات حوله وهو معني ارتفاع شعاعها وسطوع لهبها أو فلما أضاءت النار واشتعلت وكثر ضوؤها في نفسها . (٣)

ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ

تأمل كيف أخرج الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر وهذا من

---

(١) انظر الكشاف ١/ ١٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٠٨.

بديع أسلوب القرآن إذ أن مقتضى الظاهر والسياق أن يقول (ذهب الله بنوره وتركه) ليعود الضمير على (الذى استوقد نارا) ولكن جمع الضمير، والتعبير (بالنور) عوضا عن (النار) أوحى بهذا الانتقال البديع الذي يدل على أن اللـه سبحانه أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين .(١)

و قريب مما ذهب إليه ابن عاشور ما جوزه الكشاف من اعتبار قوله تعالى :

﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾

استئنافا وأن التمثيل ينتهي عند قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾

ويكون جواب (لما) محذوفا دلت عليه الجملة المستأنفة.(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ١/٣٠٩ .

(٣) الكشاف ١/١٩٩ .

وينبه صاحب الكشاف إلى النكت البلاغية وراء هذا الحذف فيقول :

(وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي تحصل عليها المستوقد بما هو أبلغ في اللفظ في أداء المعنى كأنه قيل :

" فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار ".(١)

ومعنى (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) أى أطفأ نارهم .

وفي التعبير عن (النور) بدل (النار) لأنه المقصود من إيقاد النار . كما أن المقصود من التجارة الربح فالربح هو الثمرة المرجوة كما أن النور هو الغاية المقصودة .

والمشابهة بين الإسلام الذى أظهروه بقولهم: (آمنا) وبين النور قائمة ،وقد شاع استعمال النور في التعبير عن الإسلام في القرآن الكريم .

كما شاع استعمال الظلمة في الكفر .

----

(١) الكشاف ١/١٩٩.

ثم تأمل ما وراء إسناد الذهاب إلى الله سبحانه وتعالى من أنَّ الذى ذهب بنورهم هو القوى العزيز الذى لا راد لما أخذ ولا مرسل لما أمسكه [(١)] فهو أشد في تحقيق الذهاب وتأكيده .

ولأنّ تعدية الفعل بالباء فيه معنى الاستصحاب والإمساك وفي ذلك من المبالغة والتأكيد ما فيه . [(٢)]

ومنها أنه حدث بأمر خفي أوأمر سماوى لأنّ الكل بخلقه تعالى . [(٣)]

ومنها أيضا إشعار بغضب الله عليهم إذ أطفأ نارهم وذلك لأنهم استوقدوها لغير مرضاة الله وهي إما نار مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام .

أو حقيقية أوقدها الغواة للفساد والإفساد . [(٤)]

---

(١) روح المعاني ١/١٦٦ - الكشاف ١/٢٠١ .
(٢) انظر أبو السعود ١/٥١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر الكشاف ١/٢٠٠ . روح المعاني ١/١١٥

(وتركهم في ظلمات لا يبصرون)

تأمل ما وراء (تركهم) من الرمي والطرح والنبذ كأنهم كالشيء الذى لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا يخطر ببال .(١)

ثم تأمل كيف أكد شدة هذه الظلمات وتضاعفها وتراكبها وتراكمها وإطباقها بحيث لا ينفذ فيها بصر وذلك بجمعها وتنكيرها واتباعها بقوله (لا يبصرون) .

ثم إنك إذا عدت إلى هذا الجمع في (ظلمات) وجدت أنه يشير إلى أحوال كثيرة من أحوال المنافقين كل حالة منها كأنها ظلمة فكفرهم ظلمة وكذبهم ظلمة واستهزاؤهم بالمؤمنين ظلمه وهكذا .(٢)

ثم تأمل ما وراء حذف مفعول (لا يبصرون) فكأنه أوهم بأن الفعل غير متعد وفي ذلك إيماء بأن حاسة البصر عندهم كأنها معطلة

ثم تأمل كيف يتناسب هذا مع قوله تعالى في السياق السابق :

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ .(٣)

---

(١) انظر الكشاف ١/٢٠٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١/٣١٢ .

(٣) البقرة /١٥ .

"والعمه في البصيره كالعمى في البصرِ وهو التحير والتردد" (١)

وإذا ما عدت إلى هذه الجملة وهي قوله تعالى :

﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾

تجدها تقريرا وتوكيدا لمضمون جملة :

﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾

وليس في ذلك تكراراً لأن الكلام ينمو وتكثر فوائده بهذا التكرار إذ أَنَّ هذه الجملة بالإضافة إلى أنها تؤكد معنى الجملة السابقة إلا أنها تضيف إلى ذلك معنى التحقير والازدراء في (تركهم) وشدة الحيرة والتخبط في هذه الظلمات التي جمعت ثم نكرت ليزيد ذلك من هولها وشدتها وإطباقها ثم عمى البصر والبصيرة وسط ذلك كله في قوله :

﴿ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

ثم تأمل قول الزمخشرى في معنى هذه الآية إذ يقول : (٢)

---

(١) أبو السعود ١/٤٧

(٢) الكشاف ١/٢٠٣- ٢٠٤ .

" كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبو أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم[1] وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله :

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرتُ بـه

وإن ذكرتُ بسوءٍ عندهم أَذِنوا

وعن ابن عباس : صم بكم عمي لا يسمعون/ الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه .[2]

وقوله تعالى :

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ

أخبار لمبتدأ محذوف ، وحذف المسند إليه في مثل هذه المقامات أمر جرت عليه لغة العرب وكأن السياق يشتد ويحتد ، فيكون للإيجاز مع الحذف هذا الوقع الشديد التأثير في النفس والحس .

وقوله تعالى : لَا يَرْجِعُونَ ، فيها عدة وجوه منها :

" أي لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها .[3]

---

(١) أيفت : أصابتها آفة .

(٢) الطبري ١/ ١١٤ .

(٣) الكشاف ١/ ٢٠٧ .

ومنها : " أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ".[1]

ومجيء الجملة الاسمية يفيد ثبوت ذلك ودوامه واستمراره .

ثم تأمل كيف أثرى حذف المتعلق في قوله (لا يرجعون) المعنى وأفاد أنهم لا يرجعون عن أحوال كثيرة .

ثم إنك إذا ما عدت إلى هذه الآية وجدتها تقريراً وتأكيداً لمضمون ما قبلها وإيذاناً بأنهم مستمرون في ظلماتهم لا يخرجون منها لأنهم فقدوا أدوات المعرفة وآلات الحس التي يستدلون بها على طريق النجاة أو يشعرون بها أنهم في خطر وفساد .

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ

فهم في غيهم يعمهون وفي ظلمات قلوبهم ونفاقهم يترددون فأنى يرجعون .

وقد ذكر المفسرون[2] لهذا التمثيل وجوها كثيرة وذلك لأن التمثيل في القرآن الكريم لا يقتصر على وجه واحد للمشابهة بل هو مبني على الطي والدمج والثراء والخصوبة والإيجاز والاكتناز وتعدد وجوه

---

(١) الكشاف ١/ ٢٠٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ١/ ٧٦ . والفخر الرازي ١/ ٨١ .

الشبه والعلاقات الدقيقة التي تربط المشبه بالمشبه به والتي لاتظهر إلا أثناء التحليل المتأني والمدارسة والمتابعة والتذوق الواعي البصير لمعاني الكلم وسرائر النظم.

من تلك الوجوه التي ذكرها المفسرون لهذا التمثيل قولهم :

(إن الذى يستوقد النار إنما يستوقدها ليستدفع بها الأذى عن نفسه ويحميها فإذا انطفأت عنه كان قد عرض نفسه للهلاك وكشف عنها ستار الأمن وهذه حال الناطق الذى يحقن دمه بالإسلام ويبيحه بالكفر .

ومنها أنه يهتدى بنور الإسلام فإذا ارتكس ونكص فقد زال عنه ذلك النور فضل وتاه وغشيته ظلمة كفره ونفاقه.

ومنها أن المستضيء بهذه النار إنما يستضيء بنور خارجي لا ينبع من ذات نفسه وداخل قلبه أى نور مستعار فظلمة نفسه لاتزال كما هي على أن ما حوله مضاء متقد .

ولما كان هذا الضوء ضوء خارجي لا يحوطه سياج يحميه كان عرضة للذهاب والهلاك فإذا انطفأ ضل صاحبه وهلك فهو مثال لمن آقر بلسانه ولم يلج إيمانه قلبه فكأن إيمانه كالمستعار .

ومنها أنه شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة وإدبارهم وتوليهم إلى شياطينهم بضدها .(١)

---

(١) البحر المحيط ٧٦/١ (بتصرف).

وإذا كان المراد بالمشبه منافقي اليهود كان وجه الشبه هو استفتاحهم على أعدائهم وما كانوا يستنصرون به عليهم بحال المستوقد ناراً فلما بعث عليه الصلاة والسلام كفروا به ونافقوا فذهب عنهم ذلك النور.(١)

والمهم هو وصف شدة الحيرة والتخبط والتردى لمن يكون له نور ويستوقد نارا لغاية ما ثم تطفأ ناره فيصبح أشد حيرة منه قبل ذلك لأنه عرف ثم أنكر/وأبصر ثم عمى وعلم ثم جهل فلا إبصار لهم ببصر ولا بصيرة.(٢)

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر البقاعي نظم الدرر ١/ ١٢٠.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾

والصَّيِّبُ : السَّحَابُ المُخْتَصُّ بالصَّوْبِ وهو فَيْعِلٌ مِنْ صَابَ يَصُوب قال الشاعر :

* فكأنَّمَا صابَتْ عليه سحَابَةٌ * (١)

والصيب : المطر الذى يصوب أى ينزل ويقع ويقال للسحاب صيب أيضا قال الشماخ :

* وأسحمُ دانٍ صادقُ الرعدِ صَيِّبُ * (٢)

قال الزمخشرى " شبه دين الإسلام بالصيب لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به ، وشبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الإفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق .

والمعنى أو كمثل ذوى صيب والمراد : كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا " (٣)

---

(١) مفردات الراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ١/ ٢١٤ .

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٠٩-٢١٠ .

ومجيء الكاف مع حرف العطف (أو كصيب) فيه إشارة إلى إختلاف الحالين المشبهين .

والمراد بالصيب هنا القرآن أو هدى الإسلام وتشبيهه بالغيث ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعلم / كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثير / أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ ..) (١)

وهكذا يتضح لنا مجملا أن هذا التمثيل تصوير لأحوال نفوس المنافقين حين يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى كتاب الله وحين يلقون المؤمنين فيتظاهرون أمامهم بالإيمان ثم ما وراء ذلك مما يختلج في صدورهم وما يجاذب نفوسهم حين يستمعون إلى آي الوعيد لأمثالهم وآي البشارة للمؤمنين وما يقولونه لحظة أمن ثم ينكصون عنه إذا ما خلوا إلى شياطينهم . وغير ذلك من المعاني والأحوال التي يبين فيها ويجليها الوقوف المتأني أمام معاني الكلمات .

---

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين الزبيدى رقم ٧٠ ص ٤٠ .

فوراء تنكير صيب : إيحاء بأنه نوع من المطر شديد عظيم وسخي كريم فاض من أرجاء السماء وغمر الوجود .

ثم تأمل كيف أفادت الكلمة بمادتها (صوب) وبمخارج حروفها وطريقة بنائها من الصاد إلى الياء المشددة والباء عن شدة الانصباب والخير الذى عَمَّ وفاض .(١)

وشدة الصيب تستدعي شدة الظلمة التي تكاثفت من كثافة السحب وكثافة الانسكاب بالإضافة إلى ظلمة الليل .

ثم تأمل ما وراء هذا القيد (من السماء) من الإشارة إلى علو مصدره وسمو مورده وصفائه ونقائه وإحاطته وعمومه ، وأنه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالافاق .(٢)

فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

تأمل كيف يصور لك التمثيل هذه الجوانب التي طغت على نفوسهم فانخلعت لها قلوبهم جزعا وصُمَّت آذانهم رعبا وكادت أبصارهم أن تخطف إنّه الحق الذى تجلجل به السماء وتتغشى رحمتُه الوجود

---

(١) انظر أبو السعود ١/ ٥٢ - ٥٣ .

(٢) انظر الكشاف ١/ ٢١١ .

لم ينلهم منه إلا ظلماته ورعده وبرقه .

ثم تأمل ما وراء هذه الظلمات من الإيحاش والغمة التي تعترى نفوسهم إنها ظلمات الشبهات والشكوك والريب الذى يخالط قلوبهم.(١)

ثم تأمل ما وراء هذه الظرفية (فيه ظلمات) من الإشارة إلى شدة هذا الصيب والتهويل والتعظيم لأمره بحيث طغت ظلماته فهي غالبة على غيرها من ظلمة الليل والغمام وهذا أعظم في بيان شدته.(٢)

ثم ذلك الرعد القاصف والبرق الخاطف يقرع أسماعهم ويكاد يعمي أبصارهم من زواجر القرآن ووعده ووعيده .(٣)

أو أن هذا البرق الشديد اللمعان هو ما يشرق من نور الحق وضيائه وسط ظلمات نفوسهم وشبهات قلوبهم .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١/ ٣١٧.
(٢) انظر (أبو السعود) ١/ ٥٣.
(٣) انظر الكشاف ١/ ٢٠٩-٢١٠.

وهكذا نقف على جلال التمثيل في القرآن ودقته حين يصور لك كيف أحاط هذا الفزع والجزع والهول والرعب بجميع منافذ الحس لديهم فأطبق عليهم من ظلمات تغتال بهولها ووحشتها نفوسهم ورعد وصواعق تعم آذانهم وبرق يكاد يخطف أبصارهم فإذا هم في شك وحيرة بين مشي وقيام وتبصر فظلام .

ثم تأمل كيف تتوالى الأحوال فتستأنف الجمل الحالية التي تكشف عن دقائق نفوسهم وما يختلج في صدورهم إذ :

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم

تأمل هذا التناسب البديع والتدرج في التصوير وهذه الحركة الخارجية حركة أيديهم المضطربة الفزعة تلج آذانهم ثم ما وراء ذلك من حركة قلوبهم الوجلة المذعورة التي ترتجف حذر الموت .

ثم تأمل هذه الكلمات/ (من الصواعق والحذر والموت) وكيف أضفت جو الرعب والهلع وشبح الموت والهلاك بالإضافة إلى شدة الحيرة والتخبط .

ثم تأمل ما وراء هذا المجاز / المرسل في جعلهم أصابعهم في آذانهم، والمراد : رؤوس الأصابع من المبالغة في التصوير الذى ينبيء عن مبلغ الخوف والحذر . يقول الزمخشرى :

وهذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها كقوله تعالى :

" فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ "

" وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا " (١)

وقوله تعالى : " وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ "

اعتراض راجع إلى المنافقين وهو في رجوعه يتناسب ويتلاءم

مع قوله تعالى :

" ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ "

حيث رجع إلى المشبه . (٢)

ووراء ذلك أن حذرهم وما صنعوا لا يغني عنهم شيئا ولا ترد

حيلهم بأس الله بهم.

ثم تأمل ما وراء التعبير (بالكافرين) وإظهاره موضع الضمير

من الإشارة إلى أن ما أصابهم وما دهمهم من الأمور الحالكة والخطب

العظيم بسبب كفرهم .

---

(١) الكشاف ٢١٧/١ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١ .

يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ (١)

يكاد : يقارب (يقالُ كادَ يَفْعلُ إذا لم يكنْ قد فعلُ) (١)

والخطف : (وَالِاُخْتِطَافَ الِاُخْتِلَاسَ بِالسُّرْعَةِ) . (٢)

وفي الأساس (ومنْ المَجَاز البَرْقُ يَخْطف البصر) . (٣)

ثم تأمل ما وراء كلمة (يخطف)من تكرر ذلك واستمرار تجدده فهم في رعب دائم ، وعدم أمن أو يقين إلى صحة إيمانهم .

يقول أبو السعود : " إيراد (كلما) مع الاضاءة (وإذا)مع الإظلام للإيذان بأنهم حراص على المشي مترقبون لما يصححه ، فكلما وجدوا فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف، وفيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب ما لا يوصف " . (٤) وذلك في قوله تعالى :

كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ

---

(١) الراغب مادة (كيد) .

(٢) الراغب مادة (خطف) .

(٣) الأساس للزمخشرى مادة (خطف)

(٤) أبو السعود ١/ ٥٤ .

ومما يؤكد ذلك/ هذه الظرفية في قوله : «مَّشَوْاْ فِيهِ»

إذ أن المشي في محل البرق وموضع إشراق ضوئه .

والمعنى : مشوا لأجل الإضاءة فيه ، وفي ذلك إشارة إلى ضعف قواهم ومزيد خوفهم ودهشتهم وشدة حيرتهم لذلك لم يشر القرآن إلى سرعتهم في ذلك ، وفي حذف مفعول (أضاء) ما يشير إلى فرط الحيرة وأنهم كانوا يخبطون خبط عشواء ويمشون كل ممشى .(١)

وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ

أي وقفوا متحيرين غاية التحير، والظلمة بعد شدة الضوء ولمعان البرق تكون أشد وصاحبها أعظم حيرة من ذي قبل .

وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠

تأمل هذا الكلام البديع وكيف أشار إلى أن الرعد والبرق المشبه بهما قد بلغا غاية القوة ومنتهى الشدة بحيث لم يمنعهما من إتلاف سمع هؤلاء المنافقين أصحاب الصيب والذهاب بأبصارهم إلا مشيئة الله وقدرته سبحانه وذلك لحكمة يريدها .

---

(١) روح المعاني ١٧٦/١ وانظر البحر المحيط ٩٠/١ .

وهذا يعني أن المنافقين لشدة نفاقهم وترددهم وشكهم واستهزائهم بالمؤمنين وإعراضهم عن الحق تكاد أسماعهم وأبصارهم أن تتلف فلا ينتفعوا بها ولكن الله أبقاها لهم استدراجاً لهم وإملاء ليزدادوا إثما وغيا .(١)

وفي ذلك من التهديد لهم والوعيد ما فيه . التهديد بأنهم إن لم يقلعوا عن كفرهم ونفاقهم فإنَّ الله قادر على أن يطمس قلوبهم ويختم على أسماعهم وأبصارهم فلن يهتدوا إذاً أبدا .

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٢٢-٣٢٣ .

من أسرار التنوع في التشبيه الذى يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين :

رأينا كيف أن الوقوف أمام الكلمات والجمل ومساءلتها ، ومحاولة الكشف عما وراءها من سرائر النظم وبديع المعاني هو الذى يجلى لنا أسرار التنوع وراء كل تمثيل .

فعناصر التمثيل الأول ومواده تتكون من الذى يكد ويلح في طلب الاستيقاد - أى المستوقد نارا - والنار والإضاءة لما حوله ثم انطفاء تلك النار وخمودها والظلمات التي ظلوا فيها لا يبصرون عندما ذهب الله بنورهم وانعدام حواسهم التي يبصرون ويسمعون ويتكلمون بها فهم لا يرجعون ، يقابل ذلك في التمثيل الثاني " أصحاب الصيب ".

والصيب البالغ الشدة وما فيه من ظلمات ورعد وبرق وصواعق ثم حركاتهم المضطربة من وضع أصابعهم في آذانهم واحتلاج صدورهم حذر الموت ومشيهم تارة ثم قيامهم أخرى في ضوء البرق .

وثم قدرة الله عليهم وإحاطته بهم وإبقاء سمعهم وأبصارهم لحكمة يريدها مع تهديدهم بأن اللّه قادر على الذهاب بها .

يقول ابن القيم :

" فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلا ناريا ومثلا مائيا لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء

مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذى أنزله من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحا ونورا وجعل قابلية أحياءً في النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتاً في الظلمات ". (١)

١ - الصورة الأولى أو التمثيل الأول يمثل قوما لهم حاجة ماسة إلى استيقاد نارٍ وأنهم بعد الجهد والنصب والطلب أضاءت لهم النار ما حولهم وتبينوا وأبصروا فهم أهل علم ومعرفة أى بعد أن عرف المنافقون طريق الإسلام وأدركوا أنه الحق والهدى غلبت عليهم عصبيتهم وجاهليتهم ونزعتهم لتقليد آباءهم فاتبعوا شهواتهم فذهب عنهم ضوء الإسلام وأطفئت فيهم نور الفطرة وتعطلت قواهم الحسية والشعورية فهم بمنزلة الصم البكم العمي .

بينما التمثيل الثاني : يركز على هذا الخير الذى فاض وعم الوجود ويؤكد أن مصدر هذا الهدى والنور الذى أنكره الناكرون إنما هو من مصدر إلهي سام لا ريب فيه ولكن ظلمات الشك والريب حالت بينهم وبين هذا الخير والانتفاع به على أتم وجه فهم قوم مترددون بين مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماع آيات القرآن وبين شياطينهم الذين إذا خلوا

---

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٥٠- ١٥١ .

بهم قالوا لهم(إنا معكم، إنما نحن مستهزئون) فبصائرهم وعقولهم ضعيفة ولضعفها تشتد (عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق) .(١)

٢ - من أسرار التنوع أن التمثيل الأول يؤكد ذهاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون بينما لا يزال القوم في التمثيل الثاني حيارى مترددين بين إبصار وإظلام .

٣ - من أسرار التنوع أن التمثيل الأول يؤكد الله سبحانه وتعالى فيه بأنهم لا يرجعون عن ضلالتهم التي اشتروها أو لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه فهم ... قد ضلوا ولا عودة لهم .

بينما يهدد القرآن الكريم أصحاب الصيب بأنهم إن ظلوا على نفاقهم فإن الله قادر على الذهاب بسمعهم وأبصارهم ، أو أنه سبحانه إنما يدع لهم أسماعهم وأبصارهم مستدرجا لهم ليتمادوا في غيهم وطغيانهم وفي ذلك من الاستهزاء بهم والتهكم مافيه : يقول تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾(٢)

---

(١) اعلام الموقعين ابن القيم ١/١٥٠ .
(٢) البقرة / ١٥ - ١٦ .

تأمل إلى هذه التجارة التي هي رأس مالهم وإلى الهدى والعلم الذى كانوا يحرصون عليه أشد الحرص كيف باعوه وجعلوه ثمنا للضلالة .

٤ - من أسرار التنوع أن المثل النارى في الصورة الأولى يركز على أن الضوء خارج عن مستوقده منفصلا عنه ولو اتصل ضوؤها به ولا بسه لما ذهب فهو ضوء مجاوره لا ملابسه ومخالطه (١) وهو ضوء أرضي استوقده صاحبه يمثل كلمة الإيمان التي قالوها مخادعة ورياءً .

بينما الضوء في المثل المائي ضوء سماوى لا يدلهم في إيقاده يمثل النور الذى يغشاهم عند حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم لآيات الكتاب ولكن ظلمات صدورهم وما هم فيه من شك وحيرة يحول بينهم وبين الانتفاع به .

٥ - من أسرار التنوع أنـــــه بنى التمثيل الأول على الأفعال الماضية وكأنها صورة قامت وتحققت وتمت فلا عودة لهم .

بينما يمثل التمثيل الثاني صورة حاضرة متجددة مستمرة وكأنها ماثلة أمام أعيننا لا يزال البرق فيها يضيء تارة ويظلم عليهم أخرى ولا يزال القوم فيها حيارى مترددين يعانون أشد أنواع الظلمات والحيرة والشك - والتخبط لأن البرق لا يخطف إلا بصر من كان في ظلمة شديدة وهول رهيب.

---

(١) انظر التفسير القيم ص ١١٦ .

ويرى صاحب الكشاف :

" أن الصحيح الذى عليه علماء البيان أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد هو شيء يقدر شبهه به وهو القول الفحل والمذهب الجزل ".(١)

والذين يذهبون إلى أن التشبيه الثاني أبلغ من الأول كالزمخشرى وأبوحيان وغيرهما لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته وأن العرب يتدرجون من الأهون إلى الأغلظ (٢) غابت عنهم حقائق منها :

أن كل شبيه في القرآن الكريم في موضعه بليغ بل هو الأبلغ وليس في القرآن بليغ وأبلغ أى ليس في بلاغته تفاوت وإنما يأتي مراعاة لمقتضى الحال والسياق والمعنى الذى جيء به لتقريره.

والقرآن ينتقل من الصورة الأقل تركيبا إلى الصورة الأكثر تركيبا وخصوبة لأن هذا هو منطق اللغة والعقل والفطرة .

---

(١) الكشاف ١/ ٢١١.

(٢) انظر الكشاف ١/ ٢١٣ والبحر المحيط ١/ ٨٥ .

فالصورة الأولى أجملت لهم عاقبتهم وما هم فيه من عدم الانتفاع بنور الإسلام . والثانية كشفت عن دخائل نفوسهم بصورة أدق وما يعتريهم عند سماع القرآن وعندما يخلون إلى شياطينهم وترددهم في حيرتهم وشكهم ونفاقهم .

الفصل السادس :

التشبيهات التى تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار تنوعها .

المدخـل :

أفاض القرآن الكريم في الحديث عن أحوال الناس عند البعث وفي يوم القيامة وقد ورد ذلك على طريق الحقيقة كما ورد عن طريق التشبيه والتمثيل .

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٣)

---

(١) الحج / ١ ، ٢ .

(٢) ق / ٤٤ .

(٣) النبأ / ١٨-٢٠ .

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (١)

كما ورد على طريق التشبيه :

فقال تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ
يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَاشِعَةً
أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٤)

وسأقف بإذن الله على أسرار التنوع وراء كل صورة من صور التمثيل :

والملاحظ أن العناصر أو المادة اللغوية التي تجمع بين هذه التشبيهات هي الجراد المنتشر ، كأنهم الى نصب يوفضون ، الفراش المبثوث .

---

(١) الكهف/ ٩٩ .

(٢) القمر / ٧ .

(٣) القارعة / ٢ - ٣ .

(٤) المعارج / ٤٣ - ٤٤ .

وهو
وهي وان كان يجمعها معنى عام/ إسراعهم إلى الداعي خاشعة أبصارهم في غاية الذلة والضعف والوهن والتهالك والتهافت إلا أن كل صورة تتفرد بمعان وإيحاءات تتناسب مع السياق الذى وردت فيه.

قال تعالى :

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾

سورة القمر آية ٧ .

من أسرار المناسبة :

تتميز سورة القمر بشأنها حملة رهيبة عنيفة على المكذبين بالنذر من تهديد ووعيد وإعتذار وإنذار وهول راجف وفزع مزلزل :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (١)

ابتدأت بالحديث عن الساعة وأنها قريبة جدا وقدمت بين يديها آيـة تدل على إكرامٍ لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا إثباتا لنبوته لأن نبوته ثابتة بنزول القرآن .

تأمل ما وراء ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ من تحقق وقوعها وأن ما سيقع هو عند الله واقع لا محالة .

ثم تأمل ما وراء انشقاق القمر من قـدرة الله تعالى في آية من أعظم آيات الله في الكون فإن كان القمر ينفطر ويتشقق استجابـة لأمر الله فكيف بهذه القلوب الجاهلة المعرضة تنكر وتكذب وتدعـي أن ذلك سحر مستمر :

﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (٢)

---

(١) القمر / ١٨ .

(٢) البقرة / ٧٤ .

وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝

تأمل إلى موقفهم من آيات الله في الكون ومن الحق الذى بلغ الغاية والنهاية في الحكمة والهداية والبيان ما زادهم إلا إعراضا وتكذيبا اتباعا لأهوائهم لا استنادا إلى حجة هذا في الوقت الذى تجد فيه كل ما في الكون يسير لغاية يستقر إليها ونظام يقوم عليه وثبات واستقرار في كل سنن من سنن الكون والحياة حتى وظائف الأجسام والأعضاء لا سلطان للأهواء عليها فهذا الاستقرار يتجلى في كل شيء وفي كل أمر من بين أيدينا وخلفنا إلا هوءلاء الكافرين هم المضطربون المخالفون لسنن الله في الوجود والمنقادون لأهوائهم تتجاذبهم كيف تشاء فدعهم حتى يأتي يوم ينتهي فيه كل شيء إلى مستقره فتأمل حالهم ومصيرهم في ذلك اليوم.(٢) قال قتادة : " إن الخير يستقر بأهل الخير والشر بأهل الشر، وقيل يستقر الحق ظاهرا ثابتا والباطل زاهقا ذاهبا ".(٣)

---

(١) القمر / من آية ١ الى آية ٥ .

(٢) في ظلال القرآن ص ٣٤٢٨ الطبعة التاسعة .

(٣) انظر البحر المحيط ٨/١٧٤.

من أسرار اللغة والنظم :

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ (١)

تأمل التناسب والتقابل البديع فكما أعرضوا عنك يا محمد وعن الحق الذى جئت به رحمة وهدى فأعرض عنهم وتولى عنهم في أحلك ساعاتهم وأعسر أيامهم .

" أو فأعرض عنهم فإن الإنذار لا يجدى فيهم " (٢)

والنكر - " الإنكارُ ضِدُّ العِرْفانِ ويقالُ أنْكَرْتُ كذا ونَكَرْتُ وأصْلُهُ أنْ يَرِدَ على القَلْبِ ما لا يَتَصَوَّرُهُ وذلك ضَرْبٌ من الجَهلِ ... والنُّكْرُ : الدَهاءُ والأمْرُ الصَّعْبُ الذى لا يُعْرَفُ ". (٣)

وفي قوله (شيء نكر) وجوه منها :

" أى يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذى أنكروه ". (٤)

وقيل (نكر) أى منكر لا ينبغي أن يكون أو يقع لأنه يرديهم في الهاوية . (٥)

---

(١) القمر / ٦ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٧٤ .
(٣) الراغب مادة (نكر) .
(٤) تفسير الفخر للرازى ١٦/ ٣٤ .
(٥) المصدر السابق .

فهو أمر صعب وشاق عليهم كالحساب والوقوف بين يدى اللّٰه يوم القيامة ولم تكن نفوسهم قد تهيأت لتصوره والإيمان به واعتقاده ، ففاجأها واغتالها لهوله .

(خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ)(١)

تأمل كيف وصف الأبصار بالخشوع ولم يصف به قلوبهم لأن خشوعهم هنا عن ذلة وإهانة من شدة الهول فهم أذلاء ، وقدم الحال على الفعل لمزيد الاهتمام به .(٢)

فوراء هذه الكناية الواصفة خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ما في البصر الخاشع من معنى الاستسلام والخضوع الدائم الملازم لهم في ذلك اليوم يقول الطبرى :

" وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم والمراد به جميع أجسامهم لأن أثر ذلة كل ذليل وعزة كل عزيز تتبين في ناظريه دون سائر جسده ".(٣)

---

(١) القمر / ٧ .

(٢) انظر روح المعاني ٩ / ٨٠ .

(٣) الطبرى ٩ / ٥٣ .

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (١)

تأمل ما وراء يخرجون من استحضار ذلك المشهد العظيم الذى يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم في جو من الهول والخوف .

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

ثم تأمل كيف يركز التشبيه هنا على معنى الكثرة والتموج والانتشار على غير نظام مع تسليط الضوء على معنى التخاذل والضعف والوهن الذى هم فيه والمتجلى في أبصارهم الخاشعة .

يقول ابن فارس :

نشر " أصلٌ صَحِيحٌ يَدلُّ على فَتْحِ شيءٍ وتَشعُّبه ". (٢)

والجراد : معروف * فَأَرْسَلْنا عليهم الطوفان والجراد والقمل * . (٣)

ويجوز أن يجعل أصلا فينشق من فعله جَرَدَ الأرض ويصح أن يقال سمى بذلك لجَرْدِهِ الأرض من النبات ".

---

(١) القمر / ٧.
(٢) المقاييس مادة (نشر).
(٣) الأعراف / ١٣٣.

تأمل هذا وما وراء ذلك من الإيحاء بأنهم جـــــــراد ليـــــــــــس لهم ما يقدمونه لأنفسهم لأنهم جردوا نفوسهم من إيمانها وكل ما ينفعها عند ربها ،ثم إن كلمة " منتشر " تعبير صادق حي حركي يوحي بعدم انضباط نفوسهم وانتظامها بسنة الله في الوجود وشيوع الحيرة والفزع والهول والاضطراب فيهم.

كما أن في التعبير "بالجراد المنتشر" ما يتلاءم مع جو السورة من " أعجاز نخل منقعر" " هشيم محتظر" فكلها توحي بالهـــلاك والفناء .

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

(مسرعين اليه قال أبو عبيد مادى أعناقهم). (٢)

تأمل حركة أعناقهم وما وراءها من الإسراع الحثيث الجاد إلى ما ينتظرهم من هول ، ثم التعبير المنبيء عما يختلج في صدورهم من كرب وغمة ﴿ هذا يوم عسر ﴾ وكل ذلك على إيقاع واحد وتناسب في السبك والنظم يتناسب مع جو الهلع والفزع والرعب مع مشهد يوم القيامة وأحوال الناس عند البعث .

---

(١) القمر / ٨ .

(٢) روح المعاني ٩ / ٨٠ .

قال تعالى :

فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سورة المعارج ٤٢ - ٤٤ .

من أسرار المناسبة :

حينما نتأمل المناسبة بين نهاية السورة الكريمةوهي قوله تعالى :

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

وبين بدايتها وهي قوله تعالى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾

نقف على هذا التناسب البديع ورد العجز على الصدر الذى يؤكد فيه سبحانه أن هذا العذاب سيحل بالكافرين ولا يستطيع أحد رده ، والذى أصابهم بسبب طغيانهم وجحودهم وتمردهم على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يتدرج الحديث عن ذلك اليوم الموعود الذى يتحقق فيه هذا الوعيد . وفي هذا الجو المليء بالرهبة والخشية تصعد الملائكة إلى السماء تتنزل بأمره ووحيه . ثم ترى الجبال تتطاير وتتناثر كالعهن المنفوش ، والسماء تذوب كالمهل ، والكل في هم شاغل ، وفزع هائل - ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ .

ولا يثبت في ذلك اليوم العظيم إلا الذين يصدقون بيوم الدين والذين يصف القرآن الكريم كيف كان تصديقهم لذلك اليوم تطبيقا عمليا على حياتهم قلبا وقالبا روحا وجسدا :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ (١)

ثم يعرض مقابل ذلك النعيم والتكريم حال المشركين الذين يسرعون الخطى في الدنيا إلى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام مادى أعناقهم إليه ، مقبلين بأبصارهم عليه (٢) لا رغبة في هديه ونوره ولكن استهزاء بسه وبأصحابه .

قال المفسرون : " كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة - كما يقول محمد - فلندخلها قبلهم ،فنزلت الآية (٣) .

ثم قارن إسراعهم في الدنيا استهزاء بالدين وإسراعهم في الآخرة ، وكيف يستهزئ الله تعالى بهم فيقول :

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾

حيث شبه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا إلى آلهتهم وطواغيتهم وفي هذا من التهكم بهم والسخرية والازدراء ما فيه .

---

(١) المعارج / ٣٥ .

(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٦٠ .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥/ ١٩٥ وتفسير الخازن ٤/ ١٥٢ .

من أسرار اللغة والنظم :

الخوض : هو الشُّرُوعُ في الماء وَالْمُرُورُ فيه واكثَرُ ما وَرَدَ في القرآن فيما يُذَمُّ السشروعُ فيه .(١)

والنصب : من نَصَّبُ الشيء ووضْعُهُ وضْعاً ناتِئاً كنَصْبِ الرُّمْحِ والبناء والحجَرِ وَالنَّصِيبُ الحجارَةُ تُنَصَّبُ على الشيء.(٢)

" وهو كل ما نصب فعبد من دون اللّه ".(٣)

يوفضون : مضارع أوفض .

"أوفض إيفاضاً أَسرَعَ ".(٤)

ثم تأمل كيف تأتي كلمة (كلا) ردعاًلهم عن الطمع في دخول الجنة وعلة ذلك أنهم ينكرون البعث والجزاء .

ثم يأتي الأمر والنهي للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يترك ماأهمه من أمر عنادهم وكفرهم ويدعهم في خوضهم ولعبهم.(٥)

---

(١) الراغب مادة (خوض).

(٢) الراغب مادة (نصب).

(٣) الزمخشري ، ٤/١٦٠.

(٤) المقاييس مادة (وفض).

(٥) انظر التحرير والتنوير ٢٩/ ١٨١.

حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾

انظر ما وراء هذا التعبير من رحلة طويلة فيها ما فيها من جهد وتعب ومعاناة وعمرا طويلا أضاعوه فيما لا يجدى ولا يثمر ثم هم يلاقوا يومهم الذى يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون .

ثم تأمل الحال التي آلوا إليها بعد تكبر وعناد في الدنيا إلى يوم القيامة منتهى الضعف والذلة والهوان وهم يسرعون الخطى إلى الداعي/مستبقين كأنهم يستبقون إلى أنصابهم .(٢)

يقول ابن عاشور : وفي هذا التشبيه إيماء الى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دع ودفع جزاءً على إسراعهم للأصنام.(٣)

وقارن بين إسراعهم لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء مادين أعناقهم إليه مقبلين بأبصارهم عليه وبين إسراعهم يوم القيامة خاضعين خاشعين من الذل (ينظرون من طرف خفي) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

---

(١) المعارج / ٤٢.
(٢) الكشاف ١٦٠/٤ .
(٣) التحرير والتنوير ١٨٣/٢٩.

والرهق : من رَهِقَهُ الأمْرُ غَشِيَهُ بِقَهْرٍ. (١)

كما أن من لطائف التشبيه الإيحاء بأن التعب والمشقة والجهد الذى يبذلونه أو بذلوه لا طائل من ورائه لأن السعي إلى الأنصاب بجانب ما يوحيه من معنى الذل والمهانة والخضوع يوحي أيضا بأنه سعى إلى حجارة لا تضر ولا تنفع وأنه سعى لا ثمرة من ورائه وكذلك هم يوم القيامة مما يؤكد أنهم لن يسعوا إلى شيء إلا للعذاب والهلاك .

---

(١) الراغب مادة (رهق).

قال تعالى :

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾
يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ
ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ (١)

---

(١) القارعة / آية ١ - ٥ .

من أسرار المناسبة :

تتحدث سورة القارعة عن القارعة وأهوالها والآخرة وشدائدها ومايقع فيها من أحداث عظام وأهوال شداد كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم وكثرتهم كالفراش المبثوث المتهافت هنا وهناك وما يحدث للجبال من تطاير ونسف كالصوف المنبث .

ثم تأمل كيف قرن الناس إلى الجبال إشارة وتنبيه الى أن تأثير القارعة في الجبال هذا التأثير فما عساه يكون حال الناس فيها .

ثم يتحدث عن الجزاء على الأعمال وأنها تقاس بثقلها وخفتها في الميزان .

وسميت القارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها .

ومناسبتها لما قبلها لأنه لما ذكر سبحانه وقت بعثرة القبور (١) فكان مناسبا ذكر يوم القيامة . (٢)

---

(١) في السورة التي قبلها -العاديات آية ٩ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨/٥٠٦ .

من أسرار اللغة :

القرع : " ضرب شيء على شيء " (١)

" والقرع الضرب بشدة واعتماد ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر القارعة ...

ومن أسماء يوم القيامة القارعة . وأما سر تسميتها ففيه وجوه منها : أن القارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والإفزاع ، وقيل تقرع أعداء الله بالعذاب والخزى والنكال لأن المؤمنين آمنون (وهم من فزع يومئذ آمنون) . (٢)

يقول ابن عاشور :

" وأطلقت القارعة على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات كقوله تعالى :

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ (٣)

وقيل : تقول العرب قرعت القوم قارعة إذا نزل بهم أمر فظيع ولم أقف عليه فيما رأيت من كلام العرب قبل القرآن ". (٤)

---

(١) الراغب مادة (قرع) .
(٢) الفخر الرازى (بتصرف) ١٦/ ٧٠ .
(٣) الرعد / آية ٣١ .
(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥١٠ .

والفراش " شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار.

قال جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه ... مثل الفراش غشين نار المصطلى

وفي أمثالهم : أضعف من فراشه وأذل وأجهل .

وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره ". (١)

" وقال الزجاج الفراش هو الحيوان الذى يتهافت في النار وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره ". (٢)

والمبثوث : " الباء والثاء أصل واحد وهو تفريق الشيء وإظهاره يقال بثوا الخيل في الغارة وبث الصياد كلابه على الصيد والله تعالى خلق الخلق وبثهم في الأرض لمعاشهم وفي القرآن ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (٣) أى كثيرة متفرقة . وبثثت الحديث أى نشرته ". (٤)

والعهن المنفوش : (النفش نشر الصوف ونَفْشُ الغَنمِ انتشارها والنفش بالفتح الغنم المنتشرة). (٥)

---

(١) الكشاف ٢٧٩/٤.
(٢) الفخر الرازى ٧٠/١٦.
(٣) الغاشية / ١٦.
(٤) المقاييس مادة (بث).
(٥) الراغب مادة (نفش).

تأمل هذا البدء المهول الذى فيه من التشويق والترغيب إلى معرفة ما سيكون ، القارعة ، ما القارعة .

ثم تأمل هذا القرع المفزع والهول الرهيب الذى ترى فيه الخلق على غير نظام في ضعف وذلة ومجيء وذهاب مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذى يتهافت على الهلاك وهم يسرعون إلى الداعي الذى يدعوهم إلى المحشر . (١)

ثم انظر إلى التناسق البديع بين شدة القرع ومنتهى الضعف والذلة والهوان الذى آل اليه الناس في ذلك اليوم وذهابهم إلى غير جهة على غير نظام ، لأن شدة القرع وعظم الهول يدعو لعدم الانضباط والتهالك والتهافت .

وهذه الكاف في (كالفراش المبثوث) توحي بأنهم أذل من الفراش لأن الفراش لا يعذب وهم يعذبون .

ثم تأمل كيف جاءت جملة :

يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ

بياناً للابهام الذى في قوله تعالى ﴿ ما القارعة ﴾

وقوله : وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢)

تهويل إثر تهويل .

---

(١) انظر روح المعاني ٢٨٢/١٠ وانظر التحرير والتنوير ٥١١/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٥١٢/٣٠ .

ثم انظر كيف جاء هذا التعبير البديع وهذا التقابل العجيب بين هذين الكونين : كون الناس (كالفراش المبثوث) وهو إيجادهم بعد عدم وبعثهم بعد موت ، وكون (الجبال كالعهن المنفوش) في انتشارها وتفتتها واضمحلالها فهو كون يؤذن بزوال وفناء فهذا عالم يولد ويظهر وآخر يزول ويرحل ، والكل في حالة ذهول وفزع وتطاير وخفه وضعف وذله .(١)

ثم تأمل كيف تقاس الأعمال في ذلك اليوم العظيم بثقل الموازين وكيف يتقابل مشهد الخفة والتطاير بمشهد الثقل والرضى والاطمئنان :

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

وأما الكافرون فما أشبه أعمالهم بهم في خفتها وتطايرها وهويها في نار جهنم :

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝
نَارٌ حَامِيَةٌۢ

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٣ .

من أسرار التنوع :

وبذلك نخلص إلى أن التشبيه لأحوال الناس عند البعث وان كان يشترك في معنى عام وهو وصف ضعفهم وذلتهم وهوانهم مع كثرتهم وانتشارهم وإسراعهم الخطى نحو الداعي في جو رهيب من الهلع والفزع المحاط بهم إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذى وردت فيه .

١ - التشبيه في سورة القمر :

يصف أهوال يوم القيامة حين يدعو الداعي ، فيبعث الموتى من قبورهم ويخرجون منتشرين في هذا المشهد الرهيب وهو يركز على خروج الناس من جوف الأرض وانتشارهم على ظهرها كالجراد المنتشر في الكثرة والتدافع وجولان بعضهم في بعض وتموجهم واضطرابهم ويتلاءم مع السياق السابق الذى وصف عدم انضباطهم في الدنيا وذلك باعراضهم عن سنن الله في الكون ولشريعته وهديه ونوره فكانوا عرضة للأهواء تتجاذبهم وتتناوشهم من كل مكان فهم اليوم كذلك لا يأمنون من الفزع الأكبر بل يضطربون ويتماوجون ويجول بعضهم في بعض من شدة الهول والفزع .

بينما التمثيل في سورة المعارج : يركز على طريقة إسراعهم

في ذلك اليوم وكأنهم إلى نصب يوفضون) لأن الجو والسياق حولهم مليء بالرهبة والخشوع والخضوع حيث تنزل الملائكة بأمره ووحيه .

ثم هو يقابل بين إسراعهم في الدنيا بمجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستهزئين به وبأصحابه ، وبين إسراعهم في الآخرة إجابة للداعي في رهبة وخضوع واستسلام مطلق يتناسب مع جو العبودية والخضوع والرهبة لله سبحانه وتعالى .

فكان التمثيل في سورة القمر في يوم القيامة عامة والتمثيل في سورة المعارج في موقف خاص من مواقفه .

٢ - من أسرار / التنوع أن التشبيه في سورة المعارج وصف أبصارهم بأنها (خاشعة) على وزن (فاعلة) لتفيد دوام خشوعها وخضوعها ، ولأن تخاذل النفس وتماسكها إنما يظهر في أحوال البصر .

بينما وصف البصر في سورة القمر بقوله : (خُشَّعاً أبصارهم) زيادة في التهويل والتقريع لأنهم يدعون إلى شيء نكر وشديد صعب تأمل الضمتين على الحرفين الأول والثاني وما فيها من معنى ارتفاع الشدة . (١)

---

(١) انظر التصوير البياني ، د/ محمد محمد أبو موسى ص ٢٩ .

٣- من أسرار التنوع أن التشبيه في سورة المعارج يؤكد بطلان سعيهم وأنه سعي لا ثمرة من ورائه لأنه أشبه بسعي من سعى لمن لا يملك بهم ضرا ولا نفعا فهم يسعون " كأنهم إلى نصب يوفضون ".

بينما نجد أن التشبيه في سورة القارعة :

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾

يتناول بجانب الكثرة والانتشار على غير نظام معنى التخاذل والوهن والضعف الذى يكون عليه حال الناس عند ابتعاثهم من قبورهم في ذلك المشهد الذى يقرع القلوب بهوله .

ويبين أنهم تخاذلوا أشد التخاذل بحيث لم يبق فيهم بقية من قوى وتماسك فصاروا كالفراش المبثوث وهذا يتناسب مع شدة القرع وهول الموقف ، والفراش مثل في الوهن والضعف ومثل في الخفة والحماقة والتهافت والطيش .

٤ - من أسرار التنوع أن التشبيه الأول في سورة القمر وصف الجراد بالانتشار بينما التشبيه في سورة القارعة وصف الفراش بالبث ، وبينهما فرق . والفرق بين البث والانتشار أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في البث ، ولذلك تقول العرب : نشر عليه ثوبه ولا تقول بثه .

٥ - من أسرار التنوع الفرق بين الصياغتين فالمبثوث مفعول من بث وقع عليه البث والمنتشر اسم فاعل من انتشر حدث منه الانتشار.

فهم في التشبيه الأول كالجراد الذى ينتشر بنفسه وهو يتناسب مع * أعجاز نخل منقعر * (وهشيم محتظر) وهكذا.

بينما التشبيه الثاني كالفراش المبثوث أى الذى يبثه غيره وهو يتناسب مع تلك الجبال التي تغرق وتنفش ويتحلل ألوانها وأصباغها وتتراءى ألوانا شتى فتكون مثلا في الخفة وفي اختلاف الألوان وهكذا تتناسب مع الفراش المبثوث . (١)

---

(١) انظر التصوير البياني ، د/ محمد محمد أبو موسى ص ٣٠.

الخاتمة

الخاتمـــــــــــــــــة

قامت هذه الدراسة على إدراك أسرار التنوع في تشبيهـــات القرآن الكريم وكان لا بد للوقوف على ذلك من إمعان النظر في آيات التمثيل ومدارستـها كلمة كلمة وجملة جملة وترسم كل ذلك توسما واعيا في ضـــوء السياق الذى وردت فيه ومحاولة استخراج ما وراءها من فيوضــــــــات وأحوال وأسرار .

والإحاطة بكل أسرار التنوع أمر خارج عن طاقـة البشر وإنما وقفنا على ما فتح الله به علينا وما تقاطر منها إلينا .

ففي الفصل الأول : انتهيت فيه بعد التحليل والمدارسة والموازنة الى أن تشبيهات الحياة الدنيا وإن كانت تشترك في معنى عام وهو تشبيه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وافتتان الناس بها ثم ما تؤول إليـــه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذى ورد فيه واستقى منه .

فالمثل الأول في سورة يونس يهتم ببيان من يبـغي فـــي الأرض ويغتر بالحياة الدنيا ويشتد تعلقه بها ويقوى إعراضه عن أمـــــر الآخرة والتأهب لها . ويبين عن أنهم قد بلغوا في الفتنة بها غايــــة الطغيان حتى ظنوا القدرة عليها والتمكن منها وفيه ابراز لسلطــــان العلم الذى سخره الله للبشر فحادوا به عن الجادة حين توهموا أنهـــم العالمون بالدنيا المتمكنون منها .

فهو مبني على التفصيل والتحليل لتغلغل هذه الحياة الدنيا في قلوب القوم ثم ما آل اليه حالهم حين باغتهم أمر الله ، بينما نجد أن التمثيل الثاني في سورة الكهف مبني على الطي والدمج ، لأنه هنا يركز على جانب سرعة زوال هذه الحياة الدنيا الذى يكاد ينطق بالتعبير عنها هيئة المشبه به بجمله الثلاث القصار وأن هذا يتناسب ويتلاءم مع السياق الذى تحدث فيه سبحانه عن اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وافتخارهم بها على فقراء المسلمين - وظنهم أنها لن تبيد أبدا ﴿ وَمَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ فناسب هذا التقابل البديع بين طول الأمل في البقاء وانكار البعث مع قصر الحياة الدنيا وسرعة الفناء .

في حين أن التمثيل الثالث في سورة الحديد يهتم ببيان شدة الإعجاب بالحياة الدنيا من حيث هي لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد / وكيف حالت بينهم هذه الأمور عن المسارعة لطاعة الله والإنفاق في سبيله لأنهم إنما يستبقون المال لإنفاقه في لذائذها وشهواتها ، هذا بالإضافة إلى فروق ودقائق أخرى ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثاني ظهر لي أن تشبيهات الإنفاق في سبيل الله وإن كانت تشترك في معنى عام ألا وهو مضاعفة الأجر والثواب . إلا أن التشبيه الأول يهتم بالمضاعفة الحسابية التي تتمثل في ﴿ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ .

بينما يبرز التمثيل الآخر للإنفاق في سبيل الله أثرا آخر للإنفاق ، وهو ما يعود به الإنفاق على نفس صاحبه بحيث تعتاد الخير

فلا يصدر عنها إلا فضائل الأعمال ويصبح الإنفاق سجية من سجاياها إن أصابها وابل أثمرت وأمرعت وإن لم يصبها وابل فطل أى فهي ممرعة مثمرة وفيه حث على تكرير الإنفاق لتربية هذه الملكة .

كما ظهر من أسرار التنوع في هذا الفصل الانتقال من الصورة البسيطة التركيب في المثل الأول إلى الصورة الأكثر تركيبا وخصوبة ويعود ذلك لتكاثف الأحوال وثراء المعاني حيث النفوس مليئة مفعمة بمعاني العطاء والخير مبتغية وجه الله وفيه تدرج في تربية النفس لأن الأمور المحسوسة هي أول ما تدركه ثم ترتقي إلى ابتغاء مرضاة الله بينما نجد أن تشبيهات الانفاق رئاء الناس والمصحوبة بالمن والأذى ، ونفقات الكافرين وإن كانت تشترك في معنى عام وهو بيان إحباط العمل وإبطاله وضياعه إلا أنها تتميز بمعان تتناسب مع السياق الذى وردت فيه والعلة التي من أجلها كان إحباط العمل، فالمرائي الذى مثله صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ لم تثمر أعماله أصلا لخلو قلبه من الإيمان بالله الذى يرجو به ثوابا أو يخشى عقابا فعلته وآفته تمس أصل العقيدة وجوهرها .

بينما المانّ والمؤذي بلغت نفقتهما غاية الوفرة والكثرة والخصوبة ثم طرأ عليها ما أحبطها وأفسدها وهو أحوج ما يكون اليها .

أى أن صدقته وقعت صحيحة ثم بطلت بالمن والأذى بينما المرائي لم يأت بالعمل مقبولا صحيحا بل أتى به باطلا مردودا .

ومن أسرار التنوع بين هذه الجنة التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت وبين تلك الريح الشديدة البرودة التي * أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته * وأن الإعصار الذى فيه نار أشبه بحرقة المن والأذى

وتمزيقه لأواصر المحبة وإشعاله الحقد والبغض في النفوس ،فناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل .

أما الريح الباردة فهي أشبه بالمؤمنين الأشداء على الكافرين الذين أهلكوا حرث هؤلاء الظالمين الذى بذلوه لمحاربة الله ورسوله فالحرث هنا في أجواء شديدة الحرارة والاتقاد / لأنها لاشعال الفتنة والفرقة بين المسلمين ومحاربة دين الله فناسب أن تكون هذه الريح الشديدة البرودة لإطفاء نار الكفر والبغض وإخماد شوكة المشركين إلى جانب فروق دقيقة ولطائف عجيبة ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثالث انتهيت إلى أن تشبيهات الحق والباطل وإن كانت تشترك في معنى عام هو بقاء الحق وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل تشبيه منه يتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله غيره .

فالتشبيه الأول يمثل الحق إبان نزوله من السماء وكيف تلقته تلك الطائفة المؤمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل بالتكذيب والانكار وقد جاء التعبير عنه بالأفعال الماضية (أنزل - سالت - احتمل) التي أفادت تحقق وقوعه وأنه تمثيل لصورة قامت وتمت.

بينما التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع في (يوقدون) ليدل على صورة متجددة ومستمرة يلابس الباطل فيها معدن الحق وينشغل فيه ولكن الشدائد والمحن التي تمثلها عملية الإيقاد على معدن الحق تطرد زبد الباطل فلا يلبث أن يزول ليبقى جوهر الحق الصافي الممثل له بالماء النافع والمعدن الذى تتخذ منه الحلية والمتاع .

ثم تـأتي النتيجة المترتبة على نزول الحق وبقائه في الأرض، وهي تثبيت جذور شجرة التوحيد في القلب الممثل لها بالكلمة الطيبة واجتثاث كلمة الكفر والشرك الممثل لها بالكلمة الخبيثة .

كما نلاحظ أن من أسرار التنوع مراعاة التمثيل لأحوال البيئة المعاشية . . حيث تجد الصورة الأولى الممثل بها الحق أقرب إلى أهل البادية ، بينما الثانية هي من واقع الحضر وتشترك الألفاظ بجرسها وقوتها أو رخاوتها في التعبير عن ذلك .

وفي الفصل الرابع انتهيت إلى أن تشبيهات أعمال الكافرين وإن كانت تشترك في معنى عام وهي أنها باطلة لاغية لا منفعة فيها ولا خير يرجى منها مهما عظمت وكثرت إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق الذى وردت فيه .

فالتشبيه الأول ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ يدل على المحق والسحق وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك وفي عناصره من الجزالة والقوة ما يتناسب مع المعنى الذى سيق له وهو وإن كان يشترك مع قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ في بيان تبدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثرا إلا أن الثاني يتميز بدقة عناصره ورقتها لأنها تمثل معنى الضآلة والحقارة ثم التناثر والذهاب بها كل مذهب وهذا المعنى يتلاءم مع السياق الذى ورد فيه .

كما لاحظنا أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب ، والظلمات لأنها وردت في سياق يتحدث عن حال المؤمنين والحامل لهم على ذلك الفوز العظيم ثم ما يصيرون إليه من نعيم مقيم فذكر مقابل ذلك

مآل الكافرين من الخيبة والخسران المبين ثم عطف عليه الحامل لهم على هذا الخسران وهو خلو أعمالهم من نور الحق و تلبسهم بالظلمات .

ومن أسرار التنوع أيضا أن السراب يمثل أعمالهم الحسنة والظلمات تمثل أعمالهم الفاسدة كالفتن والكفر والشرك و رذائل النفوس وغيرها .

ولاحظنا التناسق البديع بين المثلين وسياق الآيات حيث ترى هذا التقابل الرائع بين من أقام حياته على وهم وسراب وسعى لاهثا وراءه حتى وجد الله فوفاه حسابه وبين الذين أقاموها على نور من ربهم فزادهم نورا .

كما نجد التقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف تتكاثف وبين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يتضاعف وقد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت وهكذا . .

إلى غير ذلك من الفروق والدقائق التي تجلت في ضوء التحليل والمدارسة والموازنة .

وفي الفصل الخامس وقفت على أن تشبيه المنافقين بالمستوقد نارا وبأصحاب الصيب وإن كانا يشترك في معنى عام وهو ما هم فيه من شدة الحيرة والتردد والتخبط لانطماس بصائرهم وتشككهم في دين الله إلا أن لكل تشبيه سياقه ونسقه الذى يتميز به .

فالصورة الأولى تمثل قوما لهم حاجة ماسه إلى استيقاد نار ، وإنهم بعد الجهد والنصب أضاءت لهم فتبينوا وعرفوا فهم أهل علم

بعد أن وضلوا
ومعرفة ثم إنهم/عرفوا أنكروا /وغلبت عليهم جاهليتهم فذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

بينما التمثيل الثاني يبين عن هذا الخير الذى فاض عليهم ولم ينتفعوا به ولم يصبهم منه إلا صواعقه ورعده وبرقه أى هذا الهول والفزع الذى أحاط بهم من كل جانب ونفذ إليهم من كل حاسة.

التمثيل الأول يؤكد الله فيه أن القوم لا يرجعون عن غيهم وضلالتهم ، بينما الثاني لا يزال القوم فيه حيارى مترددين بين مشي وقيام وتبصر فظلام.

وفي الفصل السادس وقفت فيه إلى أن تشبيهات أحوال الناس عند البعث وان كانت تشترك في معنى عام وهو وصف ذلتهم وضعفهم وهوانهم وتهالكهم وتهافتهم ذلك اليوم إلا أن كل صورة تنفرد بمعان وإيحاءات تتناسب مع السياق الذى وردت فيه .

ففي سورة القمر يصفهم بالجراد المنتشر في تدافعهم وتزاحمهم واضطرابهم وعدم انضباطهم وذلك يتناسب مع السياق الذى وصفهم فيه تعالى في الدنيا بأنهم كانوا غير منضبطين لشريعة الله تتجاذبهم الأهواء وتتناوشهم من كل مكان .

والتمثيل الثاني يركز على طريقة إسراعهم في ذلك اليوم وكأنهم إلى نصب يوفضون لأن السياق حولهم ملئ بالرهبة والخشوع تتنزل فيه الملائكة بأمر الله ووحيه وهو يقابل بين إسراعهم في الدنيا لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين به وبأصحابه وبين إسراعهم يوم القيامة إجابة للداعي في خضوع واستسلام مطلق .

وفي سورة القارعة يركز التشبيه بجانب التعبير عن الكثرة والانتشار على غير نظام معنى التخاذل والوهن والضعف الذى يكون عليه حال الناس عند البعث ويبين عن أنهم تخاذلوا أشد التخاذل وذلك يتناسب مع شدة القرع وهول الموقف .

ومع تلك الجبال التي أضحت كالعهن المنفوش في اختلاف الوانها وخفتها .

ومن الأصول التي وقفنا عليها وراء أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم(١) تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الغرض الذى سيق له والسياق الذى ورد فيه .

(٢) الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب إلى الصورة الأكثر تركيبا وتعقيدا تدرجا في إقناع النفس وتلاؤما مع تكاثف الأحوال ووفرة المعاني وسخائها .

(٣) التعبير عن المعني الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين ، كالمثل المائي والنارى والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن ، فالماء هو الحق الذى نزل من السماء فسالت به أودية بقدرها .
وهو الصيب الذى أصاب القوم من هدى القرآن وخيره ولكنهم لم ينتفعوا به وهو الوابل الذى أزال التراب عن الصفوان / وهو الذى زكت به الجنة ذات الربوة وهو الماء الذى اختلط بنبات الأرض لتمثيل الحياة الدنيا وهو الغيث الذى أعجب الكفار نباته .

وهو السراب الذى تراءى للظمآن .

وهو البحر اللجى الذى تكاثفت فيه الظلمات.

والنار هي النار التي استوقدها المستوقد ليستضئ بها ، وهي النار التي أحرقت أعمال الكافرين فأصبحت رمادا تشتد به الريح ، وهي النار التي أوقدت على معدن الحق لتذهب زبد الباطل ، وهي ضمن الجائحة التي جعلت ما على الأرض حصيدا في تمثيل الحياة الدنيا أوهشيما تذروه الرياح .

وهي النار في الإعصار الذى أحرق الجنة ذات الأنهار والأشجار والثمار .

ومن الصور المتقابلة أيضا التعبير عن المعنى الواحد بأجواء حارة جافة كسراب بقيعة، وأجواء رطبة ندية كبحر لجي .

(٤) كما أن من أسرار التنوع وأصوله مراعاة أحوال البيئة المعاشية والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من البادية وأخرى من الحضر في تمثيل الحق والباطل .

(٥) من أسرار التنوع وأصوله مراعاة المستوى الفكرى والحضارى والتقدم العلمي .

فصورة السراب الذى تمثل للظمآن صورة عامة تراعي مستويات الإدراك الأولى لدى الناس .

أما تمثيل البحر اللجي وتكاثف ظلماته تحتاج إلى قدر عظيم من الرؤية والتأمل والتفكر فضلا عما وراءه من الإعجاز العلمي في القرآن والذى لم يدرك إلا في العصر الحديث.

٦ - من أسرار التنوع وأصوله أن يبنى التمثيل مرة على التحليل والتفصيل وأخرى على الطي والدمج تلاؤما مع السياق الذى ورد فيه والغرض الذى سيق له.

٧ - من أسرار التنوع وأصوله الانتقال من الحسى الى المعنوى وذلك لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك كالتمثيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لاثارة محور الطمع في الربح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله لأن النفس هنا زاخرة مفعمة بمعاني الخير زاكية مبتغية وجه الله والنفقة وارفة الظلال دائمة الاثمار.

٨ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناوءه ونظمه وعناصره ومعانيه وظلاله التى تتناسب مع السياق الذى ورد فيه فالماء المختلط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر، والهشيم الذى تذروه الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها . والظلمات التي تتكاثف في بحر لجي تتناسق مع النور الذى يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا.

وبعد فالحمد لله الذى وفقني لخدمة كتابه الجليل والكشف عن بعض أسرار بيانه ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجو الله الكريم أن يهدى إليه حملة العلم وطلابه ليفتقوا كمائمه ويستخرجوا ودائعه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

وقل ربي زدني علما ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

المصادر والمراجـــــع

- الأدب المفرد

للامام الحافظ محمد بن اسماعيل البخارى رضي الله تعالى عنه ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت لبنان .

- أساس البلاغة

تأليف الإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشرى

تحقيق عبد الرحيم محمود

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- أسرار البلاغـة

تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- أسرار التكرار للكرماني

لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني

دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا

ط/ الثالثة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م . دار الاعتصام .

- الاتقان في علـوم القرآن لشيخ الاسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ط/ الرابعة ١٣٩٨ - ١٩٧٨م .

- الإعجاز البلاغي

د / محمد محمد أبو موسى

ط/ الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م

الناشر مكتبة وهبه .

- إعجاز القرآن للباقلاني

أبي بكر محمد بن الطيب

تحقيق السيد أحمد صقر ط/ الرابعة

دار المعارف .

- اعلام الموقعين عن رب العالمين

تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف

بابن قيِّم الجوزية

- حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت لبنان .

- الأمثال في القرآن الكريم

د / محمد جابر الفياض

ط / الأولى ١٩٨٨م

(ب)

- بديع القرآن

لابن أبي الإصبع المصرى

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف ،/ط/ الثانية ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة .

- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى - توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .
المكتبة العلمية بيروت لبنان . تحقيق : الاستاذ عبد العليم الطحاوى .

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى وأثرها في الدراسات البلاغية .
د / محمد محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، القاهرة .

(ت)

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن

لابن أبي الإصبع المصرى

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي

القاهرة ١٣٨٣هـ .

- التصوير البياني

دراسة تحليلية لمسائل علم البيان

د/ محمد محمد أبو موسى

ط/ سنة ١٩٨٠م - مكتبة وهبه القاهرة

- تفسير أبي السعود

المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

للإمام أبي السعود محمد بن محمد العَمادىْ

- دارإحياء التراث العربي بيروت لبنان .

- تفسير البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي

ط/ الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير ابن كثير

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

ط/ سنة ١٩٨١م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير التحرير والتنوير

تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الدار التونسية للنشر .

- تفسير الفخر الرازى

المشتهر بالتفسيرالكبير ومفاتيح الغيب

للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر

ط/ الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير القرآن الحكيم (المنار)
محمد رشيد رضا ، ط/ الثانية .
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .
- التفسير القيم
للامام ابن القيم
جمع محمد اويس الندوى ، تحقيق محمد حامد الفقي
دار العلوم الحديثة بيروت لبنان
- تلخيص البيان في مجازات القرآن
تأليف الشريف الرضي
تحقيق وتقديم د/ علي محمود مقلد
منشورات دار مكتبة الحياة/ بيروت لبنان .

(ث)

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني
تحقيق محمد خلف الله و د/محمد زغلول سلام
ط/ الثالثة ، دار المعارف بمصر

(ج)

- الجامع لأحكام القرآن
أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي
دار احياء التراث العربي بيروت .
- جامع الأصول في أحاديث الرسول
تأليف الامام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد
ابن الأثير الجزرى
تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط ، ط/ ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م
نشر وتوزيع مكتبة الحلواني و مطبعة الملاح و مكتبة دار البيان .

- جامع البيان عن تأويل آى القرآن
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى
دارالفكر، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

- الجامع الصحيح
للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى
دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .

- الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى
الدكتور : مصطفى الصاوى الجويني ، الناشر منشأة المعارف الاسكندرية .

(ح)
- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوى
دار صادر بيروت .

(د)
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز
الخطيب الاسكافي برواية ابن أبي الفرج الاردستاني ،
منشورات دار الافاق الجديدة بيروت ، ط/ الرابعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

- دلائل الاعجاز
تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد
الجرجاني النحوى
قَرَأَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ محمود محمد شاكر
الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(ر)

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي
١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م دار الفكر بيروت .

(ص)

- صحيح البخارى
للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة
ابن بَردِزبه البخاريّ الجعفيّ
دارالعربية للطباعة والنشر والتوزيع .

- صفوة التفاسير
تأليف محمد علي الصابوني
دارالقرآن الكريم بيروت .

- الصورة في التراث البلاغي

مجلة كلية اللغة العربية ، أم القرى السنة الثانية

١٤٠٤-١٤٠٥هـ.

(ظ)

-

- الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن

تأليف د/ عبد العليم عبد الرحمن خضر ، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

(ع)

- عمدة القارى شرح صحيح البخارى للشيخ الامام بدر الدين أبي محمد محمود العيني ، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان.

(غ)

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان

نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري

تحقيق إبراهيم عطوة عوض

مطبعة مصطفى البابي الحلبي

ط/ سنة ١٩٦٤م القاهرة.

(ف)

- في ظلال القرآن

سيد قطب - دار الشروق. ط: التاسعة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

(ك)

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان.

(ل)

- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)

علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن

طبعة دار الفكر .

(م)

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

تحقيق المجلس العلمي بفاس ،ط/الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

- مختصر صحيح البخارى

تأليف الامام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدى

تحقيق ابراهيم بركة ،دار النفائس ، ط/الثانية ،١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- مختصر صحيح مسلم

للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القُشيرى النيسابورى

تحقيق محمد ناصر الدين الألباني

المكتب الاسلامي بيروت .

- معاني القرآن

تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء

عالم الكتب بيروت .

- معجم مقاييس اللغة

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا

تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- المفردات في غريب القرآن

تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني

تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني

دار المعرفة بيروت لبنان .

- من الإعجاز البلاغي للقرآن

د/صباح عبيد دراز

دار التوفيقية للطباعة بالأزهر

- من أسرار التعبير في القرآن - صفاء الكلمة -

د/ عبد الفتاح لاشين ،ط/ دارالمريخ

- من بلاغة القرآن

تأليف أحمد أحمد بدوى ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ،القاهرة .

(ن)

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

للامام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي

ط/ الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن الهند .

- النظم القرآني في سورة الرعد

تأليف محمد بن سعد الدبل

عالم الكتب .

- نيل الأوطار - شرح منتقى الأخبار للشوكاني لمحمد بن علي الشوكاني ،

ط/ ١٩٧٣م ،دارالجيل بيروت ،شرح وتعليق : منير آغا الدمشقي .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات الاجمالي

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ - ح
التمهيد : جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع	١- ٢٧
الفصل الأول : التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا وأسرار تنوعها	١- ٨٧
الفصل الثاني : التشبيهات التي تمثل الإنفاق وأسرار تنوعه ويتضمن الإنفاق في سبيل الله والإنفاق المشوب بالمن والأذى أو الرياء أو الكفر	٨٦ - ١٦٠
الفصل الثالث : التشبيه الذى يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه	١٦١- ٢١٩
الفصل الرابع : التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها	٢٢٠- ٢٧٧
الفصل الخامس : التشبيه الذى يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين وأسرار تنوعه	٢٧٨-٣٠٩
الفصل السادس : التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار تنوعها	٣١٠ - ٣٣٦
الخاتمة	٣٣٧ - ٣٤٧
المصادر والمراجع	٣٤٨ - ٣٥٧
فهرس الموضوعات الاجمالي	٣٥٨